

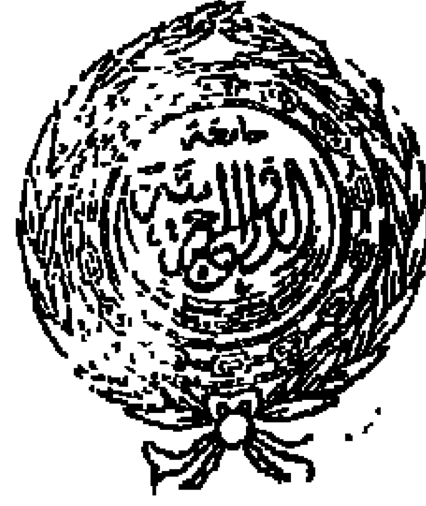
معهد البحوث والدراسات العربية

الفكر الديني الاسرائيلي
أطواره ومذاهبه

الدكتور حسن ظاظا
[قسم البحوث والدراسات الفلسطينية]

١٩٧١

الفكر الديني الإسرائيلي
أطواره ومذاهبه



معهد البحوث والدراسات العربية

الفكر الديني الإسرائيلي
أطواره ومذاهبه

الدكتور حسن ظاظا
[قسم البحوث والدراسات الفلسطينية]

١٩٧١

مقدمة

الدين اليهودى هو عصب العنصرية اليهودية . وهو دين يختلف اختلافا بينا ، من حيث طبيعته ونشأته وتاريخه ، عن أكثر الأديان التى نعرفها . فهو مجموعة من العقائد والشرائع والطقوس وقواعد السلوك والأخلاق ، تراكمت وتبلورت ونضجت على مدى آلاف من السنين . لم تنزل على رجل واحد ، إذ إن تاريخ النبوة فى إسرائيل يواكب التاريخ الاجتماعى والسياسى لتلك المجموعة البشرية ، منذ مجاهل التاريخ الأولى إلى بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، عند المدققين من اليهود فى التزام النقول المروية فى النصوص المقدسة ، وإلى ما بعد ذلك بقرون عند غير الملتزمين ، ممن يرون فى الكهنة والأحبار الذين تلوا الأنبياء الأخيرين : دانيال ، وإستير ، وعزرا ، ونحميا ، وملاكى ، استمراراً للوحى والنبوة فى هذا المجتمع اليهودى ، بل إن الملتزمين أنفسهم من طائفة اليهود الفريسيين - الذين نسميهم الربيين أو الربانيين - يقولون بهذا الاستمرار . فهم يسمون « المِشْنَة » بالاسم الطنان الرنان « التوراة الشفوية » ، مع أنها - كما سنرى بعد - ليست إلا مجموعة من الاجتهادات والفتاوى والشرائع التى سنها أحبار من هؤلاء اليهود بعد انقضاء عصر النبوة . ويظل باب النبوة هذا مفتوحا عند مؤرخى الفكر الإسرائيلى ليدخل منه أنبياء أنكرهم اليهود وكفروا بهم ، من أمثال يوحنا المعمدان - النبى يحيى - والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام . بل إن كثيراً من « العلمانيين » اليهود ، ممن ألهبت أرواحهم نيران الصهيونية الحديثة ، يبقون باب النبوة هذا مفتوحا حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتسل أيضا .

وبالرغم من هذا الالتحام العضوى فى اليهودية بين ما هو دين وما هو قومية ، وبالرغم من أن نتيجة ذلك كانت، من الناحية الاجتماعية، هى إبقاء تلك الطائفة من الناس معزولة عن الإنسانية المحيطة بها وراء أسوار ومتاريس من العادات والتقاليد ، والأشكال الخاصة لفهم الحياة والتعامل مع البشر ، فقد أثرت اليهودية تأثيراً عميقا جداً فى الفكر البشرى ، كما أنها - سواء أقرت بذلك أم أنكرته - قد تأثرت به بعمق أيضا ، ولكن يظل وراء ذلك حائط الشكليات مانعا من التبادل الحر ، ومن الاندماج ، ومن النظرة السمحة للزمان والناس .

وإذا كانت الصهيونية المعاصرة التى انغرست فى فلسطين مع الاستعمار الغربى فى الشرق الأوسط ، قد أفلحت حتى الآن فى التغرير بالرأى العام العالمى ، وإفهام السذج من غير شعب الله المختار أن هذه الدولة قد قامت فى هذه الأرض لتكرس بها عصر الديمقراطية والتقدم والتكنولوجيا والتعاون والإخاء ، فإن التكوين الحقيقى للفكر الصهيونى الكامن وراء هذا التزويق ، إنما يرجع معظمه - إن لم يكن كله - إلى أعماق وثنايا ومنحنيات تاريخية قديمة عرفها المجتمع اليهودى من خلال الدين ، ومن خلال المفاهيم الاعتقادية ، والمسلمات الغيبية ، والتفاسير الصوفية والفولكلورية التى غص بها تراثهم الدينى . إنه من وجهة النظر الأدبية تراث قيم وممتع ، لا شك فى هذا ، وهو ملىء بالعجائب والغرائب التى سجلها اليهود على مدى تاريخهم الطويل ، إما من تجاربهم الاجتماعية الشخصية ، وإما من تجارب الأمم الأخرى التى عاشوا بين ظهرانيها ، فأغاروا على تراثها وانتحلوا منه ما شاءوا لأنفسهم ، وادعوا أصالته عندهم . إن « اليهودى التائه » ليس مجرد هذا الشخص المسكين

المتوهم أنه سليل إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ووريث موسى وهارون، وخليفة سليمان وداود ، مهما كان يضرب فى مناكب الأرض مفلوكا ، متصعلكا ، عائفا ، يجوب الآفاق عصاه بيده وخُرجه وراء ظهره . إن اليهودى التائه هو شظايا من القبيلة الاجتماعية الإسرائيلية تناثرت فى كل مكان ، فأخذت ما شاء لها أن تأخذ من تجارب البشر ومأثورات الناس ، ثم كانت تعود فتلتئم أجزاء منها ، لتجعل من هذه المقتبسات المتعددة الأصول سبيكة ممتزجة فى بوتقة الذوق الفكرى اليهودى . إن فى الأدب اليهودى للباحث البصير غير المخدوع ولا المتعصب ، صهيونية اغتصب فيها إسرائيل أفكارا من أثمن أفكار الأمم الأخرى وأكثرها أصالة فيها وأعزها عليها ، وادّعاها لنفسه ، تماما كما اغتصب فلسطين .

ومع ذلك فان هذه الظاهرة كانت سلاحا ذا حدين ، إذ أنها كما ساعدت على شد أواصر العصبية اليهودية ، كانت فى نفس الوقت سببا فى اختلاف المذاهب والآراء والأفكار ووجهات النظر بين اليهود بعضهم وبعض . واليهود من أشد الناس إصابة بداء الخلاف ، ولعل ذلك راجع إلى الاختلاف المبدئى فى المصادر والينابيع الأولى لتراثهم الفكرى وتكتلهم الاجتماعى . وهى الظاهرة التى إن درست بما يحق لها من التعمق والعناية شرحت لنا الكثير من حقائق الاتجاهات الصهيونية المختلفة التى نلاحظها فى سياسة إسرائيل الآن .

ونحن نريد بهذه الصفحات أن تكون مقدمة ، وتمهيداً للطريق ، نحو فهم أعمق لكنه الفكر الإسرائيلى .

الاسكندرية ، فبراير ١٩٧١ — الدكتور حسن ظاظا

الفصل الأول

إسرائيل ومقدساته القديمة

كان المرجع الوحيد للتاريخ الإسرائيلى القديم حتى بداية القرن التاسع عشر هو كتاب اليهود المقدس المعروف باسم العهد القديم . بل لقد كان هذا الكتاب حتى هذا التاريخ المتأخر يعتبر المرجع الأول والأساسى لتاريخ الشرق الأدنى القديم كله . ولكن ، مع الطفرة الهائلة التى تمت فى ميدان الحفائر والاكتشافات الأثرية فى هذه المنطقة ، وبفضل النجاح فى قرأءة كتابات قديمة كانت طلاسم وألغازاً حتى هذا الوقت ، كالكتابات المصرية الفرعونية : الهيروغليفية ، والهيراطيقية ثم الديموطيقية ، وكالكتابات المسمارية فى العراق وما جاورها : السومرية ، والبابلية ، والاشورية ، والكلدانية ، والفارسية الأخمينية ، والحيثية ، والكنعانية المسمارية فى منطقة رأس الشمرة القريبة من اللاذقية بسوريا ، بفضل هذا كله ، وبما لحق به من نصوص أميط عنها اللثام من الفينيقيين فى لبنان ، والقرطاجيين فى تونس ، والآراميين والأدوميين فى سوريا والأردن ، ونقوش العرب فى شبه جزيرتهم جنوبيها وشماليها ، بدأت أضواء جديدة ـ علمية يقينية ، وتاريخية جديرة بالاعتبار ـ تزاحم المأثورات الشعبية ، والمنمنات اليهودية ، وتنازعها حق القيادة والتوجيه فيما يتصل ببداية الفكر الإنسانى وتاريخ الحضارة فى هذه المنطقة . وساعد على ذلك نزعة تحرر من سلطان الكهنوت ، وسيادة الكنيسة ،

مع ازدهار القوميات السياسية فى أوربا الحديثة ، ومع الثورة الاقتصادية والعلمية التى ما تزال انفجاراتها تتوالى حتى الآن .

من هنا أحس الباحثون ، على اختلاف نزعاتهم ومللهم وعقائدهم ، بضرورة إعادة النظــــر فى كل المرويات الإسرائيلية التى كانت المعتمد الوحيد المسلم به بدون مناقشة على مدى أجيال وأجيـال من التاريخ . وبدأ رشاش من ذلك يصل إلى العالم العربى - وهو مركز هذه الأبحاث ، ومستودع تلك الآثار والحضارات - فأخذ كثير من الباحثين فى مراجعة التراث العربى الإسلامى من جديد ، وقد شد انتباههم بعض ما ورد فى مؤلفات الأقدمين من الأئمة والعلماء عن الرشح اليهودى على الفكر الإسلامى فيما يتصل بالتاريخ وتفسير القرآن الكريم ؛ وترددت كلمة « الإسرائيليات » لتمييز هذا الرشح اليهودى والدعوة إلى تصفية الفكر العربى والإسلامى منه ، وكان من أعــــلام الدعاة إلى ذلك الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وتلميذه السيد محمد رشيد رضا ، وأستاذنا المرحوم أمين الخولى وغيرهم . وقد خاض أولئك الاعلام معركتهم المعقدة المترامية الأطراف بالوسائل والأسلحة التى وجدوها فى متناول أيديهم ، وأهمهـــا عرض المرويات المشبوهة على المحك التقليدى الذى تتضمنه قواعد علم مصطلح الحديث ، من نقد السند - أى سلسلة رواة الخبر واحداً واحداً - ونقد المتن ، وهو المضمون الذى يفصح عنه الخبر ، بعرضه على ميزان العقل تارة ، وميزان النقل تارة أخرى ، وذلك بمقارنته بالنصوص الوثيقة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وبيان ما قد يكون فيه من تناقض أو تهافت .

وفضل هؤلاء الأعلام فى توجيه الأنظار إلى ماحذر منه القدامى من الأئمة لايمكن جحوده . ولكن المنهج كان بدون شك مفتقراً إلى اتصال مباشر بالإسرائيليات فى أصولها ولدى أهلها ، وكان لابد من تخطى هذا أيضا إلى منابع هذه الإسرائيليات فى الوثنيات القديمة فى الشرق ، كلما كان ذلك متعينا .

وإذا كان العالم الإسلامى ، وكثير من مفكرى المسيحية أيضا ، قد امتعضوا وتبرموا بالتسرب الفكرى الإسرائيلى إلى تراثهم ، فإن اليهود من ناحيتهم ، يباهون بذلك ويفخرون به ، ويجعلون من أهم مبررات وجودهم ، ودلائل ترشيحهم السماوى للدور القيادى على الأرض ، أن أثرهم العقائدى متغلغل فى الأمم الأخرى ، واضح فى حياتها الروحية ونظمها الشرعية .

العهد القديم

هو النص الأساسى الذى يقوم عليه دين اليهود ، وهو فى صورته التى وصل إلينا بها يحتوى على ثلاثة أقسام : التوراة والأنبياء ، والكتب أو أسفار الحكمة .

أما التوراة والأنبياء فإنهما يسيران فى نسق تاريخى متصل ، ويحكيان قصة حياة العبريين منذ البداية إلى عودتهم من السبى البابلى فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . هما معا بمثابة ملحمة تغرس فى نفس القارىء إيمانا بعبقرية هذه الفئة الصغيرة من الناس ، وبطولتها فى مواجهة الأحداث الضارية على مدى ألف وخمسمائة سنة من الزمان . وشكلها الملحمى هذا يستوفى كل عناصر المأثورات الشعبية القديمة الداخلة فى هذا الصنف من الأدب فى أشد صورها فخامة وتألقا . ولكى يتم ظهور الشخصية الإسرائيلية خلال هذه الملحمة على مسرح الإنسانية فى دور البطولة الذى لاينازعها فيه منازع ، فإنها تبدأ بالكلام عن خلق العالم بحيث يتم خلال ذلك انتقاء « شعب الله المختار » من بين الأمم الأخرى لهذا الدور الذى رشحته له السماء . ويمضى السرد القصصى التاريخى فى هذين القسمين من العهد القديم مشحونا فى مواضع معينة بالشرائع والقوانين وقواعد السلوك وأركان الاعتقاد ، وتختلف فيها نسبة ماهو أسطورة وما هو تاريخ واقعى ، باختلاف الحوادث بعدا وقربا من الحقب التاريخية المسجلة عند الأمم الأخرى وحسب ماتتطلبه المواقف السياسية والحربية من ذلك .

أما القسم الثالث والأخير وهو الكتب ، فإنه تراث أدبي يكثر فيه الشعر والأمثال والقصص ، ويعتبر غذاء روحيا مستقلا ، إلى حدٍّ ما ، عن الأحداث التاريخية للأمة .

وسنبدأ بتقديم تعريف مركز موجز بهذه الأقسام.

١ ـ التوراة

وهى تتألف من خمسة كتب أو أسفار ، تنسب إلى موسى ؛ وتوصف بأنها أنزلت عليه من الله فى طور سيناء . وتغطى هذه الأسفار الخمسة فترة من التاريخ تبدأ مع بدء الخليقة ، وتنتهى بوفاة موسى على جبل « نبو » فى شرق الأردن حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. وهذه التوراة ، بأسفارها الخمسة ، تتتابع فى شكلها الذى بين أيدينا على النظام التالى :

(ا) سفر التكوين :

ويقع فى خمسين فصلا ، أو إصحاحا ، تحكى فى خطوطها العريضة قصص آدم ؛ ونوح ، والطوفان ، وما كان من أمر أبنائه بعد الطوفان ؛ سام ، وحام ، ويافث . ثم تصل إلى الجد الأعلى الذى ينتمى إليه اليهود ، وهو إبراهيم . وتتحدث عن سلالته مركزة الحديث عن إبنه إسحق ، ثم يعقوب بن إسحق ، الذى يسمى أيضا إسرائيل . وينتهى هذا السفر بقصة يوسف ومجيئه إلى مصر ، ولحاق يعقوب وأبنائه الأحد عشر به ، واستقرارهم فى أرض الفراعنة .

(ب) سفر الخروج :

ويقع فى أربعين إصحاحا تبدأ بالحديث عن اضطهاد الفراعنة لبنى إسرائيل ،

بعد أن عظم شأنهم ، وكثر عددهم خلال الأجيال التى انصرمت منذ موت يوسف ، بحيث أصبحوا خطرا يهدد سلامة مصر . فى تلك الفترة يولد موسى فيحكى هذا السفر قصة مولده ونشأته وتحركاته فى منطقة الشرق الأدنى ، وبخاصة صحراء سيناء وأرض مدين ، إلى أن يأتيه الوحى الإلهى على جبل الطور بالبدء فى تحدى فرعون ، والعمل على إخراج اليهود من مصر ، « أرض العبودية » ، وقد تم له ذلك . فعبر بهم البحر ، وبدأت رحلتهم عبر سيناء (من الإصحاح الخامس عشر) . ثم يتلقى موسى « الوصايا العشر » التى ذُكرت فى الإصحاح العشرين (الآيات ١ - ١٧) ، وقد تكرر ذكرها فى السفر الخامس من التوراة وهو سفر التثنية ، الإصحاح الخامس (الآيات ٧ - ٢١) . كذلك ترد فى هذا السفر (الإصحاح ٢٠ الآية ٢٢ إلى الإصحاح ٢٣ الآية ١٩) مجموعة هامة من الشرائع والقوانين تسمى « قانون العهد » ؛ ثم يصعد موسى إلى الجبل ، وتطول إقامته وحيدا هناك ؛ وإذا ببنى إسرائيل يرتدون عن دينه إلى عبادة العجل . فيتولى موسى عملية إصلاح دينى جديدة ، تستمر أثناء رحلته بهم شرقا .

(ج) سفر اللاويين :

ويسمى أيضا سفر الأحبار ، نظرا لأن الشرائع والطقوس الكهنوتية تشغل فيه المكان الأول . وكانت مهمة الكهانة موكولة إلى سبط «لاوى»[1] بن يعقوب ، وهى القبيلة التى ينتمى اليها موسى وأخوه هارون ، والتى كان الكهنة كلهم منها حسب اشتراط التوراة لذلك . ويقع هذا السفر فى سبعة وعشرين إصحاحا ، وفيه يتوقف سرد بقية قصة المسيرة الإسرائيلية

(١) ينطق اليهود هذا الاسم الان « ليفى » .

مع موسى عبر سيناء ، بحيث يحتوى على التعاليم الخاصة بالحياة الدينية فقط . ونصوصه تتكامل مع القسم الأخير من سفر الخروج الذى قبله ، ومع جزء كبير من سفر العدد ، الذى بعده ، من حيث وحدة الموضوع . ويسمى علماء الشريعة الإسرائيليه هذا الكل المتكامل باسم « القانون الكهنوتى » .

(د) سفر العدد :

وهو ستة وثلاثون إصحاحا . وسمى بهذا الاسم لبروز ظاهرة التعداد الدقيق خلال نصوصه ، كالإصحاح الأول ، والرابع ، والسادس والعشرين مثلا ، حيث يرد إحصاء تفصيلى للشعب الراحل مع موسى فى الصحراء ؛ كما أن المعلومات المبنيه على الأعداد والأرقام حول الذبائح وعدد المدن والقرى ، ونحو ذلك ، تكثر فيه كثرة تلفت النظر . وفى هذا السفر رجوع إلى سرد قصة مسيرة موسى وقومه ، تتخللها الأحكام الشرعية فى مختلف المسائل ، والفتاوى الفقهية حسب ما يعنّ من ظروف . كذلك يكثر فيه تذمر العبريين من متابعة السير على خطوات موسى ، وانحرافهم نحو ألوان من الفسوق والعصيان ، كثيرا ما أثارت غضب موسى نفسه عليهم .

(هـ) سفر التثنية :

ويسمى كذلك سفر « تثنية الاشتراع » ، أى إعادة الشريعة وتكرارها على بنى إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء ، ووصولهم إلى سهول النقب وجنوب الأردن فى صحراء مؤاب . وبالطبع كان هناك نسخ لبعض تعاليم الشريعة الاولى عند تثنيتها ، أو إضافة لأشياء لم

ترد من قبل ، فهنا مثلا نفاجأ بنص يجعل نظام الحكم ملكيا ، إذ يقول فى الإصحاح السابع عشر (الآيات ١٤ - ١٨) : « إذا دخلتَ الأرض التى يعطيك الرب إلهك ، وملكتها ، وسكنت فيها ، فقلتَ أقيم علىّ ملكا كسائر الأمم الذين حوالىّ ؛ فأقم عليك مَنْ يختاره الربّ إلهك ، من بين إخوتك تقيم عليك ملكا ، وليس لك أن تقيم عليك رجلا أجنبيا ليس بأخيك . لكن لايستكثر من الخيل ، كى لا يردّ الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل ، فقد قال لكم الرب لاتعاودوا الرجوع فى هذه الطريق أيضا . ولايستكثر من النساء لئلا يزيغ قلبه ولايبالغ فى استكثار الذهب والفضة . ومتى جلس على عرش ملكه ، فليكتب له نسخة من هذه التوراة فى سِفر مِنْ عند الكهنة اللاويين . »

وهذا السفر ، الذى ينهى التوراة المنسوبة إلى موسى ، يعبر - دينيا واجتماعيا - أصدق تعبير عن الفكر الإسرائيلى القح ، بل لعله يعبر عن ذلك أوضح من تعبيره عن موسى نفسه ، ويقع فى أربعة وثلاثين إصحاحا ، ورد فى آخرها قوله (الآيتان ٥ - ٦) : « فمات هناك موسى ، عبد الرب ، فى أرض مؤاب ؛ بأمر الرب . وتم دفنه فى الوادى ، فى أرض مؤاب ، تجاه بيت فاعور ، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا » .

وهذا النص الأخير يشعرنا بأن توراة موسى هذه ، فى وضعها الذى جاءت به إلينا ، تمثل مشكلة غامضة جدا ، ومعقدة أشد التعقيد ، من حيث علاقتها بما كان من أمر الشريعة الموسوية على عهد صاحبها نفسه . فحتى من حيث اللغة نجد لزاما علينا أن نسأل إلى أى حد احتفظت عبرية هذه التوراة بالسمات الأولى للسان الذى كان يتحدث به موسى ،

على فرض أنه كان يتحدث بالعبرية ، أو بلغة سامية شبيهة بها . فنحن نعلم أن قرونا كانت قد مرت بين أيام يوسف وأيام موسى ؛ وأن موسى نفسه قد ولد فى مصر ، كما ولد فيها آباؤه من قبل ، وأنه تربى فى بيت فرعون ، وهو من أبعد البيوت فى مصر عن احتمال التزام باللغة العبرية ، أو بلغة شبيهة بها من لغات الساميين .

هذه المشكلة الأولى دفعت الباحث اليهودى المعاصر ، والطبيب النفسانى الشهير « زيجموند فرويد إلى القول بأن موسى كان مصريا (١) . وهو يستند فى ترجيح هذا الافتراض إلى أسانيد يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - أنه لم يرد فى أسماء الساميين جميعا ، سواء أكانوا من العبريين أو من غيرهم كالآراميين والكنعانيين والأكّاديين اسم نطقه كاسم موسى فهذا النبى هو أول شخص يحمل هذا الاسم .

٢ - أن كلمة موسى باشتقاقها الذى ذكرته التوراة يدعو إلى كثير من التأمل والتفكير . ففى الإصحاح الثانى من سفر الخروج تنتشله ابنة فرعون من المـاء . ثم تعطيه لمرضع من نسوة العبرانيين - هى أمه نفسها - لكى ترضعه لها ، إلى أن بلغ الفطام . « ولما كبر الصبى جاءت به إلى إبنة فرعون ، فاتخذته إبنا لهـا ، وسمته موسى قائلة : لأنى انتشلته من الماء »(٢) . والفعل انتشل يقابله فى النص العبرى فعل نادر الاستعمال جدا بهذا المعنى هو الفعل (مَشَى) الذى اشتق منه اسم

---

(١) Sigmund Freud : Moïse. & le Monothéisme Traduit de l'allemand par Anne Berman; Gallimard — Paris ; 8e édition, 1948.

(٢) التوراة : الخروج ٢/١٠ .

موسى (موشى) . ويرد الطعن فى ذلك من نواح كثيرة أهمها أن كلمة (موشى) هى صيغة لاسم الفاعل فى اللغة العبرية ، لاتؤدى معنى « الذى أنقذوه وانتشلوه من الماء » وإنما تكون للدلالة على « المُنْقِذ » الذى ينتشل هو الآخرين . ثم كيف يتأتى لابنة فرعون أن تفكر فى تسمية صبى تبناه بلغة غير لغتها ، خصوصا وهى لغة قوم يعتبرهم قصر فرعون أعداء له ، وويلا على مملكته . ثم هل يسوغ فى العقل أن يكون فرعون معنيا كل العناية بقتل كل أولاد العبريين ، وأن تفكر ابنته مع ذلك فى تنشئة طفل يحمل اسما من أسماء هؤلاء العبريين فى فى داخل قصر فرعون نفسه . يضاف إلى هذا ماذكرناه آنفا من أن المادة (مشى) لا تقوم عليها شواهد واضحة غير ما جاء فى الآية التى نحن بصددها .

٣ ـ نجد فى اللغة المصرية الفرعونية كلمة قريبة جدا من نطق موسى ، هى لفظة (مُوس) التى معناها الطفل ، والغلام ، والابن ... ويكتبونها أحيانا بالعربية (مُسْ) بدون واو ، وهى التى توجد فى أسماء الفراعنة تحوتمس ، أى ابن الإله تحوت ، ورعمس ، أى ابن الإله رع ...

لذلك رجح فرويد أن يكون موسى مصريا ، وأن تكون دعوته قد بدأت على أثر موت الفرعون المصرى أخناتون ، أول شخصية تاريخية تثور على الشرك والوثنية وتقول بإله واحد ، وكأن أخناتون كان ممهدا لرسالة موسى .

ولكن حدث بعد موت هذا الفرعون أن تغلب الكهنة المصريون من شيعة الديانة الوثنية القديمة ، وهكذا وجد موسى نفسه مضطرا إلى

الهجرة ، حتى يستطيع أن ينظم صفوفه على الحدود الشرقية لمصر ، ثم يعاود الكرة ليفرض الوحدانية على المصريين . ويرى فرويد أن هذا المخطط هو الذى دفع فرعون مصر الوثنى إلى محاولة منع موسى ومن معه من الخروج ، وهو الذى جعل هذا الفرعون يفضل أن يعرّض نفسه وجيشه للخطر فى تعقب هذا الداعية التوحيدى عبر سيناء على أن يعتبر رحيله هو ومن معه أمرا مرضيا ، وراحة له وللناس .

ويسأل فرويد عن قوم موسى أولئك ، من أى عنصر كانوا ؟ ثم يقول إن أكثرهم كان من الطارئين على البلاد من غير المصريين . فيهم الساميون البدو ، من عبريين وأدوميين وبابليين وكنعانيين وغيرهم ، وفيهم من غير الساميين أيضا . نازحون من جنوب وادى النيل ، ومن الصحراء الغربية ، ومن جزائر بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط . ومن المحتمل أن تكون هذه الأخلاط من الناس مكونة من بعض الحرفيين والجنود المرتزقة والعبيد وأسرى الحروب ونحوهم ، ممن لا تربطهم بمصر صلة ، ولا يملكون فيها دارا ولا أرضا ، مما هون عليهم أمر الرحيل وترك هذه البلاد . أما المصريون فهم فى رأى فرويد قلة قليلة من قوم موسى ، هم السبعون رجلا الذين اختارهم وجعل لهم القيادة فى مجتمعه الجديد .

ومهما يكن من شىء ، فان مجرد تردد هذه الافتراضات على بساط البحث يثبت ماقدمناه من الغموض الشديد الذى يحيط بالأبعاد التاريخية الحقيقية لسيدنا موسى ودعوته ولكنها على كل حال فى وضعها المثبت فى التوراة التى بين أيدينا تنطق بما تراكم فيها من القصص والشرائع

المأخوذة من أمم أخرى لآسيا الشومريين والأكاديين والمصريين . فهناك شرائع خاصة بالمعاملات تكاد تكون ترجمة أو تلخيصا لشرائع مماثلة فى قانون حورابى . فمن أمثلة ذلك ماجاء فى سفر الخروج ٢/٢١-١١ : « إذا ابتعت عبدا عبرانيا فليخدمك ست سنين وفى السابعة يخرج حرا مجانـا . إن دخل وحده فليخرج وحده ، وإن كان ذا زوجة فلتخرج زوجته معه . وإن زوّجه مولاه امرأة فولدت له أبناء أو بنات فالمرأة وأولادهـا يكونون لمولاه وهو يخرج وحده . وإن قـــال العبد قد أحببت مولاى وزوجتى وأبنائى ولا أريد أن أخرج حرا ، فإن مولاه يقدمه إلى الآلهة ، يقدمه إلى مصراع الباب ، أو قائمته ، ويثقب مولاه أذنه بالمثقـاب فيخدمه أبد الدهر . وإن باع رجل ابنته أمة فلا تخرج خروج العبيد . وإن كرهها مولاها الذى خطبها لنفسه ، فليدعها تعتق وليس له أن يبيعها لقوم غرباء ، لأنه يكون قد غدر بها ، وإن أعطاها خطيبة لإبنه فبحسب حكم البنات يعاملها . وإن تزوج بأخرى فلا ينقصها من طعامها وكسوتها وأوقاتها . فإن أخل معها بواحدة من هذه الثلاث تخرج مجانا بلا مقابل . » وهى أحكام تماثل ماجاء فى قانون حورابى فى المادتين ١١٧ - ١١٨ .

وفى نفس الإصحاح المشار اليه تتحدث الآية ١٨ عن دية الإصابات المترتبة على مشاجرة بين اثنين فتقول : « وإذا اختصم رجلان ، فضرب أحدهما الآخر بحجر ، أو لكمه فلم يمت بل لزم الفراش ، فإن قام ومشى خارجا على عكازه فقد برىء الضارب ، غير أنه يعطيه دية عطلته وينفق على علاجه . » وهذا ينطبق على المادة ٢٠٦ من قانون حورابى أيضا .

وقد بين الأب الفرنسى الدكتور هنرى كازيل (١) أن جزءا صغيرا من هذه الشرائع ، هو الذى أشرنا إليه باسم قانون العهد ، يتضمن تشريعات نابعة من قانون حمورابى ، والشرائع الأشورية والحيثية وبعض أصول مصرية فرعونية أو كنعانية . كل ذلك من شأنه أن يؤكد مرة أخرى الغموض الذى يسود علاقـــة نص هذه التوراة بالرسول الذى تنسب إليه وهو موسى .

وأغلب الظن أن دعوة موسى بمجرد خروجها من مصر شرقا ، تعرضت لكثير من الخلل والانحراف ، فقد بدأت تتحول من عقيدة تحررية إلى نعرة عنصرية . ويشعرنا فرويد (٢) بأن هذا التحول اقتضى أن تتحول شخصية موسى نفسه إلى هذا الوجه الأسطورى الذى تبرزه التوراة . فإن شخصية البطل عند الساميين تنبنى على عناصر أهمها :

١ ـ أن يكون من أب غير معروف ، أو أن يكون يتيما ، وأمثلة ذلك من أبطال الساميين الملك الأكادى سرجون الأول ، وسيدنا موسى والمسيح ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ أن تكون ولادته محفوفة بالمشاكل والمخاطر ، كأن يولد فى وقت مذبحة ، أو من أبوين طاعنين فى السن جدا ، أو من أم عاقر كانت لا تلد من قبل . والأمثلة لتلك الحالات موجودة فى ولادة موسى

---

(١) Henri Cazelles ; Études sur le Code de l'Alliance ; Paris, 1946.

(٢) المرجع السابق .

نفسه ، وشمشون الجبار ، ونبي اليهود صمويل ، ومن قبلهم اسحق ، ومن بعدهم سليمان ، والمسيح .

٣ ـ أن يكون البطل ممن أحبوا العزلة فى الصحارى والجبال ، والاشتغال برعى الغنم ، مما يتيح له إطالة التأمل فى تعاقب الليل والنهار ، وما فى الكون الكبير من عجائب ومعجزات ، وهذا واضح فى شخصية إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام .

أما شخصية البطل عند المصريين فأهم عناصرها :

١ ـ أن يكون ربيب بيئة أرستقراطية ، نشأ فى القصور ونما وترعرع بين الملوك والأمراء :

٢ ـ أن يكون قوى البنية شديد البأس لايهاب المعارك .

٣ ـ أن يعيش فى الحضر بين قوم متمدينين منظمين .

وقد لاحظ فرويد أن موسى فى قصته المعروفه يبدو لنا مزيجا من العناصر السامية والمصرية جميعا . فهو رغم ولادته من أب غير معروف ، وفى وسط مذبحة رهيبة ، قد نما ونشأ فى بيت فرعون ، وربته ابنة فرعون نفسها وتبنته . كذلك نجد العنصر المصرى الخاص بالقوة البدنية وعدم التهيب من المعارك ، يبدو فى ضربه للرجل الذى وجده يؤذى واحدا من شيعته ، ضربة واحدة قاضية ، كما يبدو كذلك فى دفعه الرعاة عن البئر ليسقى لابنتى كاهن مدين الضعيفتين . ثم إنه بالرغم مما يلاحظ من إقباله على الانفراد والتأمل فى صحراء سيناء وبادية مدين أثناء قيامه برعى الغنم ، يبدو لنا فى مواقف كثيرة فى عاصمة الفراعنة

يناقش الملك الجبار المتأله الحساب ، ويتحدى الكهنة والسحرة والعلماء ويهزمهم .

ولو أننا حاولنا أن نجمع محصول هذه الأفكار لكان عندنا مزيج فى التوراة من مصادر كثيرة مختلفة ، ومزيج مماثل فى ما وعته الذاكرة الشعبية اليهودية عن صاحب هذه التوراة .

ويبدو أن اليهود قد أرادوا بهذا التخليط أن يجعلوا من موسى ستارا يختفون وراءه أشياء لم يقل بها ولم يدعُ إليها ، منها أنه لم يرُسَل بشريعته لا إلى فرعون ولا إلى قومه من المصريين ، بل لبنى إسرائيل وحدهم .فهو لم يطالب فرعون ولا المصريين بالإيمان قط .

ومن الجدير بالذكر احتمال ألا يكون هذا التخليط قد حدث عمد وبتخطيط الفكر الواعى . فإن التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودى لمدة قرون ، بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذى كتبه عزرا - عزير عند العرب - مختلفا جداعما أنزل على موسى، فبين الرجلين مايقرب من ألف سنة من الزمان . بل إننا نشعر أن موسى ، بعد أن مات ، لم يحتفظ العبريون من ذكراه بشىء .أضاعوا الرجل وأضاعوا توراته ، بحيث مرت أجيال وأجيال لايذكره منهم أحد ، ولايعرفون حتى مكان قبره كما جاء فى النص الذى أوردناه . وفى نفس هذا الإصحاح الأخير من التوراة (سفر التثنية ٣٤) يرد نص آخر يستحق التأمل ، عند قوله : « فصعد موسى إلى جبل نبو من فيافى مؤاب ، إلى رأس الربوة المواجهة لأريحا ، فأراه الرب جميع الأرض ، من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالى ، وأرض إفرايم ومنسا ،

وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي ، والجنوب ، والمرج ، بقعة أريحا مدينة النخل ، إلى صوغر . وقال له الرب هذه هي الارض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، قائلا : لنسلكم أعطيها . قد أريتك إياها بعينك ، ولكنك إلى هنا لاتعبر . » فنى هذا النص نلاحظ أنه بالرغم من موت موسى فى شرق الأردن ، ووجود القوم الذين خرجوا معه من مصر فى نفس تلك الناحية ، فإن الراوية يرى أرض فلسطين وقد سكنتها أسباط اليهود ، دان ونفتالى وافرايم ومنسا ويهوذا ... وهو أمر لايمكن تصوره إلا بعد انتهاء عهد القضاة والدخول فى حقبة الملوك شاؤل وداود وسليمان، أى بعد موسى بما لايقل عن ثلاثمائة سنة .

ولا يعود لموسى ذكر فى أسفار العبريين المقدسة بعد ذلك ، إلا فيما ندر ، حيث يرد وكأنه حدث قديم موغل فى القدم قد طواه النسيان . فالنبي إشعيا فى المرة الوحيدة التى ذكر فيها موسى وقومه ، بعد أكثر من ستة قرون ، يقول : « ثم يذكر الأيام الغابرة ، أيام موسى وشعبه ، أين الذى أصعدهم من البحر مع راعى غنمه ؟ أين الذى جعل فى قلبه روحه القدوس ؟ الذى سيَّر عن يمين موسى ذراع عزه ، وفلق المياه أمامهم ليجعل له اسما أبديًا . » (إشعيا ٦٣ / ١١ - ١٢) . وللنبى إرميا الذى عاش فى نفس الفترة التى عاش فيها إشعيا تقريبا إشارة وحيدة يقول فيها : « وقال لى الرب لو أن موسى وصمويل وقفا أمامى ، لما توجهت نفسى إلى هذا الشعب . فاطرحهم عن وجهى وليخرجوا . » (إرميا ١٥/١٥) . ا

أما تضييع اليهود لتوراة موسى ، فإنه يتجلى بوضوح فى قصة تروى العثور عليها من جديد وبمحض الصدفة ، فى عهد الملك يوشيا بن آمون

بن منسا ، من ملوك يهوذا فى أورشليم (٦٤١ - ٦١١ ق . م) ، أى بعد وفاة موسى بأكثر من سبعمائة سنة . فذات مرة وكان يوشيا فى السنة الثامنة عشرة من حكمه ، أرسل أحد موظفى قصره ، واسمه شافان بن أصليا بن مشلّم ، إلى معبد أورشليم ليحسب مع كاهنه الأعظم حلقيا النقود التى دخلت الهيكل من الزائرين ، لكى تصرف على ترميمه . يقول النص : « قال حلقيا الكاهن الأعظم لشافان الكاتب : « قد وجدت كتاب التوراة فى بيت الرب . ودفع حلقيا الكاهن الكتاب إلى شافان فقرأه : فأتى شافان الكاتب إلى الملك ، ورد على الملك جوابا ، وقال : قد أفرغ عبيدك الفضة الموجودة فى البيت ، ودفعوها إلى أيدى القائمين بالعمل الموكلين ببيت الرب . وأخبر شافان الكاتب الملك ، وقال : قد دفع إلىّ حلقيا الكاهن كتابا . وقرأه شافان أمام الملك . فلما سمع الملك كلام كتاب التوراة مزق ثيابه . وأمر الملك حلقيا الكاهن ، وأحيقام بن شافان ، وعكبور بن ميكا ، وشافان الكاتب ، وعسايا عبد الملك ، وقال اذهبوا فتوسلوا إلى الرب لى وللشعب ولجميع يهوذا ، بمناسبة كلام هذا الكتاب الذى وجد ، لأنه عظيم غضب الرب الذى اشتعل علينا ، بسبب أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا الكتاب ليعملوا بكل مافرض علينا » . (سفر الملوك الثانى ٢٢/٨-١٣) .

وهنا يبدو واضحا أن التوراة لم تكن نسياً منسياً على أيام يوشيا فقط ، ولكن فى عهد أسلافه أيضاً ، كما تصرح بذلك الجملة الأخيرة . تضيع التوراة وفى أورشليم هيكل يرعاه جمع من المسئولين على رأسهم كاهن أعظم هو حلقيا . وأغرب من ذلك أن تكون بين اليهود فى داخل

مدينة أورشليم ، مع ضياع التوراة منها ، وفى هذا الوقت عينه امرأة نبية ، يبدو أنها لم تكن تدرى عن موسى شيئا ، ولا تذكر كلمة من توراته . إذ يستمر النص بعد ذلك فيقول : « فذهب حلقيا الكاهن وأحيقام وعكبور وشافان وعسايا إلى خُلدة النبية : امرأة شلّوم بن تقوة بن حرحاس ، خازن الملابس ، وكانت تسكن فى أورشليم ، فى القسم الثانى ، وكلموها . فقالت لهم : هكذا قال الرب إله إسرائيل قولوا للرجل الذى أرسلكم إلىّ ، هكذا قال الرب إنى جالب شرا على هذا المكان وعلى سكانه من كل كلام الكتاب الذى قرأه ملك يهوذا ، لأنهم تركونى وأحرقوا لآلهة غريبة لأجل إغضابى بكل أعمال أيديهم ، فاحتدم سخطى على هذا المكان ، ولن ينطفىء . وأما ملك يهوذا الذى بعثكم لتسألوا الرب ، فكذا تقولون له ، هكذا قال الرب إله إسرائيل من جهة الكلام الذى سمعته . بما أن قلبك قد رق ، وخشعت أمام الرب عند سماعك ما قلته على هذا المكان ، وعلى سكانه ، من أن مآله للدمار واللعنة ، فرقت ثيابك وبكيت أمامى ، فأنا أيضا قد سمعت قال الرب . إنى من أجل هذا أضمك إلى آبائك ، فتوضع فى قبرك بسلام ، ولا ترى عيناك الشر الذى أنا جالبه على هذا المكان . فأعادوا الكلام على الملك » [الملوك الثانى ١٤/٢٢ - ٢٠] .

ولم تكن النبية « خُلدة » وحدها فى أورشليم بل كانت هذه المدينة المقدسة تحتوى جمعا غفيراً من الكهنة والأنبياء ، ومع ذلك كان هيكل سليمان غاصا بالأدوات الدينية الوثنية والتى كانت مصنوعة للبعل وعشتروت ولجميع جند السماء (أى الكواكب) ، فأحرقها خارج أورشليم ، فى

أرض قدرون ، وحمل رمادها إلى بيت إيل ، واستأصل كهنة الأصنام، الذين أقامهم ملوك يهوذا ليوقدوا فوق المرتفعـــات ، فى مدن يهوذا وحول أورشليم . وكانوا يوقدون للبعل ، وللشمس والقمر ، والبروج ، وجميـــع جند السماء . وأخرج عشتروت من بيت الرب إلى خارج أورشليم ، إلى وادى قدرون ، فأحرقها فى وادى قدرون ، وسحقها غباراً ، وذرى رمادهـا على قبور بنى الأمة . وقوض بيوت المخنثين التى فى بيت الرب ، حيث كانت النساء ينسجن خياما لعشتروت . . » [٢٣/٤ - ٧] . والصورة لم تكمل بعد ، بل يستمر السياق فى نفس الإصحاح فى ذكر مظاهر الانحلال الدينى ، والانحراف الخلقى ، والكفر الذى يضعنا بعيداً ، وبعيداً جداً ، عن موسى وتوراته ودعوته التوحيدية الأخلاقية التحررية .

كل هذه النصوص وما يحيط بها من ظواهر تدعو إلى التأمل شجعت المحققين من العلماء فى العصر الحديث على ترك المسلمات النقلية ، والبحث الحر العميق فى نص التوراة حسب ما وصلت إلينا . وكنـا قد أشرنا إشارة عابرة إلى أننـا لا نعرف معرفة يقينية اللغة التى بلّغ بهـا موسى رسالته . ومهما يكن من شىء ، حتى على افتراض أنها العبرية ، فلاشك أنها كانت تختلف اختلافاً بيناً جداً عن عبرية النص المقدس الذى بين أيدينا . فلابد أنه مع جمع نصوص العهد القديم العبرى وكتابتها بيد عزرا ، حدث طوعا أو كرها « تنسيق » لا فى السياق والترتيب فحسب بل فى اللغة أيضا .

فبين موسى وعزرا ما يقرب من ألف عام ، لاشك أن اللغة فيها ،

ككل لغة فى العالم تطورت تطوراً كبيراً ، وقد بقيت مع ذلك شواهد من العبرية القديمة الضائعة ، قاومت عملية التنسيق هذه ، من أشهرها قصيدة « دبوره » النبية فى الإصحاح الخامس من سفر القضاة . وبالرغم من أن هذا النص لم ينجُ هو أيضا من أثر الزمن على لفظه ، فإنه - بسبب تواتره على الألسنة ، وكونه أنشودة غنائية حماسية موزونة - قد احتفظ بالكثير من سمات لغته الأصلية . وهى لغة تبدو بوضوح أقدم ، وأكثر بداوة من لغة التوراة نفسها .

ومع أن النص الذى بين أيدينا لهذا الكتاب ، قد أريد به أن يكون النسخة الشرعية النهائية المعتمدة ، وأن يكون ذا سياق موحد لايبدو فيه أى تنسيق أو تجميع أو ترقيع ، فإن أبحاث العلماء فى العصر الحديث قد أثبتت أنه يرتد إلى أربعة ينابيع مختلفة ، اثنان منها جوهريان قديمان والثالث منفصل عنهما فى زمانه ومضمونه ، وأما الرابع والأخير فإنه ينبثق فى مواضع معينة بصورة تكميلية وتوضيحية فقط ، وهو أحدث هذه الينابيع تاريخا . (١)

---

(١) S. R. Driver; An Introduction to the Literature of the Old Testament; 9th edition, Edinburgh, 1929 — p. 1255.

Lucien Gautier ; Introduction à l'Ancien Testament ; 2 Vols, Payot — suisse, 1939.

Paul Fargues; Introducion à l'Ancien Testament; Paris, 1923.

فالمصدران الأولان هما :

١ - مصدر يحمل اسم « يَهْوَه » علما على رب العبريين الوطنى القديم . وهو يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، ورواته كانوا من الجنوب ، مما كان يسمى « مملكة يهوذا » التى عاصمتها القدس « أورشليم » .

٢ - مصدر يحمل اسم « إلُوهِيم » علما على الله باسمه المنتشر فى أسباط إسرائيل العشرة فى الشمال . ويبدو أن الرواة الذين نقلوا عن هذا المصدر قديما كانوا يعتقدون أن تسمية الرب « إلوهيم » هى التسمية التقليدية القديمة للعبريين إلى ظهور موسى . وأن اسم « يَهْوَه » لم يظهر إلا مع الدعوة الموسوية نفسها . لذلك حرصوا على تمييز المعبود باسم « إلوهيم » لقدمه فى الأمة ، ولأن دلالته أعم ، فهو ليس اسم علم فى الأصل ، ومعناه « إله » أو « آلهة » أو « الله » . وهذه المدرسة من الرواة المتمسكين باسم « إلوهيم » فى مملكة إسرائيل الشمالية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد .
وهذان المصدران يتفقان فى الخطوط العريضة للموضوع الذى يتناولانه ، كما يتفقان فى طابع القصص وأسلوبه . وربما كان قد حدث مزج بين الروايتين « اليَهْوَوِيّة » و « الإلُوهيميَّة » على ألسنة الناس فى القرون التالية على القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد .

ويقول « لوسيان جوتييه » [1] إن هذين المصدرين القديمين

---

(١) المصدر المذكور له فى التعليق السابق ، ص ٤٣ — ٨٤ من المجلد الأول.

كانا قد امتزجا قبل أن تنبثق بقية المصادر الأربعة وهي :

٣ ـ مصدر تثنية الشريعة ، وهو في جوهره تشريعي بحت ، صادر عن وسط مثقف لايلقى بالا إلى القصص الشعبي ، بقدر ما يهدف إلى التوجيه والتعليم والتطوير عن طريق سن القوانين . والظاهر أن هذا المصدر الذي يتجلى بوضوح في آخر أسفار التوراة ـ سفر التثنية ـ وينسب إليه ، قد أدخل في صميم التوراة سنة ٦٢١ قبل الميلاد ضمن برنامج الإصلاح والتطوير الذي عمله الملك يوشياهو ، أما كتابته فترجع إلى حكم الملك اليهودي « منسا » جد يوشياهو المذكور [١] ، وقد حكم قبله بنحو خمسين سنة .

وخلاصة ذلك أن « الشريعة الثانية » أو « التثنية » قد كتبت لأول مرة في غضون القرن السابع قبل الميلاد ، ثم اعتبرت جزءا من توراة موسى سنة ٦٢١ ق. م .

٤ ـ الأصل الرابع هو « حواشي الكهنة » ، وترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ وإلى النصف الأخير منه على التحقيق . وهذه الحواشي قد أضيفت إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا ، أي بعد العودة من السبي البابلي في ظل الإمبراطورية الفارسية ، وهي

(١) هذا افتراض أساسه أن منسا كان من ملوك يهوذا غير الصالحين ، إلى أن أسره الإمبراطور الآشوري أسرحدون واعتقله مدة في العراق ، فلما عاد إلى أورشليم كان قد تاب وأناب وقام قبل موته بقليل بتحصين المدينة المقدسة ، كما قام بحركة تطهير ديني وخلقي وتشريعي . (سفر الملوك الثاني ٢١/١ ـ ١٨ وسفر أخبار الايام الثاني ٣٣/١ ـ ٢٠).

فترة وصل فيها الكهنة أو الأحبار إلى قمة قوتهم ، وكامل سيطرتهم على مقدرات اليهود . وهذه الإضافات لاتقتصر على التشريع وحده، بل فيها نتف قصصية أيضا .

ومن الأمثلة الواضحة التى امتزجت فيها ثلاثة مصادر هى : اليَهْوَوِى (ى) والإلُوهِيمى (ا) وحواشى الكهنة (ك) الإصحاح السابع والثلاثون من سفر التكوين فى التوراة ، الخاص بفصل من فصول قصة يوسف . وطبعا لا أثر هنا للتثنية (ث) وهى المصدر الثالث لاستقلالها بمكان معين فى التوراة هو السفر الذى يحمل هذا الاسم .[1]

فى الإصحاح السابع والثلاثين المذكور يبدأ السياق بمقدمة تمهيدية من حواشى الكهنة تستغرق الآية الأولى وصدر الآية الثانية ونصها :

(١) وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه ، فى أرض كنعان .

(٢) هذه مواليد يعقوب .

بعد ذلك يمكننا أن نحلل العنصرين اليهووى والالوهيمى كلا بروايته المستقله المتكاملة القائمة بنفسها كما يلى :

(ى)	(ا)
(٣) وأحب إسرائيل يوسف أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته . فصنع له قميصا ملونا . (٤) فلما رأى	(٢ / ب) كان يوسف يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام ، عند بنى بلهة ، وبنى زلفة ، إمرأتى أبيه . وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى

(١) لوسيان حوتييه ، المرجع السابق .

إخوته أن أباهم أحبه أكثر من كل إخوته ، أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام.

(١٢) ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم . (١٣) فقال إسرائيل ليوسف إخوتك يرعون عند شكيم . تعال فأرسلك إليهم . فقال له هأنذا . (١٤ / ب) فأتى إلى شكيم . (١٨/ب) وقبل آن يقترب منهم تآمروا عليه ليقتلوه . (٢١) فسمع رأوبين [يهوذا ؟] (١) وأنقذه من بين أيديهم ، وقال لا نقتله . (٢٣ / أ) فكان لما جاء يوسف إلى إخوته. (٢٥) وجلسوا ليأكلوا طعاما ، أن رفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة

أبيهم . (٥) وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته ، فازدادوا كذلك بغضا له . (٦) فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت . (٧) إذ كنا نضم حزما فى الحقل ، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت بها حزمكم وسجدت لحزمتى . (٨) فقال له إخوته : ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا . وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه . (٩) ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على إخوته فقال إنى قد حلمت حلما أيضا ، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا تسجد لى . (١٠) وقصه على أبيه وعلى إخوته . فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت ؟ هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك

(١) هذا التصحيح من اقتراح لوسيان جوتييه ، اعتماداً على أن المذكور فى بقية السياق (الآية ٢٦) هو يهوذا لا رأوبين ، إذ أن رأوبين إنما يظهر فى القصة بروايتها من المصدر الالوهيمى بدلا من يهوذا الذى لايذكر هناك .

إسماعيليين قادمة من جاماد ، وجمالهم محملة بالتوابل والعطر واللادن ، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر . (٢٦) فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه ؟ (٢٧) تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له إخوته . (٢٨/ب) وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة . (٣١/أ) وأخذوا قميص يوسف . (٣٢ / ب) وأحضروه إلى أبيهم وقالوا . وجدنا هذا . أنظر اقميص ابنك هو أم لا ؟ (٣٣) فتحققه وقال : قميص ابنى . حيوان مؤذ أكله . افتُرس يوسف افتراسا . (٣٥) فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه. فأبى أن يتعزى وقال : إنى

أرضا ؟ فحسده إخوته . وأما أبوه فإنه أسرّ الأمر . (١٤/أ) وقال له : اذهب أنظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لى خبرا . وأرسله من وادى حبرون . (١٥) فوجده رجل ، وإذا هو ضال فى البرية . فسأله الرجل قائلا : عم تبحث ؟ (١٦) فقال أبحث عن إخوتى . أخبرنى أين يرعون ؟ (١٧) فقال الرجل : لقد ارتحلوا من هنا لأنى سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان . (١٨/أ) فلما أبصروه من بعيد (١٩) قال بعضهم لبعض هو ذا صاحب الأحلام قادم . (٢٠) والآن هيا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ونقول إن حيوانا مؤذيا أكله ، ونرى ماذا تكون أحلامه . (٢٢) فقال لهم رأوبين : لا تسفكوا دما ، اطرحوه فى هذه البئر التى فى

أنزل إلى ابنى نائحـــا حتى الهاوية . وبكى عليه أبوه .

إصحاح ٣٩ : (١) وأما يوسف فأنـزل إلى مصـر ، واشتراه رجـــل مصـــرى * [فوطيفار خصى فرعون ، رئيس الشرط] من يـــد الإسماعيليين الذين أنـزلوه إلى هناك .

البرية ، ولا تلقوا أيديـكم عليه . وقصده أن يخلصه من أيديهم ويرده إلى أبيه . (٢٣/ب) فخلعوا عن يوسف قميصه * [القميص الملون الذى عليه] . (٢٤) وأخـــذوه وطرحوه فى البئر * [والبئر كانت فارغة ليس فيها ماء] . (٢٨/أ) واجتاز رجال مدينيون تجـــار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر (٢٨/ج) وأتوا بيوسف إلى مصر . (٢٩) ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف لم يعد فى البـئر . فمزق ثيابه (٣٠) ورجـــع إلى إخوته وقال : الولد غير موجود ، وأنـا إلى أين اذهب ؟ (٣١/ب) فذبحوا تيسا من الماعز وغمسوا القميص فى الدم ، (٣٢/أ) وأرسلوا القميص الملون (٣٤) فمزق يعقوب ثيـابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كـــثيرة . (٣٦) وأما المديانيون فباعوه فى لفوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط .

---

* تنبيه : ما بين قوسين فى كلا العمودين من حواشى الـكهنة (ك).

ويقول « لوسيان جوتييه » [١] إنه من السهل أن نلاحظ فى نتيجة هذا التحليل أن السياق (ى) يذكر أن الإسماعيليين التقطوا يوسف معهم ، بينما (أ) يذكر المدينيين . كذلك تقول القصة فى روايتها (ى) أن أبناء يعقوب يتخلصون من يوسف ببيعه ، أما فى قصة (أ) فإنهم يلقونه فى الجب الذى ينقذه منه ، على غير علم إخوته ، جماعة من التجار الذين مروا بالمكان ثم يحضرونه معهم إلى مصر . وكل من السياقين كما نرى يعتبر قصة مستقلة متماسكة ، تعطى إلمامة تامة ومقنعة بالواقعة . وهما على ذلك يتفقان فى المضمون الجوهرى ولكن يختلفان فى التفاصيل .

---

(١) نفس المصدر.

٢ - الأنبيـــاء

وهذا القسم من العهد القديم يتضمن استمرارا لما وقع من الأحداث للعبريين بعد موت موسى ، منذ دخولهم أرض فلسطين ، مع يوشع بن نون ، خادم موسى وخليفته ، إلى أن أخرجوا منها فى السبى البابلى على يد الإمبراطور الكلدانى بختنصر تقريبا. وبالرغم مما يبدو من أن الذين نظموا العهد القديم هذا التنظيم كانوا حريصين على السرد التاريخى المرتب ، فان العلمـاء المحدثين قد لاحظوا أن هـذا التنظيم جزئى ، وأن ترتيبهم غير محكم فى تفاصيله . ولكن الواضح أن هذا القسم يغطى فترة زمنية تمتد بين حوالى سنة ١٣٠٠ وسنة ٣٠٠ ق.م - أى قرابة ألف سنة .

وهو مشطور شطرين : الأنبياء الأول ، والأنبيـاء الأخر . ويقول « لوسيان جوتييه » فى مقدمته للعهـد القديم [١] إن هذا التقسيم لا يتبع خطة تاريخية ، وإنما كانت تحتمه طبيعة محتوى هذا القسم كله . إذ أن شطره الأول يجنح نحو التاريخ السياسى والعسكرى والإدارى البحت ، ولا تبدو فيه النبوة إلا من خلال الأحداث ، مرتبطة بهـا ومعتمـدة عليها ، بينما الشطر الثانى نبوءات صرفة ، تبدو الأحداث من خلالها فى المقام الثانى . وهذه عجالة حول محتوى هذين الشطرين :

(أ) الأنبياء الأول ، ويتألف من أربعة أسفار : :

١ - يوشع بن نون . وهو أربعة وعشرون إصحاحا تروى اقتحام

---

(١) المجلد الأول ، ص ٢١٠ ومابعدها .

العبريين أرض فلسطين بزعامة خليفة موسى هذا . وقد اعتبر عمله مكملا لعمل موسى . ولكى يأخذ فى عيونهم نفس القدسية ، رووا أنه تلقى بركة موسى من يده قبل موته ، فى التوراة نفسها (تثنية ٨/٢٤) ، وأنه عبر البحر معه ، ثم عبر الأردن بنفس الطريقة ، إذ جاء فى الإصحاح الثالث من سفره : « فكان أن ارتحل الشعب من خيامهم ليعبروا الأردن ، ومشى أمامهم الكهنة حاملو تابوت العهد . وما أن وصل حاملو التابوت إلى الأردن وانغمست أقدام الكهنة فى مياهه ، وهو طافح على كل ضفافه فى وقت الحصاد هذا ، حتى وقفت المياه المتدفقة من فوق كأنها حائط ، على مسافة بعيدة ، ابتداء من مدينة أدام ، المجاورة لصرتان . أما الماء المنحدر إلى تحت فى اتجاه بحر الغور ـ أى بحر الملح ـ فقد انقطع تماما ، وعبر الشعب قبالة أريحا . فوقف الكهنة حاملوا تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين ، بينما كل إسرائيل يعبرون على اليابسة حتى فرغ الشعب كله من العبور . » (١)

واختص يوشع بمعجزته الشهيرة ، أثناء حربه ضد الأموريين فى جبعون ، فقال على مشهد من إسرائيل : ياشمس قفى على جبعون ، وياقمر أثبت على وادى

---

(١) سفر يوشع ١٤/٣ — ١٧

أيسألون ! فوقفت الشمس ، وثبت القمر ، إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم ، وذلك مكتوب فى (سفر المستقيم) . فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تمل للمغيب مدة يوم كامل . ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده ، سمع فيه الرب لصوت إنسان ، حيث قاتل الرب عن إسرائيل . » [1] ـ وسفر « المستقيم » المذكور هنا مجهول ، لانعرف عنه شيئا .

ويوشع هو أيضا الذى أمر العبريين أثناء حصار أريحا أن يطوفوا بأسوار المدينة وهم يهتفون ، وأمامهم سبعة من الكهنة ينفخون فى الابواق . فأكملوا الطواف سبع مرات ، « وهتف الشعب ونفخوا فى الأبواق ، فكان عند سماع الشعب صوت البوق أن هذا الشعب هتف هتافا شديدا ، فسقط السور فى مكانه ، فصعد الشعب إلى المدينة ، كل واحد من وجهته ، وأخذوا المدينة . » [2]

وبعد سلسلة من مثل هذه المغامرات يموت يوشع فى تمنة من بلدان فلسطين .

٢ ـ القضاة ، يستمر هذا السفر فى سرد أحداث عملية الاغتصاب الأولى التى قام بها العبريون فى فلسطين . والقضاة هم سلسلة من الزعماء العسكريين والدينيين حاولوا ، على مدى

---

(١) سفر يوشع ١٠/١٢ — ١٤

(٢) سفر يوشع ٦/٢٠

أكثر من قرنين من الزمان ، أن يمنعوا المجتمع العبرى من الانزلاق فى الفجور والكفر ، وأن يواصلوا إعداده إعدادا قتاليا للاستقرار بالقوة فى هذه الأرض . واقتضى هذا منهم جهد الجبابرة ، إذ تبدأ أحداث هذا السفر بقوله فى الإصحاح الثانى : « وتوفى يوشع بن نون عبد الرب ، وهو ابن مائة وعشر سنين . ودفن فى أرض حوزته ، فى تمنة حارس ، بجبل إفرايم ، إلى شمال جاعش . ولحق كل ذلك الجيل أيضا بآبائهم ، ونشأ من بعدهم جيل آخر لايعرف الرب ولا ماصنع لإسرائيل . ففعل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا الأصنام ، وتركوا الرب إله آبائهم ، الذى أخرجهم من أرض مصر ، وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب التى حولهم ، وسجدوا لها ، وأغضبوا الرب وتركوا الرب وعبدوا بعل وعشتروت . »[1]

وكانت مقاومة الشعب الفلسطينى الأصلى بشتى قبائله لغزو العبريين مقاومة شديدة مستمرة . وهنا تبدو الصفة العسكرية واضحة فى الوقائع والغزوات التى قام بها هؤلاء القضاة أثناء اجتياحهم البلاد . وهكذا يرتفعون إلى مصاف البطولات الأسطورية ، وفى مقدمتهم أهُود ، وباراق بن أبى نوعم ، وعُثنيئيل ، وجِدْعون ، ويفْتاح ، وشمشون الجبار، وامرأة نبية هى دبورة التى عاصرت باراق بن أبى

---

(١) سفر القضاة ٢/٨ — ١٣

نوهم . ويحتوى هذا السفر على واحد وعشرين إصحاحا .

٢ - صمويل ، وبه تبدأ فكرة النبوة فى بنى إسرائيل فى التبلور بشكل واضح كما تتحدد صفات النبى فى مفهومهم ، وهى صفات زعامة سياسية ودينية تعتبر امتدادا للقضاة ، وإن كانت لاتسمى إلى تسلم مقاليد الحكم رسميا ، بل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار ، بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه ، ويبايعه رعاياه بأمر من هذا النبى .

ويبدو لنا أن صمويل الذى يفتتح بحق الدور السياسى والاجتماعى للأنبياء فى بنى إسرائيل [1] ، كان عبقرية من تلك العبقريات القديمة التى تظهر فى أوساط البدو ، فتشق طريقها ، وهو طريق جديد فى جملته ، بالعمل وبالذكاء وبموهبة قيادة الجماهير .

فنحن نعلم أن الكهانة ، وهى السلطة الدينيـة الكبرى عند العبريين ، كانت محصورة فى سبط اللاويين ، ولم يكن صمويل من هذا السبط ، بل كان من إفرايم . وبناء على ذلك فإنه وجد طريق الزعامة الدينية التقليدية موصدة فى

---

(١) ارجع إلى كتاب «حول تاريخ الأنبياء عند بنى إسرائيل» بقلم : م. ص. سيجال ترجمه إلى العربية من العبرية الحديثة وعلق عليه : الدكتور حسن ظاظا من منشورات جامعة بيروت العربية — لبنان ، ١٩٦٧ .

وجهه . وأما الملك فإنه فى هذه المجتمعات البدائية يحتاج إلى بطولة فى الحرب والقتال ، وإلى عشيرة ضخمة العدد كثيرة المال مرهوبة الجانب ، وكل ذلك لم يكن ميسورا لصمويل أيضا . ولذلك فقد كان المنطلق الوحيد لطموحه ولمواهبه القيادية هو الانتفاع بأفكار سامية قديمة تدور حول مفهوم « النبى » فقد طوّر هو هذا المفهوم ، وخط لنفسه فى النبوة مسلكا مبتكرا ، بلغ به ما يريده لنفسه ولقومه ، وأصبح تقليدا من بعده عند بنى إسرائيل .

وسفر صمويل ينقسم إلى جزأين ، أولهما يروى انتقال صمويل من صفة القاضى إلى صفة النبى ، ونضاله من أجل توحيد كلمة العبريين بكافة أسباطهم تحت تاج واحد ، ثم اختيار شاءول ليكون ملكا ، وانتهاء أمر هذا الملك بالانتحار على أثر موقعة حربية فاشلة ضد الفلسطينيين . وأما الجزء الثانى فإنه يروى جهود ذلك النبى فى تولية داود العرش ، وما كان من استيلاء داود على أورشليم ، مدينة اليبوسيين ، وهم من قبائل الفلسطينيين الأصليين ، وتشييده قلعة حربية على جبل صهيون جنوب غربى هذه المدينة . وملك داود هذا هو الذى حوله اليهود فى أجيالهم المتأخرة إلى مثل أعلى قالوا بوجوب استمراره مؤبدا إلى يوم القيامة ، وجبله بقلعته التى سميت أيضا « صهيون » أصبح شعارا سياسيا للمطالبين من اليهود بإقامة دولة فلسطين ، إذ سموا حركتهم هذه « الصهيونية » .

ومن المعروف أن جنوب فلسطين كانت قد سكنته عشيرتان من العبريين هما « يهوذا » و « بنيامين » ، بينما توزعت العشائر العشر الأخرى فى الشطر الشمالى من البلاد . وداود ينتمى إلى « يهوذا » . ولذلك فإنه منذ توليه الحكم وإنشائه الأسرة المالكة ، أصبح قومه يحملون جميعا اسم عشيرته ويسمون اليهود .

وينتهى سفر صموئيل الثانى بالحديث عن شيخوخة داود ، وتفكيره فى تعيين ابنه سليمان ملكا من بعده . وسفر صموئيل فى جزئه الأول يحتوى على واحد وثلاثين إصحاحا وفى جزئه الثانى على أربعة وعشرين .

٤ ــ الملوك ، وهو مكون أيضا من جزأين : الملوك الأول والملوك الثانى .

والجزء الأول يحتوى على اثنين وعشرين إصحاحا ، خصصت الأحد عشر الأولى منها لذكر مملكة سليمان ، وبنائه الهيكل ، ومظاهر الأبهة التى أحاط بها نفسه فى أورشليم ثم وفاته . وابتداء من الاصحاح الثانى عشر يتحدث هذا السفر عن تصدع مملكة سليمان بعد موته ، وانقسامها إلى قسمين : مملكة يهوذا فى الجنوب ، وعاصمتها أورشليم ، ويجلس على عرشها رحبعام بن سليمان . ومملكة إسرائيل فى الشمال ، وعاصمتها السامرة ، فى منطقة نابلس ، وقد جلس على العرش فيها ضابط يهودى متمرد على

سليمان ، كان قد هرب منه ولجأ إلى مصر ، اسمه يربعام بن نباط .

ويستمر ذكر المملكتين وما توالى عليهما من ملوك وأنبياء وأحداث، إلى سقوط المملكة الشمالية ، إسرائيل ، أمام الجيش الاشورى بقيادة الامبراطور سلمانصر ، حيث تروى تلك الأحداث فى الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثانى ، الذى يحتوى كله على خمسة وعشرين إصحاحا ، وبقيته مخصصة للفترة التى استمرت فيها المملكة الجنوبية ، يهوذا ، فى أورشليم إلى تدميرها على يد بختنصر .

ويستخلص من نصوص صموئيل والملوك ، أن العبريين سجلوا تاريخ وجودهم بصفة سياسية فى فلسطين للمرة الأولى على النحو التالى :

المملكة الموحدة

وهى تسيطر على كل العبريين فى فلسطين وملوكها على التوالى هم :

١ ـ شاؤل ، وقد تم تتويجه ملكا فى « الجلجال » حوالى سنة ١٠٩٠ ق م

وأبناء شاؤل هم : يوناثان ، ويشوى ، وملكيشوع ، وله بنتان أيضا هما ميرب وميكال ، واسم أبيه قيش بن ابيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح ، من سبط بنيامين . ولم يرث الحكم أحد من أسرة شاؤل .

٢ ـ داود ، من سبط يهوذا . تولى العرش بعد شاؤل ، حوالى سنة ١٠٥٠ ق.م .

وأبناء داود هم : أمنون ، أنجبه من امرأة اسمها أخينوعم اليزرعيلية.

دانيال ، من امرأة اسمها أبيجايل الكرملية .
أبشلوم ، من معكة بنت تلماى ملك جشور .
أدونياه ، من حجيث
شفطياه ، من أبيطال .
يثرعام ، من امرأته المسماة عجلة .

وهؤلاء الستة ولدوا له فى « حبرون » ـ مدينة الخليل ـ قبل جلوسه على العرش فى أورشليم التى ولد له فيها :

شمعا
شوباب أنجبهم من « بتشوع بنت عميئيل » .
ناتان
سليمان

ومن غير هذه الزوجة ولد له أيضا أبناء ذكور هم :

يبحار	إليشاماع	إليفالاط
نوجه	نافج	يافيع
إليشاماع الثانى	إلياداع	إليفالاط الثانى

وفى أورشليم أيضا ولدت له ابنته تامار .

ويحتاط الراوية فيقول إن هؤلاء المذكورين هم أبناؤه من الزوجات فقط ، وأنه لم يذكر أبناءه من « غيرهن » . (أخبار الايام الاول ٣/٩) .

٣ ـ سليمان بن داود بن يسى ، حكم أربعين سنة بعد أبيه ، وانشطرت المملكة بعد موته إلى شطرين كما قلنـــا . يهوذا ، وملوكها من سلالة داود ، وإسرائيل ، وقد أقاموا لهم أسرة أخرى فى الشمال .

مملكة إسرائيل

١٠ يربعام ، حكم من ٩٧٤ - ٩٥٤ ق.م.

٢٠ ناداب بن يربعام ، ٩٥٤ - ٩٥٣ ق.م.

٣٠ بعشا بن آخياه ، من سبط يساكر ، ٩٥٣ - ٩٢٩ ق.م.

٤٠ إيلاه بن بعشا ، ٩٢٩ - ٩٢٨ ق.م.

٥٠ زمرى ، ٩٢٨ ق.م.

٦٠ عمرى ، ٩٢٦ - ٩١٨ ق.م ، وقد اعتلى العرش بعد فتنة كان يقودها رجل اسمه تبنى بن جينة ، أعلن نفسه ملكا .

٧٠ آخاب بن عمرى ، ٩١٨ - ٨٩٧ ق م

وفى أيامه تفشى الانحلال الدينى والخلق بشكل واضح بين الإسرائيليين ، ولذا امتاز عصره بظهور أنبياء مشهورين ، ونزاعهم معه ، وهؤلاء الأنبياء هم : عوبديا ، إلياهو ، إليشع ، ميخا . وقد قبض آخاب على هذا النبى الأخير ووضعه فى السجن ، فتنبأ ميخا بقتله فمات قتيلا فى معركة راموت جلعاد .

٨٠ أحازيا بن آخاب ، ٨٩٧ - ٨٩٥ ق.م

٩٠ يورام ، أخو أحازيا ، ٨٩٥ - ٨٨٤ ق.م

١٠٠ يهو ، وهو زعيم انقلاب عسكرى أطاح بحكم أسرة آخاب ، وقتل ابنه الملك يورام ، وأعلن نفسه هو ملكا على إسرائيل بتأييد الجيش . ٨٨٤ - ٨٥٦ ق.م . وكان يعاصره من الأنبياء يونس بن متى صاحب الحوت .

١١ - يوآحاز بن يهو ، ٨٥٦ - ٨٣٩ ق.م.

١٢ - يوآش بن يوآحاز ، ٨٣٩ - ٨٢٥ ق.م.

١٣ - يربعام الثانى بن يوآش ، ٨٢٥ - ٧٨٤ ق.م.

وقد عاصره من الأنبياء عاموس وهوشع ، ولكل منهما سفر فى العهد القديم . ويبدو أنه على أثر موته دخلت مملكة إسرائيل فى فترة فوضى واضطراب لمدة إحدى عشرة سنة ، لم يسجل ملوكها فى سفر الملوك الثانى ، ويظهر أن سفرا آخر كان موجوداً ، وعنوانه « تواريخ ملوك إسرائيل » (ورد ذلك فى سفر الملوك الثانى ١٤/٢٨ - ٢٩) .

١٤ - زكريا ، ٧٧٣ ق م وقد حكم ستة أشهر .

١٥ - شلّوم بن يابش ، قتل زكريا ، وحكم بعده شهرا واحدا ، سنة ٧٧٢ ق.م.

١٦ - مناحم ، ٧٧١ - ٧٦١ ق م قتل شلوم.

١٧ - فقحيا بن مناحم ، ٧٦١ - ٧٥٨ ق.م.

١٨ - فاقح بن رملياهو ، وقد اغتصب العرش بعد وفاة فقحيا ٧٥٨ - ٧٣٩ ق.م وفى عهده هاجم الإمبراطور الآشورى تغلات فالصر سوريا وفلسطين ، واحتل منطقة الجليل وأخذ منها أسرى إلى العراق وبعد ذلك عادت الفوضى والفتنة من جديد لمدة عشر سنين تقريبا.

١٩ - هوشع بن إيلاه ، ٧٣٠ - ٧٢٥ ق م.

وقد هاجمه سلمانصر الآشورى وأسره وألقاه فى السجن ، ثم أتم جيش سلمانصر تدمير مملكة إسرائيل نهائيا والاستيلاء عليها سنة ٧٢١.

مملكة يهوذا

١. رحبعام بن سليمان ، ٩٧٥ - ٩٥٨ ق م

٢. أبيام بن رحبعام ، ٩٥٨ - ٩٥٥ ق.م

٣. آسا بن أبيام ، وكان ملكا تقيا قويا حكم إحدى وأربعين سنة ، ويقول الرواة إن بقية أخباره غير الموجودة فى العهد القديم مثبتة فى سفر خاص اسمه (كتاب ملوك يهوذا وإسرائيل) - سفر أخبار الأيام الثانى ١٦ / ١١ - ١٢ . وقد حكم آسا من ٩٥٥ - ٩١٤ ق.م . وكتاب ملوك يهوذا وإسرائيل المشار إليه لم يصلنا.

٤. يهوشافاط ، امتد حكمه خمسة وعشرون سنة ٩١٤ - ٨٨٩ ق.م

٥. يورام بن يهوشافاط ، وقد بدأ عند توليه الحكم بقتل جميع إخوته وعدد كبير من أعيان إسرائيل ، حتى يأمن التآمر على عرشه ٨٨٩ - ٨٨٥ ق.م

٦. أحازيا ، ٨٨٥ - ٨٨٤ ق م. وقد قتله يهو فالك إسرائيل كما قتل جميع إخوته وعددهم اثنان وأربعون . وكان يهو قد أخذ عليهم تحالفهم مع يورام ، تاسع ملوك إسرائيل ، الذى أسقطه يهو عن العرش وقتله .

٧. الملكة عاثليا ، وهى أم احازياه ، وقد تولت الملك بعد قتله من ٨٨٤ - ٨٧٨ ق. م.

٨. يوآش بن أحازيا ، كان طفلا صغيرا عندما قتل أبوه ، فأخفته

أخته يهو شابعت لمدة سبع سنين . ثم نادى به الكاهن الأعظم « يهوياداع » ملكا ، فاتهمته الملكة عاثليا بالتآمر ، لأنها لم تكن تريد التخلى عن العرش ، فأمر الكاهن الأعظم بالقبض عليها وقتلها . حكم يوآش من ٨٧٨ - ٨٣٩ ق. م.

٩. أمصيا بن يوآش ، ٨٣٩ - ٨١٠ ق.م.

١٠. عزريا ، أو عزّيا ، ٨١٠ - إلى أن أصابه الجذام سنة ٧٦٥ ، حيث تولى ابنه يوثام الوصاية على عرشه إلى أن مات سنة ٧٥٨ ق. م وقد ظهر فى عهده النبي الكبير المشهور إشعيا بن آموص .

١١. يوثام ، ٧٥٨ - ٧٤٢ ، وفى عهده ظهر النبي ميخا ، من مُوريشيت .

١٢. آحاز بن يوثام ، ٧٤٢ - ٧٢٦ ق. م ، واستمرت فى عصره نبوة إشعيا وميخا .

١٣. حزقياهو بن آحاز ، ٧٢٦ - ٦٩٨ ق. م ، واستمرت فى عهده نبوة إشعيا وميخا ، كما ظهر إذ ذاك النبي ناحوم .

١٤. منسا بن حزقياهو ، ٦٩٨ - ٦٤٣ ق. م

١٥. آمون ، ٦٤٣ - ٦٤١ ق. م

١٦. يوشياهو ، وهو ابن آمون ، ومن أكبر وأشهر قادة التطوير الديني فى مملكة يهوذا ، وكثر فى عهده الأنبياء مثل صفنيا ، وحبقوق ، والنبية خُلدة ، ثم النبي إرميا . وفى عهده أيضا قال حلقيا الكاهن الأعظم إنه عثر على توراة موسى . ٦٤١ - ٦١٠ ق م .

١٧. يوآحاز بن يوشياهو . بمجرد اعتلائه العرش هاجمه فرعون مصر نخاو وأسقطه .

١٨. إيلياقيم ، ويسمى أيضا يهوياقيم ، وهو الابن الأكبر ليوشياهو . وقد ولاه على العرش فرعون مصر نخاو ، بعد أن عزل أخاه الأصغر يوآحاز . وكانت مدة حكمه إحدى عشرة سنة ، وعاصره من الأنبياء إرميا ، وباروخ ، ودانيال . وفى أيامه كان مدير الهيكل فى أورشليم ـ فاشور ـ رجلا متجبرا ، فقبض على النبي إرميا ووضعه فى السجن .

وفى عهده اشتد ضغط الإمبراطورية الكلدانية وعلى رأسها بختنصر ، ولكنه مات سنة ٥٩٩ ق.م وتولى بعده ابنه يهوياكين، الذى يسمى أحيانا يخونيا أو خونيا .

١٩. يهوياكين بن يهوياقيم ، وفى عهده بدأ بختنصر فى حصار أورشليم والقبض على زعماء اليهود ، ونقلهم أسرى إلى بابل وكانت هذه بداية ما يسمى فى التاريخ الإسرائيلى بالسبي البابلى . وكان بين من ذهبوا فى الأسر يهوياكين نفسه .

٢٠. صدقياهو ، ويسمى أيضا متنيا . وقد أقامه بختنصر ملكا على أورشليم ، وهو أحد أبناء يوشياهو . وكان توليه الحكم سنة ٥٩٩ ق. م . وهو حكم تميزه العمليات العسكرية الكلدانية ضد اليهود ، ويعاصره من الأنبياء إرميا وحزقيال . وقد ظل حصار بختنصر حتى سقطت أورشليم نهائيا سنة ٥٨٨ ق م حيث نقل صدقياهو

إلى بابل ، وعوقب عقابا شديداً على وقوفه فى وجه الإمبراطور الكلدانى ، فقتل جميع أولاده أمامه ثم سُمِلَتْ عيناه . وعيّن بختنصر أحد اليهود الباقين فى أورشليم حاكما عليها واسمه جدليا . فقام فى وجهه يهودى آخر اسمه إسماعيل وقتله بعد سبعة أشهر من توليه الحكم . وسرعان ما هبت مقاومة يهودية ضد إسماعيل بقيادة يهودى آخر اسمه يوحنان . ولكن الجيش الكلدانى بدأ يتعقب يوحنان ، فهرب إلى مصر ومعه النبيين إرميا وباروخ ، بينما ظل بعض أنبياء اليهود ، وفى مقدمتهم حزقيال وعوبديا ودانيـــال يمارسون نشاطهم فى داخل الإمبراطورية الكلدانية ، وأحيانا فى بـــلاد فارس حيث قامت إمبراطورية جديدة فتية على رأسها قيروش .

(ب) الأنبياء الأخر ، وهو يحتوى على تراث القادة الروحيين الذين حاولوا - بطرق شتى - الأخذ بيد اليهود نحو برّ السلامة فى ظروف سياسية وعسكرية واجتماعية حالكة ، أحاط بهم فيهـــا الأعداء من كل جانب . وإذا كانت هذه النبوات فى معظمها لم تفد كثيرا عندما كان أصحابها ما يزالون بعد على قيد الحياة ، إلا أن هذا التراث قد بقى مصدر أمل لليهود ، يؤولونه ويشكلونه بحسب الظروف . فهو أمل فى مغفرة الله حينا ، وأمل فى الخلاص أحيانا ، وأمل فى العودة إلى فلسطين عند الكثيرين منهم ، بل أمل فى السيطرة النهائية على الإنسانية كلها لدى جماعات ممن يلوكون هذه النصوص ويحمّلونها ما شاء لهم الخيال .

وقد رأينا أن قسم الأنبياء الأول ، الذى تصطبغ أسفاره بالصبغة التاريخية قبل كل شيء آخر ، يحتوى على أربعة أقسام : يوشع ، القضاة ، صموئيل ، الملوك . وهذا القسم بدوره يحتوى على أربعة كذلك ، هي: إشعيا ، إرميا ، حزقيال ، الاثنتا عشرة مجلة ، التى تكون مجموعة واحدة تعرف أيضا باسم « الأنبياء الصغار » أو الاثنى عشر نبيا .

وقد رتب مؤرخو الكتاب المقدس المحدثون الأنبياء الآخر ترتيبا تاريخيا . فمثلا رتبهم لوسيان جوتييه[1] على النحو التالى :

١ - عاموس	٧٦٠ ق.م
٢ - هوشع	٧٥٠ ق.م
٣ - إشعيا	٧٤٠ ق.م[2]
٤ - ميخا	٧٢٥ ق م
٥ - ناحوم	٦٥٠ ، ٦٢٥ ق.م
٦ - إرميا	٦٢٦ ق.م

---

(١) المرجع السالف الذكر .

(٢) تعرض سفر إشعيا لكثير من التحوير على مر العصور ، والتاريخ المذكور فى هذه القائمة هو التاريخ العام للسفر . وهذا التاريخ العام ينطبق على الجزء الذى يبدأ من الاصحاح الأول وينتهى بالاصحاح التاسع والثلاثين ، باستثناء الإصحاحات الأربعة : ٢٤ — ٢٧ ، فقد أرجعها جوتييه إلى عصر متأخر جدا هو القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد . وهناك قسم من هذا السفر يبدأ بالاصحاح ٤٠ وينتهى بالاصحاح ٥٥ وهو الذى يسمى « إشعيا الثانى » وتاريخه حوالى ٥٤٠ ق. م . ومن الإصحاح ٥٦ إلى ٦٦ ، وهو آخر السفر ، يسمى « إشعيا الثالث » ويرجع هذا الجزء إلى القرن الخامس ق. م.

٧ - صفنيا	٦٢٥ ق.م
٨ - حبقوق	٦٠٨ (القرن ٦ ق م)
٩ - حزقيال	٥٩٢ ق م
١٠- عوبديا	القرن ٦ أو ٥ ق.م
١١- حجاى	٥٢٠ ق.م
١٢- زكريا	٥٢٠ ق.م[1]
١٣- ملاخى	القرن ٥ ق.م
١٤- يوئيل	القرن ٥ أو ٤ ق.م
١٥- يونس	القرن ٤ ق.م

وترتيب الأسفار المذكورة حسب ما وردت فى العهد القديم الموجود بين أيدينا ، يختلف عن هذا الترتيب العلمى التاريخى المذكور ، إذ أنه يأتى على النحو التالى :

أولا : إشعيا ، إرميا ، حزقيال .

ثانيا : الاثنتا عشرة مجلة ، أو أسفار الأنبياء الاثنى عشر الصغار ، وهم :

هوشع ، يوئيل ، عاموس

---

(١) يرى العلماء أن سفر النبى زكريا ، حسب التاريخ الوارد هنا يتضمن الجزء الأول منه فقط، أى من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثامن . أما جزؤه الثانى ، وهو الذى يبدأ من الإصحاح التاسع وينتهى بالإصحاح الرابع عشر ، وهو آخر هذا السفر ، فإنه يرجع إلى حوالى سنة ٣٠٠ ق.م.

عوبديا ، يونس ، ميخا
ناحوم ، حبقوق ، صفنيا
حجاى ، زكريا ، ملاخى

٣ - الكتب

وتسمى أيضا كتب الحكمة أو « هجيُوغرافيا » ، وهى مجموعة أسفار يغلب عليها الطابع الأدبى ، شعرا أو نثرا . وبعضها يتضمن تراثا من القصص والحكم توارثوه عبر الأجيال ، كما أن بعضها الآخر يتصل بالكيان السياسى والاجتماعى والدينى لليهود ، ويحتوى كثير منها على تمجيد لبطولاتهم فى الاستقرار فى فلسطين ، أو الرجوع إليها بعد السبى البابلى على يد الامبراطورية الفارسية ، وتحت سيادتها . وترتيب هذه الأسفار حسب ورودها فى العهد القديم كما يلى :

١ - مزامير داود
٢ - أمثال سليمان
٣ - أيوب ، وهناك أدلة كثيرة على أن نصه الأصلى كان عربيا .
٤ - نشيد الأناشيد ، وأصله مسرحية غنائية من الفولكلور اليهودى الخاص بحفلات الزواج .
٥ - روت ، وهى قصة بطلة ترجع إلى عهد القضاة .
٦ - المراثى ، وهى مجموعة قصائد تنسب لإرميا فى البكاء على أورشليم بعد تخريبها .

٧- الجامعة ، أو « قوهيليت » ، وينسب إلى أحد أبناء سليمان ، وهو خواطر فلسفية .

٨ - إستير ، وهى نبية حصلت على وعد من إمبراطور فارس بالقضاء على أعداء اليهود فى مملكته .

٩ - دانيال ، ويتضمن قصة مغامرات هذا النبي وكراماته أثناء حكم بختنصر .

١٠ - عزرا ، الذى ينسب إليه جمع نصوص العهد القديم ، ولذا يسمى عزرا الكاتب ، ولكن شهرته قامعة على قيادته لليهود فى العودة من السبي البابلى لإقامة دولة صهيونية فى فلسطين ، يعاونه فى ذلك زروبابل .

١١ - نحميا ، وهو نبي انضم إلى صهيونية عزرا ، وجاء بعده باثنتى عشرة سنة إلى فلسطين لإقامة أسوار أورشليم ، وإعادة بناء الهيكل . وسفره يحتوى على معلومات هامة عن التنظيم العسكرى للدفاع اليهودى ، والتنظيم السياسى فى المناطق المحيطة بفلسطين فى ذلك العصر .

١٢ - أخبار الأيام ، وهو تلخيص للوقائع التاريخية الواردة فى الكتاب المقدس منذ بدء الخليقة إلى عودة اليهود من السبى ، فى أيام كورش ملك الفرس . وهو ينقسم إلى قسمين : الأول منها ينتهى بتولى سليمان الملك ، ويحتوى على تسعة وعشرين إصحاحا . والثانى يتناول بقية هذا التلخيص إلى عهد كورش ، ويحتوى على ستة وعشرين إصحاحا .

ولما كانت هذه الكتب الحكمية تعود فى معظمها إلى مأثورات شعبية متواترة بين اليهود ، فإن البحث العلمى يصطدم بمشاكل كثيرة عندما يريد تحديد علاقة بعض هذه الأسفار بمن نسبت اليهم ، أو افتراض تاريخ لظهورها وانتشارها .

ومن أشد هذه الأسفار المذكـــورة تعقيداً من وجهة النظر هذه : سفر أيوب .

ويرى كثير من الباحثين ، ونذكر منهم على سبيل المثال بنيامين جرين فى تلخيصه التاريخى للعهد القديم [١] ، أن النبى أيوب أقدم من موسى نفسه ، إذ حدد تاريخه بعـــام ١٥٢٠ ق. م . وكان الأديب الفرنسى الكبير « فولتير » [٢] قد سبق إلى القول بأن أيوب وسفره أقدم من التوراة . وأن العبريين أخذوه عن العرب وترجموه إلى لغتهم . ويستدل على ذلك بأن اسم « الشيطان » الذى يشغل مكانا رئيسيا فيه ليس كلمة عبرية ، بل هو كلدانى . ومن الأدلة على الأصل العربى لسفر أيوب أيضا ، نسبة أيوب نفسه إلى أرض عوص ، وهى تقع فى شمال شبه جزيرة العرب ، وأن أصدقاءه كانوا فيما يبدو من العرب : إليفاز من تيمان . وبلدد كان شوحيا ، من منطقة السويس فى رأى فولتير . وصوفر كان من نعمات .

---

(١) Benjamin Greene; Résumé Chronologique de l'Ancien Testament, Lyon - Genève 1909 pp. 170—173.

(٢) Voltaire; Dictionnaire Philosophique, Paris - Garnier 1954; pp. 257—260.

كذلك لاحظ الباحثون ذكر الجمال عند الحديث على ثروة أيوب من الماشية ، ونحن نعرف أن لحوم الإبل محرمة على اليهود ، وأنها لم تذكر بين ثرواتهم حتى فى دواب الحمل إلا نادراً . بل إن اسم أيوب نفسه لامثيل له فى أسماء العبريين .

ثم إن الحادثة التى تبدأ بها القصة ، وهى منافسة بين الرب والشيطان على أيوب تردنا إلى عقائد الثنوية من الفرس ، الذين كانوا يسوون فى المنزلة بين إله الشر أو الظلمة ، وإله الخير أو النور ، وهو أمر يختلف اختلافا تاما وجوهريا عن فكرة التوحيد التى جاء بها موسى . فلاعجب والحالة هذه أن يظل سفر أيوب بفصوله الاثنين والأربعين ، رغم كثرة التأليف فيه ، مشكلة من المشاكل الكبرى فى دراسة العهد القديم حتى الآن ، لغويا واعتقاديا وتاريخيا [1] .

أما مزامير داود فإنه يعد بحق كنز الشاعرية العبرية . وقد تراكمت فيه نصوص مختلفة تتضمن أشعارا وعظية ، وصلوات ، وتسابيح ، وقصائد فى الإيمان ، وأخرى فى تمجيد أورشليم ، وأشعارا فى مناسبات تاريخية ، وأخيراً نصوصا كثيرة فى انتظار المخلص « المسيح » ، أو التبشير به .

---

(١) وفى داخل التراث الفكرى اليهودى نفسه نجد خلافا ضخما حول أيوب ، حتى إن التلمود البابلى – وفى باب «بابا باترا» – يقول إن أيوب لم يوجد ولم يخلق وكان مجرد مثل . انظر :

Le P. Paul Dhorme; Le Livre de Job; Paris—Gabalda 1926.

ويحتوى سفر المزامير على مائة وخمسين مزمورا ، ثلاثة وسبعون منها فقط تنسب إلى داود ، وخمسون مجهولة المؤلف ، والبقية ترجع إلى مؤلفين مختلفين .

وهذا هو بيانها بأرقامها موزعة على مؤلفيها :[1]

موسى ٩٠ . (١)

داود ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، (٧٣)
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

سليمان ٧٢ ؟ ، ١٢٧ . (٢)

إيتان ٨٩ . (١)

---

(١) بليامين جرين ، المرجع السابق .

بنو، قورح	٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٨٤، ٨٥، ٨٧.	(١٠)
هيمان	٨٨.	(١)
آساف	٥٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣.	(١٢)
مجهولون	١، ٢، ١٠، ٣٣، ٤٣، ٦٦، ٦٧، ٧١، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.	(٥٠)

الجموع الكلى لعدد المزامير (١٥٠)

وفى هذه المجموعة من الكتب الحكمية يحتل «سفر الأمثال» مكانا بارزا على المستوى الشعبى وفى أوساط العلماء ، بحيث لا يجمل بنا أن نمر به بدون توقف . وهذا السفر يحمل عنوانا هو أطول عناوين العهد القديم على الإطلاق ، إذ يشغل هذا العنوان الآيات الست الأولى من الإصحاح الأول ، وترجمتها :

«أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل . لمعرفة الحكمة والتأديب ، لتفطن لأقوال الفطنة . لاستفادة تأديب التعقل ، العدل والحق والاستقامة. لإنالة الأغرار دهاء ، والحدث علما وتدبيرا . يسمع الحكيم فيزداد فائدة ، والفطين يكتسب دراية . للتفطن للمثل والأحجية ، لكلمات الحكماء وألغازهم .»

وبالرغم من أن هذا السفر كما رأينا ينسب إلى سليمان ، فإنه فى نظر العلماء المحدثين من نقاد الكتاب المقدس يعتبر مجموعة من الأقوال المأثورة ، مروية عن أكثر من مصدر واحد . ويقسمونه عادة إلى أقسام مختلفة على النحو الآتى :

١ - من ١/١ - ٦ عنوان السفر الذى ذكرناه .

٢ - من ١/٧ - ١٨/٩ مقدمة فى امتداح العقل والحكمة والتحذير من أنواع من الرذيلة .

٣ - من ١/١٠ - ١٦/٢٢ المجموعة الأولى من أمثال سليمان . إذ يبدأ الإصحاح العاشر بقوله : «أمثال سليمان . الابن الحكيم يسر أباه ، والابن الجاهل غم لأمه .»

٤ - من ٢٢/١٧ - ٢٤/٢٢ مجموعة من أقوال الحكماء ، تبدأ هكذا : «أمِلْ أذنك واسمع كلام الحكماء ، ووجه قلبك إلى علمى . »

٥ - من ٢٤/٢٣ - ٢٤/٣٤ ملحق ، أو تذييل للمجموعة السابقة من أقوال الحكماء ، إذ يبدأ هذا التذييل بقوله : « هذه أيضا للحكماء . مراعاة الوجوه فى القضاء ليست فى شىء من الصلاح . »

٦ - من ٢٥/١ - ٢٩/٢٧ مجموعة جديدة من الأمثال المنسوبة إلى سليمان ، وهى تحمل الدليل على أن سفر الأمثال ربما لم يتكون فى صورة مجموعة حكمية داخلة فى النصوص المقدسة إلا أثناء السبى البابلى أو بعده ، وبكل تأكيد بعد سقوط أورشليم فى يد بختنصر وانتهاء حكم حزقيا ، آخر ملوك يهوذا . فهذا القسم يبدأ بقوله : « هذه أيضا أمثال سليمان التى نقلها رجال حزقيا ملك يهوذا . »

٧ - من ٣٠/١ - ٣٠/٣٣ وهو إصحاح مخصص لتسجيل حكمة رجل يدعى آجور بن ياقة ، وهو طراز آخر من الحكماء أميل إلى الأسلوب الشعبى . ففى بدايته نقرأ : «كلام آجور بن ياقة . القول البليغ . خطاب هذا الرجل لإيثيئيل ، لإيثيئيل وأوكال : إنى أبلد الناس ، وليس لى ذكاء البشر . ولم أتعلم الحكمة ، ولا عرفت علم القديسين . من ذا الذى طلع إلى السماء ونزل ؟ من قبض الهواء فى راحتيه ؟ من أمسك الماء فى ثوب . من أقام جميع أطراف الأرض ؟ ما اسمه ؟ وما اسم ابنه ، إن علمت ؟ » .

٨ - من ٣١/١ - ٣١/٩ يتضمن هذا الجزء الصغير الحكم التى تلقاها

ملك لانعرف عنه فى التاريخ شيئا ، يسمى هنا « لموئيل » . وقد لقنته أمه هذه الحكم ، وتبدأ هكذا : « كلام لموئيل الملك . قول بليغ أدبته به أمه . ماذا يا بنى ؟ ثم ماذا يا ابن أحشائى ؟ ثم ماذا يا ابن نذورى؟ لا تسلم ثروتك إلى النساء ، ولا خطاك إلى مبيدات الملوك . ليس للملوك يا لموئيل ، ليس للملوك ، أن يشربوا الخمر ، ولا العظماء أن يحتسوا المسكر ... » .

٩ - من ٣١/١٠ - ٣١/٣١ وهو آخر جزء فى هذا السفر ، ويتضمن قصيدة فى التغنى بالمرأة الجميلة الفاضلة العفيفة ، يقول : « من يجد المرأة الفاضلة ؟ إنها أثمن من الدرر . يثق بها قلب زوجها فلا يحتاج إلى مغنم. تغمره خيرا لا شرا كل أيام حياتها . تلتمس صوفا وكتانا فيعمل كفاها بمهارة . وتكون كسفن التاجر ، تجلب طعامها من بعيد . إنها تقوم آخر الليل فتعطى زاداً لبيتها ، ولجواريها ما يلزمهن . ترى الحقل فتأخذه وبفضل كفيها يغرس الكرم . تحزم حقويها بقوة ، وتشدد ذراعيها . تتذوق لذة تجارتها ، فلا يخبو فى الليل قنديلها . تلقى يديها على الوشيعة، وأناملها تمسك بالمغزل . تبسط كفيها إلى البائس ، وتمد يديها إلى المسكين . لا تخشى على بيتها من الثلج ، لأن أهل بيتها جميعهم يلبسون الحلل . تصنع لنفسها أغطية مطرزة ، ولباسها الخز والأرجوان . زوجها معروف فى الأبواب ، حيث يجلس بين شيوخ البلد . تصنع قمصانا وتبيعها ، وتعرض أحزمة على الكنعانيين . لباسها العز والبهاء ، وهى تفرح فى اليوم الأخير . فمها مفتوح بالحكمة ، وعلى لسانها شريعة التقوى . تلاحظ مسالك بيتها ، ولا تأكل خبز التواكل . يقوم أبناؤها

فيغبطونها ، وزوجها يثنى عليها . إن كثيرا من البنات قد أنشأن لأنفسهن فضلا ، أما أنت ففقت عليهن جميعا . النعيم غرور ، والجمال باطل ، والمرأة التى تتقى الرب هى التى تُمدح . أعطوهـا من ثمر يديهـا ، ولتمدحها فى الأبواب أعمالها .»

ويبدو من هذا العرض أن أكبر جزأين فى هذا السفر (٣ ، ٦) ينسبان فعلا إلى سليمان ، على حين تبقى الأجزاء الأخر متعددة المصادر من هو آجور بن ياقة ؟ ومن إيتئيل وأوكال ؟ ومن هو الملك لموئيل كل هذه أسئلة اختلف عليها الباحثون ولم يصلوا بعد إلى حل واضح فيها .

ومشاكل الرواية ، ونسبة النص إلى مصدره ، والتأريخ له ، تظل على نفس المستوى من الغموض فيما يسمى بالمجلات الخمس : نشيد الأناشيد روث ، المراثى ، والجامعة ، واستير .

ومن الكتب التى تثير كثيرا من الجدل فى هذا القسم من العهد القديم « سفر دانيال » . ويبدو أن مجموعة أسفار الأنبياء كانت قد أغلقت نهائيا ، وأقرها الرواة بصورتها وتقسيمها وترتيبهـا التى سبقت الإشارة اليها قبل أن يظهر سفر دانيال . من هنا جاء الخلاف بين النسخة العبرية وغيرها من النسخ حول وضع دانيال . فالترجمة اليونانية السبعينية تعده فى القسم الخاص بالأنبياء لا بكتب الحكمة ، وقد تبعتها فى ذلك الكنائس المسيحية بكافة مذاهبها .

ويقول « لوسيان جوتييه »[1] إنه لابد من أن تكون هناك أسباب

---

(١) مقدمته للعهد القديم المشار إليها آنفا .

قوية لأجلها لم يعتبر كتبة اليهود دانيال ضمن أسفار الأنبياء . وأهمها تأخره فى الزمن ، فلو أنه كان قد عرف وانتشر قبل الانتهاء من تثبيت أسفار الأنبياء كما نعرفها ، لدخل من ضمنها بلاشك . فإذا علمنا أن بين الأسفار التى دخلت فى القسم الخاص بالأنبياء نصوصا ترجع إلى ما بعد العودة من السبي ، كان معنى ذلك أن نص سفر دانيال لابد أن يكون قد تأخر كثيرا ، حتى عن هذه الفترة . فكل مؤرخى التوراة يجمعون على أن الأنبياء « حجاى » و « زكريا » و « ملاخى » قد عاشوا فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد . كذلك يوجد من مؤرخى الكتاب المقدس من يجعلون نصوصا معينة من أسفار الأنبياء ترجع إلى عهد أحدث من ذلك ، ويذكرون على سبيل المثال سفر يوئيل بتمامه وسفر يونس ، والإصحاحات ٢٤ - ٢٧ من إشعيا ، والإصحاحات ٩ - ١٤ من زكريا . ويستدلون بذلك على حداثة عهد نص دانيال .

لاحظ الباحثون فى نصوص الكتاب المقدس أيضا أن هذا السفر فى لغته الأصلية مكتوب بلغتين هما العبرية والآرامية ، تتواليان الواحدة منهما فى إثر الأخرى على طول السياق . وهذه الظاهرة نجد مثيلا لها فى سفر عزرا . ومع ذلك ففى هذه الحالة الأخيرة نلاحظ أن سفر عزرا الذى يستعمل العبرية بصورة أساسية ، كان يرجع إلى وثائق ونصوص آرامية ، يضع منها ما يحتاج إليه فى تحرير هذا السفر بلفظه ولغته . أما فى حالة دانيال فإن مبررات هذه الازدواجية اللغوية لا تبدو من الناحية المنطقية بنفس القوة التى تبدو فى سفر عزرا .

فسفر دانيال يجرى على مخطط بسيط ، ينقسم فيه السياق إلى قسمين

متميزين بوضوح . الأول (الإصحاحات ١ - ٦) يتضمن سردا قصصيا . أما الثانى (الإصحاحات ٧ - ١٢) فيتضمن تفصيلا الأحلام والرؤى التى ظهرت فيها كرامات النبى دانيال . ولو أن التوزيع اللغوى بين العبرية والآرامية كان يطابق هذا التقسيم الموضوعى لهان الأمر ، كما يقول جوتييه ، ولكن الوضع يختلف فى الواقع . فالإصحاح الأول من هذا السفر يبدأ بالعبرية ، وتسوده الصبغة التاريخية ، ويستمر بنفس اللغة والأسلوب إلى صدر الآية الرابعة من الاصحاح الثانى حيث يقول « وخاطب الكلدانيون الملك بالآرامية » . هنا يتوقف عن استعمال العبرية ويبدأ فى الحديث بالآرامية من بقية الآية الرابعة فى الإصحاح الثانى ، إذ يقول « أيها الملك ، عشت إلى الأبد ... » فيستمر استعمال الآرامية إلى آخر الإصحاح السادس ، بل يتعدى ذلك إلى الحديث فى الإصحاح السابع - بالآرامية أيضا - عن رؤيا النبى دانيال ، وهو موضوع أشد ارتباطا بالنصف الثانى (٨ - ١٢) الذى يستعمل العبرية .

وهكذا يتبين لنا أن توزيع العبرية والآرامية على نصوص هذا السفر لايبدو منطقيا حتى لو أننا اعتبرنا أن استعمال لغتين مختلفتين فى سفر واحد يمكن أن يسمى منطقيا . ولذلك لا نعجب إذا وجدنا مؤرخى الكتاب المقدس والباحثين فى نصوصه يقولون - والعبارة هنا للوسيان جوتييه - ان هذه الازدواجية اللغوية فى سفر دانيال فى غاية الصعوبة من حيث تعليلها . فبعض الباحثين يلقيها على مسئولية كاتب هذا السفر ، أيا كان . ومع ذلك فإنه من الصعب أن نتصور كاتبا يحرر ، طائعا مختارا ، كتابا واحدا بهذا الأسلوب الغريب . وبعض الباحثين يعتقد

أن هذا السفر قد طرأت عليه أحداث معينة انتهت بتركه على الصورة التى وصلنا بها . وفى هذا الصدد يظهر أكثر من افتراض . وأقرب هذه الافتراضات إلى واقع هذا السفر يأتى من أن حديثه عن الكلدانيين وعن الإمبراطورية الفارسية ينم عن علم مضطرب بها ، وعن فاصل زمنى لايستهان به هو الذى أحاط الحديث فى تلك الموضوعات بما يبدو فيه من خلط واضطراب . وبالعكس نشعر فى أواخر هذا السفر ، خصوصا ابتداء من الإصحاح الثامن ، بأن المتحدث يعرف بدقة أحوال الإمبراطورية اليونانية ، ويشير إشارات دقيقة إلى شخصية تنطبق تماما على الإسكندر الأكبر المقدونى ، بل نشعر بإشارات إلى خلفاء الاسكندر ، السلوقيين فى الشام والبطالسة فى مصر ، ثم بالأحداث الدامية التى أوقعها باليهود حاكم سوريا « أنطيوخوس إبيفانوس » . فاذا أضفنا إلى ذلك أن النبى دانيال لا يُذكر فى أيام السبى البابلى فى نصوص الأنبياء الذين عاصروا هذه الحوادث إلا سفر حزقيال ، الذى يصفه مرة بالعدل (١٤/١٤ ، ٢٠) يمكن أن نفترض أن السفر المنسوب إليه قد كتب متأخرا فى مرحلة ما من العصر اليونانى ، وهو رأى يدعمه انفراد هذا الكتاب بكثير من الألفاظ الدخيلة اليونانية التى لم تكن معروفة من قبل أو مستعملة بين اليهود .

هذا رأى أكثر المحققين الأوربيين المحدثين وفى مقدمتهم لوسيان جوتييه ، وقبله البريطانى دريفر . [1] ومع ذلك فإن سفر دانيال مايزال محتاجا إلى أبحاث طويلة فى لغته ومضمونه الدينى والسياسى ورمزيته

---

(١) مقدمته للعهد القديم المشار اليها آنفا .

الأدبية ، كما أنه محتاج إلى مزيد من الاستعانة بالآثار والحفائر التى كشفت ، وتكتشف فى إيران والعراق وفلسطين .

تبين لنا أن العهد القديم يعتبر فى مجموعه مستودعا لما يرى العبريون أنه تاريخهم وتراثهم من تجارب السابقين ، ومن أدبهم شعرا ونثرا ، ومن حكمهم وأمثالهم وبطولاتهم ونبواتهم . كما تبين لنا أنه ـ على الرغم من كل شيء ـ يبدو الحرص على أن يكتسب ذلك كله ترتيبا تاريخيا يبدأ بخلق العالم وينتهى بالعودة من السبى البابلى وإقامة الهيكل الثانى بجهود عزرا ونحميا وزروبابل . ولأن الفرس كما علمنا كانوا حلفاء لهم ، واليهود إنما رجعوا من السبى بفضل الفرس ، ولأنهم ارتبطوا بالسياسة الفارسية الاستعمارية التى انتهت بفتح مصر نفسها ، فإن اليهود لم يستمروا فى تقييد نبواتهم بصورة مقدسة بعد زوال الحكم الفارسى ومجيء اليونان إلى منطقة الشرق الأوسط ، باستثناء نصوص قليلة أهمها ما أشرنا إليه من أمر النبى دانيال وسفره .

ومع ذلك فلأن اليهود قد ألفوا تسجيل سيرهم وأخبارهم بنفس الطريقة الملحمية الفلكلورية التى عرفناها فى العهد القديم ، فإن هذا السرد يستمر فيما يسمى بتاريخ المكابيين ، وهو نص جاءنا باليونانية لا بالعبرية ليواصل التاريخ الإسرائيلى حتى ظهور المسيح .

وفى هذا الصدد تقدم الترجمة العربية الكاثوليكية للكتاب المقدس (١) بمقدمة للمكابيين تقول فيها :

---

(١) الكتاب المقدس ـ العهد العتيق ، بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٤ المجلد الثانى ص ٨٦٨ وما بعدها .

لم يتوقف تاريخ الشعب اليهودى بعد الحكم الفارسى ، بل تابع مجراه تحت سيطرة الإغريق ، فى ظل السلالات المنبثقة من فتوحات الإسكندر . ففى البدء كانت فلسطين ، وبما فيها إسرائيل ، تحت حكم البطالسة أو اللاجيديين المالكين فى مصر ؛ ثم انتقلت إلى حكم سيكون أكثر تعسفا ، هو حكم السلوقيين المالكين فى سوريا .

لم تنقل التوراة العبرية شيئا من أحداث هذه الأزمنة التى تلت « أرتحشستا » حامى نحميا وعزرا . إلا أن التوراة اليونانية ، ويتبعها فى ذلك سائر التورات المستعملة عند المسيحيين ، قد قبلت كتابين ينتميان إلى عهد السلوقيين إلى فترة مشئومة على اليهودية . وقد سميا بسفرى المكابيين .

وهذا الاسم ليس بالواقع فى نص السفرين سوى كنية فردية لثالث أبناء متياس ، وهو الباسل يهوذا . ومعنى الكنية ، كما يظهر ، هو «المعيّن من يهوه» . وقد جرى الاستعمال أن يطلق الاسم على إخوته أيضا ، ثم على الضحايا المجيدة التى سقطت فى الاضطهاد الذى أثاره أنطيوخوس إبيفان على اليهود الأمناء لالههم وشريعتهم .

إن السفر الأول هو كناية عن رواية متتابعة لحوادث تنتهى إلى موت سمعان ، ثالث ملك من السلالة الأشمونية . (يريد أسرة الملوك اليهود الحشمونيين) .

تبتدىء الرواية بالإسكندر ؛ فتبلغ سريعا إلى الملك السلوقى المضطهد أنطيوخوس إبيفان . فقد دمر الهيكل ، وأوقف عبادة يهوه ، وأجبر الإسرائيليين أن يذبحوا للالهة الكذبة . حينئذ تألفت نواة مقاومة حول

متياس الكاهن الشيخ ، فى مودين ؛ تحت رئاسة أولاد الكاهن ، وأولهم وأمجدهم يهوذا المكابى الذى سيدير أمور الحرب ويقود الأمة . فكان يقاتل ويطلب النجدة من الخارج حتى روما ؛ ودخل أورشليم فأصلح الهيكل ، وأعاد خدمة الله . وأخيراً سقط مجيدا فى ساحة الحرب . فخلفه أخوه يوناثان على رأس السلطة المدنية . فحمل لقبى « ملك » و « رئيس أحبار » بالوقت عينه ، وهذا اللقب المزدوج من ميزات هذه السلالة. وأمنت له خصومات جيرانه حكما ذاتيا قويا . لكنه وقع أخيراً فى قبضة أحد الملوك جيرانه ؛ ومات قتلا فى المنفى . فخلفه ثالثهم سمعان ؛ وبعد ملك سعيد مات قتلا بيد أحد المغامرين . ويتوقف السفر عند ملك ابنه ؛ وهو يوحنا حرقان (هرقانوس) الكبير الذى يذكره يوسيفوس المؤرخ . ولم يذكر فى السفر شىء من مآثره .

إن إنشاء السفر بكامله لاخيال فيه ، وهو اقتداء جيد للنثر التاريخى ، نثر صموئيل والملوك . ليس لدينا منه سوى ترجمة يونانية ونصوص أخرى متعلقة بهذه الترجمة . لكن إنشاءه وبعض الأغلاط فى الترجمة تثبت أن النص الأصلى ، وهو على الأرجح قليل الانتشار جدا ، كان بلغة سامية ـ قد تكون دون شك العبرية . إنه دينى إلى حد بعيد ، لكن دون تفخيم ، ودون أن تظهر فيه أفكار لاهوتية معينة .

أما المؤلف فيظهر أنه عاش فى فلسطين ، مما يؤهله لمعرفة الأخبار التى يرويها . وإن الشكل المختصر الذى يتوقف به السفر عند موت سمعان ، يدعو إلى الاعتقاد أن المؤلف كتب فى أثناء ملك ابنه يوحنا حرقان ، بعد مقتل أبيه بقليل ـ ١٣٤ ق.م.

أما سفر المكابين الثانى فهو مستقل ومميز تماما عن الأول ، ويظهر أن هدفه ـ الجزئى على الأقل ـ هو دعوة الشعب اليهودى ، حتى فى المهجرة ، ليقيموا عيد التدشين أو « الحانوكا » وهو التذكار السنوى لإعادة العبادة على يد يهوذا المكابى . ويتكلم عرضاً عن يوم نيكانور ، وهو الاحتفال بالنصر الذى قيض لاورشليم أن تظل نهائيا فى أيدى اليهود الاوفياء لله . لهذا الكتاب ميزة خاصة به ، وهو أن المؤلف يخبرنا أنه قام بتلخيص مؤلف فى خمسة أجـــزاء ، من وضع جازون (ياسون) القيروان الذى لانعرف عنه شيئا آخر ، والذى كان ينتمى إلى الطائفة اليهودية فى القيروان ذات اللغـــة اليونانية ، ولاريب أن جازون كان يستعمل هو أيضا اللغة اليونانية . فما علينا إذن أن نفترض نصا أصليا بلغة غير اليونانية .

إن واضع سفر المكابيين الثانى ، اقتداء بكثير من المؤرخين اليونانيين فى عصره ، يستعمل الإنشاء المؤثر ، الكثير الإطناب ، مع اعتبارات دينية ، وحوادث عجائبية ومن المهم جدا أن نلاحظ فى هذا السفر تأكيدا قويا للمجازاة فى الحياة الأخرى ولقيامة الموتى . وذلك دليل على فكرة متطورة عما بعد الموت ، سيعتنقها الفريسيون ، وسيعلمها المسيح ويتركها لكنيسته .

إلى هنا ينتهى كاتب مقدمة الترجمة العربيـة . ونحب أن نضيف إلى تلخيصه بعض ملاحظات وتوضيحات :

لفظة المكابيين ليست من السهولة فى شرحها واشتقاقها بما يبدو فى هذه المقدمة، فقد اختلف فى اللفظة العبرية المفردة التى تقابلها فذهب بعض الباحثين

إلى أنها « مقبي » ومعناها « المطرقة » ، وقد لقب بها يهوذا للضربات الساحقة التي ألحقها بأعداء قومه من اليهود . وإلى جانب هذا الرأي يرى آخرون أن الأصل العبري هو « مكبي » ، وأنها اختصار بالحروف الأولى لآية جاءت في نشيد انتصار موسى على فرعون تقـــول « من كمثلك بالآلهة يارب » (خروج ١١/١٥) . وأن يهوذا كان قد اتخذ هذه الآية شعاراً له ونقش حروفها الأولى (م. ك. ب. ى.) على خاتمه ، فانتسبت إليها أسرة الحشمونيين ، وأصبحوا يسمون المكابيين . وعلى ذلك يكون تفسير كاتب المقدمة بأن معنى هذه الكلمة « المعيّن من يهوه » تفسيرا غير راجح ؛ لاندرى كيف اشتقاقه أو تخريج معناه هكذا .

تأكيد كاتب المقدمة أن النص الأصلي لسفر المكابيين الأول قد كتب « دون شك » بالعبرية لا يقوم عليه دليل ، ووجود بعض الأغلاط في النص اليوناني ربما كان مرجعه إلى أن الكاتب اليوناني كتب باليونانية ولكنه يهودي أولا وقبل كل شيء ، يمكن أن ينزلق أسلوبه باليونانيـة أحيانا نحو العبرية أو الآرامية . وربما كان افتراض كتابة هـذا السفر بالآرامية عند من يصرون على أن نسخته اليونانية مترجمة عن لغة سامية أقرب إلى الواقع اللغوي ليهود فلسطين في هذه الأثناء .

أشار كاتب هذه المقدمة إلى شيء طريف عن سفر المكابيين الثاني ، وهو أنه مختصر من كتاب كبير سابق له ، وقصة ذلك كلها وردت في الإصحاح الثاني من سفر المكابيين الثاني نفسه ، بالتفصيـــل ، في قوله « إن الحوادث التي وقعت ليهوذا المكابي وأخوته ، وتطهير الهيكل العظيم وتدشين المذبح ، والحروب التي وقعت مع انطيوخوس وابنه أوباطير ، والآيات التي ظهرت من السماء في حق الذين تحمسوا لدين اليهـــود ،

حتى إنهم مع قلتهم تسلطوا على البلاد بجملتها ، وطردوا جماهير الأعاجم، واستردوا الهيكل الذى اشتهر ذكره فى العالم بأسره ، وحرروا المدينة وأحيوا الشرائع التى كادت تضمحل ، لأن الرب عطف عليهم بكثرة مراحمه . تلك الأمور التى شرحها ياسون القيروانى فى خمسة كتب، قد أقبلنا نحن على اختصارها فى مجلة واحدة . ولما رأينا تكاثر الحوادث ، والصعوبة التى تعترض من أراد الخوض فى أخبار التاريخ ، لكثرة المواد ، كان من همنا أن نجعل فيما كتبناه فكاهة للمطالع ، وسهولة للحافظ ، وفائدة للجميع . فلم يكن تكلفنا لهذا الاختصار أمراً سهلا ، وإنما تم بالعرق والسهر . كما أن الذى يعد مأدبة ، ويبتغى بها منفعة الناس ، لايكون الأمر عليه سهلا . غير أنا لأجل مرضاة الكثيرين سنتحمل هذا النصب عن طيبة نفس ، تاركين التدقيق فى تفاصيل الحوادث لأصحاب التاريخ ، وملتزمين فى الاختصار استقراء أهم الوقائع . فإنه كما ينبغى لمن يهندس بيتا جديدا أن يهتم بجميع أجزاء البنيان ، ولمن يباشر الرسم والتصوير أن يتطلب أسباب الزينة ، هكذا ما نحن فيه على ما أرى . فإن التبحر والكلام على كل امر ، والبحث عن جزء فجزء ، من شأن مصنف التاريخ . وأما الذى يلخص فمرخص له أن يسوق الحديث باختصار مع إهمال التدقيق فى المباحث . (سفر المكابين الثانى ٢/٢٠ - ٣٢) .

ونحن نرى من هذا المثال الدقيق الطريقة التقليدية التى كان اليهود يعرفونها ويكتبون بها تواريخهم ، بل ربما كان هذا الملخص المتأخر الذى يعترف بمنهجه وأهدافه بكثير من الصراحة أكثر تدقيقا من قدماء الفولكوريين العبريين ، بل من كثير من أنبياء بنى إسرائيل .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا النص المتضمن فى المكابيين الأول

والثانى لم يدخل ضمن الأسفار القانونية التى يتكون منها كتاب اليهود المقدس ، وإن كانوا يحيطونه بكثير من العناية والاهتمام ويجعلونه كما قلنا استمرارا لتاريخهم . ولذلك فانه ألحق بمجموعة من النصوص كانت مقدسة فى بعض فترات من التاريخ ، ولكنها أخرجت من الكتاب المقدس لأسباب شتى وأطلق عليهـا اسم « الكتب غير القانونية » أو « الأبوكريفا » .[1] وسنلقى عليها فى السطور التالية بعض الضوء أملا فى أن يتضح حجمها ومفهومها فى ذهن القارىء العربى .

الكتب غير القانونية

(الأبوكريفا)

ويسميها بعض الباحثين من اليهود « الكتابات الخارجة » ، ويعنون بذلك أنها نصوص مروية على أنها مقدسة ، ولكنها لم تقبل عندما تقرر

---

(١) الكتب والنصوص غير القانونية فى العهد القديم كانت موضوع عناية العلماء والدارسين ومراجعها كثيرة من أوفاها :

D.Otto Zöckler ; Die Apokryphen des Alten Testaments.

طبع ميونيخ سنة ١٨٩١ .

وتوجد ترجمة عربية للابوكريفا فى العهد القديم ، طبعتها مدارس الأحد المرقسية بالاسكندرية وأشرف عليها الأستاذ الدكتور مراد كامل والأستاذ يسى عبد المسيح وظهرت سنة ١٩٥٦ بعنوان « الأسفار القانونية التى حذفها البروتستانت » . والواقع هو أن اليهود هم أول من حذفها .

وعلى غرار ماحدث فى العهد القديم . توجد أبوكريفا للعهد الجديد المسيحى خاصة ، من خير مراجعها :

M.R.James, The Apocryphal New Testament, Oxford 1926.

تسجيل أسفار العهد القديم فى وضعها الذى ذكرناه كأجزاء معتمدة من هذا الكتاب المقدس ولكن بأية سلطة وبناء على أى مقياس أخرجت هذه النصوص ؟

إن النصوص « الشرعية » التى قبلها علماء اليهود الأولون ، وجعلوا منها كتابهم المقدس ، تسمى عندهم بأسماء أهمها وأشهرها « التنَّاخ » ، ويكتبونها بالعبرية (ت ، ن ، ك) وهى حروف اختصار من الألفاظ : توراة ، نبيئيم (الأنبياء) ، كتوبيم (الكتب) ، وهى كما عرفنا الأجزاء الثلاثة الكبيرة التى يتألف منها العهد القديم . ومن الأسماء المستعملة عندهم لتحديد هـــذا الكتاب « المِقْرا » ، أى النص المقرو ، لأنهم مطالبون بقراءته فى عباداتهم وللرجوع إلى الأحكام الشرعية التى تنظم حيـــاتهم . وهناك اسم ثالث ، له عندهم صفة علمية خاصة ، هو « المسُورَةْ » أو « المسُورِيتْ » ويعنون بذلك النص المقدس المروى عن الأسلاف رواية متواترة ارتضتها أجيال العلماء ورفضت ماعداها .

ويقول اليهود إن كتابهم المقدس ظل زمنا طويلا يروى مشافهة من مصادر مختلفة ، وأنه لولا العلماء المحققون من اليهود ، الذين محّصوا هذه المرويات ونسّقوها ، لانطمست معالم النص المقدس ودخلت فيه متناقضات كثيرة. ومن الجدير بالذكر أن « المسُّورِيتْ » لاتعني فقط نسخة العهد القديم بروايتها التى يقال إنها ترجع إلى عهد النبى « عِزرا » ، بل يضاف إلى ذلك ضبطها بالحركات ، وتقسيمها إلى أسفار وفقرات ، وآيات ، وتعيين مواضع الفصـــل والوصل والوقف عند التلاوة ، وتحديد نطق بعض

الألفاظ التى كُتِبَت بطريقة لا تؤدى إلى النطق الشرعى الصحيح ، مما هو مبين فيما يسمونه « المقرؤ والمكتوب » ، « قِرِى وكتيب » .

وبهذا الوضع يمكننا أن نقول إن المَسورِت ، أى إقرار النص الشرعى فى صورته النهائية الكاملة المتكاملة المقفلة ، قد استغرقت أجيالا من العلماء من عهد « الكتبة » (سوفريم) ، فى غضون القرن الثالث قبل الميلاد ، وحتى عهد الأحبار الفقهاء (جاؤنيم) ، فى القرن السابع والثامن الميلاديين . بل إننا نلاحظ من خلال قراءة كتاب « اللُمَع » فى النحو العبرى للعالم اليهودى الأندلسى أبو الوليد مروان بن جناح القرطبى المتوفى فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى أنه يشير بين الفينة والفينة إلى اختلاف الرسم أو القراءة فى عصره بين مخطوطات متنوعة من الكتاب ، فيذكر أنه رأى كلمة كذا فى « مصحف شامى » أو « مصحف كوفى » ... الخ ، ويعنى بهذه المصاحف نسخا من العهد القديم [1] . بل إن الباحثين المعاصرين قد أخذوا بنصيبهم فى تحقيق المَسورِت ، فظهرت طبعة علمية للكتاب المقدس اليهودى سنة ١٩٢٦ أعدها ونشرها فى لندن جينزبورج ، كما ظهرت فى ألمانيا طبعة علمية من إعداد

---

(١) أبو الوليد مروان بن جناح القرطبى : كتاب اللمع (فى النحو العبرى) ، نشره بالعربية المستشرق يوسف درنبورغ - باريس ، ١٨٨٦ . وانظر أيضا :

Hassan Zaza ; L'OEuvre grammaticale d'Ibn - Djanâh. et ses rapports avec les différentes théories arabes.

هى ورسالة دكتوراه السربون - باريس سنة ١٩٥٨ .

كيتل . وكلاهما بذل الجهد فى استقصاء الخلافات بين النسخ المخطوطة الموجودة بين أيدينا ، والنسخ التى كان يستعين بها المترجمون القدماء لهذا الكتاب حسب ما تنم عن ذلك ترجمة كل منهم ، مستعينين فى المقام الاول بالترجمات الآرامية التى قام بها « أونكلوس » و « يوناثان » واليونانية : السبعينية ، وأكيلا ، وسيا كوس . وكذلك بالترجمات السريانية واللاتينية والقبطية والحبشية وغيرها .

فكل النصوص التى لم تدخل فى النسخة العبرية الشرعية المشار إليها ، وظلت مع ذلك شائعة بين اليهود ، أو مثبتة فى بعض المخطوطات أو الترجمات هى التى تتكون منها الابوكريفا . وقد حاول علماء اليهود أن يحددوا الأسس التى طردت بمقتضاها نصوص الأبوكريفا فذكروا من ذلك :

١ ـ النصوص التى ترجع إلى زمن الكتاب المقدس ، ولكنها فيما بدا لهم لاتحمل روح الكلام الموحى به من الله ، لأنها تناقض التوراة فى بعض الأحيان وكتب الانبياء المعتبرين فى أحيان أخرى . لاسيا إذا كان آباء الدين الأقدمون قد حرموا قراءتها .

٢ ـ النصوص التى كتبت بعد انتهاء عهد الانبياء ، وأمر آباء الدين الأقدمون بعزلها وإيداعها فى مخازن تخفيها عن أعين الجمهور ، وهى التى يسمونها « النصوص المخفية » أو المخزونة .

٣ ـ النصوص التى تعالج فترة من التاريخ الإسرائيلى هى على وجه اليقين

متأخرة عن عصر الأنبيـاء ، والعصر الذى تمت فيه نسخة العهـد القديم الرسمية ، ومن ذلك سفر « المكابيين » الأول والثانى . وهذه الطائفة من النصوص تسمى عند اليهود باسم « الكتابات المتأخرة » .

٤ ـ النصوص الأسطورية التى تتضمن رموزا وصورا خيالية وقصصا مستقبلية خاصة بفناء هذا العالم ، ومن أشهر أمثلتها سفر «حنوك» أو « أخنوخ » .

٥ ـ الأسفار الأدبية والحكمية والفلسفيـة الكثيرة التى لا تمت إلى الدين بصلة ولكن رواها بعض اليهود وقيدوها إعجابا بقيمتها الأدبية .

٦ ـ النصوص التى انفردت بروايتها وكتابتها طوائف منشقة على اليهودية الرسمية ، وحرم علماء الشريعة اليهودية استعمالها أو قراءتها أو الرجوع إليها .

وهذه النصوص غير القانونية هى :

١ ـ كتابات تاريخية مثل سفر المكابيين الأول والثـانى ، وأسفـار النبى عزرا غير القـــانونية التى توجد فى الترجمة اللاتينية " الفُولْجَاتَا » ولا توجد فى المسُّورِت" العبرية ، وكذلك زيادات وتكملات مضافـة إلى سفر أخبـار الأيام وسفر دانيال ، وبخاصة قصة سوسن العفيفة ، وقضاء دانيال ، وسفر إستير .

ب ـ نصوص عقائدية ضد عبادة الأصنام ، وفى بيان قدرة الله ومعجزاته التى تظهر على أيدى أوليائه ، ومن أشهر ذلك سفر يهوديت ، وسفر طوبيا ، وسفر المكابيين الثالث ، ووصايا الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط الاثنى عشر وأيوب وموسى وسليمان ... إلى آخره .

وإلى جانب الكتاب المقدس اليهودى ، ظهرت بين اليهود على مدى عصورهم نصوص مقدسة أخرى أشهرها « المشنا » و « الجمارا » ، الأولى بالعبرية والثانية تفسير لها باللغة الآرامية ، ومن كليهما معا يتألف الكتاب الذائع الصيت المعروف فى العالم باسم التلمود . وسنحاول فى الصفحات التالية أن نعرّف بهما بما يوضح وضعها التاريخى والفكرى فى الأمة الاسرائيلية وتطور الفكر الدينى لديها .

المِشْنَا (أو المِشْنَة)

هى مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الألسنة ، والتى كان اليهود ـ وما يزالون ـ يعتبرونها مصدراً من مصادر التشريع يأتى فى المقام الثانى بعد التـــوراة مباشرة ، ويظنون أنها ترتفع هى أيضا إلى سيدنا موسى ، بالرغم من أننا بيّنا أن التوراة نفسها ـ فى شكلها الحـــالى ـ لا تربطها بموسى إلا علاقة ضعيفة جدا . ولذلك فإنهم يسمون المشنة « التوراة الشفوية » .

ومن المؤكـد أن المحاولات الأولى لرواية شرائع المشنة وتقييدهـا لم تبدأ إلا بعد السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد بزمن طويل . وقد ظلت هذه الشرائع تروى بلا رقيب ولاحسيب ، وتسودها الفوضى الكاملة إلى القرن الأول قبل المسيح . يقول « ميلتسينر » [1] : إن أول جهد بذل لإقرار شيء من النظـــام والمنهج فى تلك الكتلة المختلطة من المرويات هو الذى قام به الإمام اليهودى « هِليل » رئيس المجلس الدينى الأعلى « السنهدرين » فى أيام هيرودس ، أمير اليهود الذى ولد المسيح فى زمانه . فهذا الإمام هو الذى خطط تقسيم هذه المرويات إلى أقسامها الستة المعروفة . ثم جاء من بعده إمام آخر هو « عقيبا » فنظم بعض التفاصيل الجزئية فى داخل هذه الأقسام الستة . وجاء من بعده الإمام

---

(١) Moses Mielziner; Introduction to the Talmud, 3d edition, New York 1925; p. 4.

« مشير » فأكمل نصوص المشنة وأضاف إلى نظامها مزيدا من الإحكام. أما الذى قيدها كتابة فى وضعها الذى نعرفه فهو الإمام «يهودا هاناسىء»، وكان ذلك حوالى نهاية القرن الثانى بعد الميلاد.

ولم يكن عمل يهودا هاناسىء مجرد تبويب وتنظيم ، بل إنه أكمل المرويات وقام بعملية تمحيص وتدقيق طرد بموجبها من المشنة مجموعة من النصوص ، تعتبر بالنسبة لها مثل « الأبوكريفا » للكتاب المقدس ، وهى النصوص التى يسميها اليهود « البرّايتا » ، أى « البرانية » أو « الخارجة » .

منذ هذا الوقت أصبحت هذه المجموعة من النصوص والشرائع تسمى « مشنة الربى يهودا » تمييزا لها عن محاولات عقيبا ومئير .

ومع كل ذلك ما يزال علماء اليهود حتى الآن يُشكون فى أن يكون الربى يهودا قد قيد المشنة بالكتابة ، ويعتمدون فى ذلك على نصوص جاءت فى التلمود تبدو صريحة فى النهى عن كتابتها كقوله : « إن الأمور التى تُروى مشافهة ليس لك الحق فى إثباتها بالكتابة » - (التلمود ، جيطين ٦٠ / ب - تمورا ١٤ / ب) . وممن قال بهذا الرأى من القدماء الجاون شريرا ، والعلامة رشى ، ومن المحدثين لوتساتو ، ورابوبورت ، ويوست ، وجريتس ، وليوبولد لويف ، وغيرهم . ولكن الرأى المعتمد عموما هو أن يهودا قد كتب المشنة بأكملها ، وممن قال به قديما صمويل هاناجيد ، والربى نسيم ، وإبراهيم بن داود ، وموسى بن ميمون . ومن المحدثين جايجر ، وفرانكل ، وليبرخت ، وفايس ، وغيرهم .

تقسيم المشنة :

تنقسم المشنة كما قلنا إلى ستة أقسام ، يتضمن كل منها أبوابا فرعية على النحو التالى :

أ ـ كتاب « زراعِيم » أى البذور ، أو الإنتاج الزراعى . ويتضمن القوانين الدينية الخاصة بالأرض والزراعـــة ، ويبدأ بتحديد الصلوات المفروضة والبركات أو الادعية .

ب ـ كتاب « مُوعِد » أى العيد ، وهو الذى يحتوى على الاحكام الدينية والفرائض الخاصة بالسبت وبقية الاعياد والأيام المقدسة .

جـ ـ كتاب « ناشِيم » أى النساء ، وفيه النُظُم والأحكام الخاصة بالزواج والطلاق .

د ـ كتاب « نِزيقين » أى الاضرار ، ويحتوى على جزء كبير من الشرائع المدنية والجنائية ، بما فى ذلك القصاص والعقوبات والتعويضات .

هـ ـ كتاب « قُداشيم » أى المقدسات ، ويحتوى على الشرائع الخاصة بالقرابين وخدمة الهيكل .

و ـ كتاب « طهَارُوت » أى الطهارة ، وفيه الأحكام الخاصة بما هو طاهر وما هو نجس وما هو حلال وما هو حرام من المـــأكولات والمشروبات وغيرها .

وكل قسم من هذه الأقسام يحتوى بدوره على عدة فصول ، بحيث يكون مجموع هذه الفصول للستة أقسام كلها ثلاثة وستين فصلا ، ترتيبها كما يلى :

١ ـ كتاب زراعيم ـ [الزروع] ، [البذور]

يحتوى على أحد عشر فصلا هى :

١ ـ برَاخوت ، أى البركات ويتضمن أحكام الصلاة والعبادة .

٢ ـ فئَة (١) ، ومعناها بالعبرية الركن أو الزاوية أو الناصية ، وفيه الأحكام الخاصة بالحصاد وجنى الثمار ، وترك مايتبقى منها فى أركان الحقل ليلتقطه الفقراء ، حسب ماجاء فى التوراة ، لاويين ١٩/٩ ، ١٠ والتثنية ٢٤/١٩ ، ٢١ .

٣ ـ دماى ، ومعناها مافيه شبهة ، ويهتم بأحكام شراء الحبوب من فلاحين يشتبه فى أنهم لم يدفعوا عنها زكاة العُشر .

٤ ـ كِلَائِيم ، ومعناها المخلوطات ، وتتضمن أحكام النهى عن خلط النبات أو الحيوان عند الانتاج أو البيع ، حسب ماجاء فى اللاويين ١٩/١٩ ، والتثنية ٢٢/٩ ، ١١ .

٥ ـ شِبيعيت ، أى السنة السابعة ، وهى سنة العتق والراحة ، حسب ما جاء فى الخروج ٢٣ / ١١ ، واللاويين ٢٥/٢ - ٧ ، والتثنية ١٥/١ - ١١ .

٦ ـ ترُومُوت ، أى جراية الكهنة ، كما جاء فى سفر العدد ١٨/١٢ .

٧ ـ معسرُوت ، أى العشور وهى الزكاة التى تقدم للكهنة اللاويين، حسب ما جاء فى اللاويين ٢٧/٣٠ - ٣٣ والعدد ١٨/٢١ - ٢٤ .

---

(١) مثل هذه الفاء تنطق بالعبرية باء ثقيلة « p » ويكون لفظ هذه الكلمة «péa».

٨ - مَعَشِر شِينى ، أى العُشر الثانى فى الزكاة ، حسب التثنية ١٤/٢٢ - ٢٦ .

٩ - حَلّة ، ومعناها العجين ، ويختص بزكاته التى تقدم للكهنة ، حسب سفر العدد ١٥/٢٠ ، ٢١ .

١٠ - عُرلة ، ومعناها فى الأصل عدم الاختتان ، وهو يختص بثمار الشجر فى السنين الأربع الأولى بعد غرسها ، طبقا للاويين ١٩/٢٣ - ٢٥ .

١١ - بكوريم ، أى البواكير ، وهى الثمار الأولى التى يجب إهداؤها للمعبد ، حسب سفر التثنية ٢٦/١ ، ١١ .

ب - كتاب موعد - [الوعد] ، [الموسم]

يحتوى على اثنى عشر فصلا هى :

١ - شبّات ، أى السبت ومايحرم فيه من الأعمال .

٢ - عرُوبين ، ومعناها التوصيلات ، وهو يختص بتحديد الانتقال من مكان إلى مكان يوم السبت .

٣ - فِسَحيم (١) ، أى عيد الفصح ، وأحكام خروف الضحية .

٤ - شِقَالِيم ، ومعناه المثقال من الفضة ، ويختص بأحكام زكاة نصف المثقال من الفضة الواجبة لكهنة المعبد على كل فرد من اليهود ، حسب ماجاء فى سفر الخروج ٣٠/١٢ - ١٦ .

٥ - يُومّا ، ومعناه اليوم ، وهو عيد التطهير حسب اللاويين ١٦/٣ - ٣٤ .

---

(١) الفاء هنا ثقيلة «p»

٦ - سُوكَّه ، وهو عيد المظلات - لاويين ٢٣/٣٤ - ٣٦ ٠

٧ - بيصة ، أو يوم طوب ، والكلمة الاولى معناها البيضة ، وبها يبدأ هذا الفصل ، ويحتوى على مايحرم ويحل فى الاعياد حسب سفر الخروج ١٢/١٦ ٠ ويوم طوب معناها العيد .

٨ - روش هاشّاناه ، أى رأس السنة .

٩ - تَعنّيت ، أى الصيام .

١٠ - مِجِلّة ، وفيه أحكام قراءة سفر إستير فى عيد بوريم ، الذى يسميه العرب عيد المساخر ، لما تعوده اليهود فيه من السكر والرقص بأزياء تنكرية من نوع الكرنفال .

١١ - مُوعِد قاطُون ، أى العيد الصغير ، ويختص بأحكام الايام الواقعة بين عيد الفصح وعيد المظلات .

١٢ - حجيجة ، ومعناها الحج ، وأحكام هذا العيد كما فى التثنية ١٦/١٦ ، ١٧ ، وما يجب بهذه المناسبة من تقدمات وقرابين للهيكل والكهنة .

جـ - كتاب ناشيم - [النساء]

يحتوى على سبعة فصول هى :-

١ - يبَامُوت ، وهذه الكلمة جمع مؤنث فى اللغة العبرية ، مفردها « يبامة » ، وهى إمرأة الاخ المتوفى التى يجب على أخيه الباقى على قيد الحياة الزواج بها .

٢ - كتُوبُوت ، ومعناها كتابات عقود الزواج ، وفيه كل الخطوات القضائية والحقوق والواجبات المتعلقة بذلك .

٣ - ندَاريم ، « النذور » ، ويختص بأحكامها وشروط التحلل منها .

٤ - نازير ومعناها الشخص الذى صدر بحقه نذر لخدمة المعبد .

٥ - سُوطَة ، وهى كلمة تعنى المرأة المتهمة بخيانة زوجها وارتكاب جريمة الزنا .

٦ - جيطين ، وهو الطلاق ، بشروطه وأحكامه .

٧ - قدُوشين ، ومعناه تكريس المرأة وحجزها للتزوج بها ، وهو مانسميه الخطبة ، وفيه بيان لما يترتب على الخطبة من حقوق وواجبات .

د - كتاب نزيقين - [الأضرار] ، [الجنايات]

وهو يحتوى على عشرة فصول هى :-

١ - بابا قاما ، ومعناها الباب الأول ، وهو يختص بالجنايات والتعويض عنها ومعالجتها ، معتمد على الخروج ٢١/٢٨ - ٣٧ ، ٢٢/١ - ٥ .

٢ - بابا مصيعا ، أى الباب الأوسط ، وتفصل فيه أحكام الممتلكات التى لاصاحب لها ، والامانات ، والبيع والشراء ، والديون ، والإيجار .

٣ - بابا بَاتْرَا ، أى الباب الأخير ، وفيه أحكام الممتلكات والتجارة والمواريث .

٤ - سنَهِدْرين ، أى المَحَاكم ، ويختص بقواعد تكوينها وإجراءاتها والعقوبات التى تصدرها فى الجرائم الكبرى .

٥ - مَكُوت ، ومعناها الضربات ، وهو خاص بالعقوبات التى تقع

على شهود الزور ، والاحكام الخاصة ببعض الجرائم الاخرى .

٦ ـ شبُوعُوت ، ومعناها أنواع اليمين والقسم ، وهى هنا تحدد بأحكامها سواء كانت بين الأفراد أم فى المحاكم .

٧ ـ عدُويُوت ، ومعناها الشهادات ، وفيها أحكام الشهادة ومايتصل بأدائها ، ومايجب فى الشهود .

٨ ـ عبُودَه زارَه ، ومعناها العبادة الأجنبية أو الغريبة ، والمقصود بها ديانات الكفر وعبادة الأصنام ، وأحكام ذلك فى المجتمع اليهودى .

٩ ـ ابُوت ، ومعناه الآباء ، ويسمى أيضا « فرقى آبوت »(١) أى فقرات الآباء ، ويعنون بذلك الحكم والأحكام الدينية والأخلاقية التى نطق بها الآباء ، وهم القدامى من رؤساء الدين ، واتبعها اليهود بعدهم. وهو باب مهم يلخص العقائد والسلوك العام المطلوب من اليهودى أن يعيها وينفذها فى حياته الخاصة والعامة .

١٠ ـ هُورَايُوتْ ، ومعناه التعاليم ، وهو يختص بالفتاوى التى يفتى بها فى الدين عالم من علماء اليهود خصوصا إذا كان فيها خطأ ، وأحكام ذلك .

هـ ـ كتاب قداشيم ـ [المقدسات]

ويحتوى على أحد عشر فصلا هى : ـ

١ ـ زبَاحيم ، ومعناها الذبائح ، وهى القرابين من الحيوانات تُقدّم ضحية فى المناسبات الدينية المختلفة .

٢ ـ منَاحُوت ، ومعناها التقدمات أو المنح ، وهى ما يُقدم فى المعبد من الطعام والخمر حسب ماجاء فى الإصحاح الثانى من سفر اللاويين .

---

(١) الفاء «p» ثقيلة

٣ - حُلِين ، (بضم الحاء) ، وهو يتصل بالحلال من المأكولات في الحياة العامة ، ولاسيما الحيوانات المباحة للأكل ، والطريقة الشرعية لذبحها ، وبعض الأحكام الخاصة بالطبخ ، وتناول الأطعمة المختلفة .

٤ - بِـُكورُوتْ ، وهو يختص بالأحكام المتعلقة بالمواليد البكر ، أى أول مولود يأتى للإنسان أو للحيوان ، حسب سفر الخروج ١٢/١٨ ، ١٣ ، والعدد ١٥/١٨ - ١٧ .

٥ - عَرَاكين ، ومعناه التقديرات والتحديدات الخاصة بقيمة الأشياء أو الأشخاص . وهو يسوق الشرائع الخاصة بفدية من يُنْذَرُون لخدمة الدين أو يقدمون للمعبد ، وطريقة التعويض عنهم إذا أريد سحبهم إلى الحياة المدنية ، يستوى فى ذلك الاشخاص أو الحيوانات ، حسب ماجاء فى اللاويين ٢/٢٧ - ٢٧ .

٦ - تِمُورَه ، ومعناها البدل ، ويتناول الأشياء المكرسة للاستعمال الدينى إذا ما أبدلت بغيرها .

٧ - كِرِيتُوتْ ، ومعناها أنواع القَطْع والبَتْر والاستئصال ، وهو يختص بالذنوب التى يترتب عليها الحكم بذلك على مرتكبها ، ومايجب للتكفير عنها من قرابين . والقطع هو الخلع والطرد من الدين .

٨ - مِعِيلَه ومعناها التدنيس والتنجيس . ويختص بالذنوب المتعلقة بالتعدى على المقدسات أو تدنيسها ، حسب ما جاء فى اللاويين ١٥/٥ ، ١٦ .

٩ - تاميد ، ومعناها الدوام ، وهو خاص بالطقوس اليومية للقربان

فى المعبد فى الصباح والمساء [1] . حسب ما جاء فى الخروج ٣٨/١٩ - ٤١ والعدد ٢/٢٨ — ٨ .

١٠ - مِدُّوت ، ومعناها المقاييس والمعايير ، وهو خاص بالابعاد التقليدية للمعبد وتقسيمه المعمارى وما فيه من ساحات وبوابات وقاعات ، وما يلزمه من حراسة وخدمه كهنوتية .

١١ - قِنّيم ، وهى كلمة معناها أوكار الطيور . وهو فصل خاص بالضحية التى يقدمها الفقراء للسكهنة من الطيور والدواجن ، حسب سفر اللاويين ١٤/١ و ٧/٥ و ٨/١٢ .

و - كتاب طهارت [الطهارة]

ويحتوى على اثنى عشر فصلا هى :-

١ - كليم ، ومعناها الأوعية والأدوات ، وهو يختص بأحكام الأوعية والأدوات المنزلية والملابس ، والشرائع الخاصة بطهارتها ونجاستها .

٢ - أُوهَلُوت ، أى المساكن ، وفيه أحكام طهارتها ونجاستها أيضا .

٣ - نِجَاعيم ، والأصل فى معناها أنها اللمس والمس بأنواعه . وفيه أحكام مرض الجُذام والمصابين به وملابسهم ونحو ذلك ، حسب اللاويين ١٣ و ١٤ .

٤ - بَاره [2] ، ومعناها البقرة ، وهى الأحكام الخاصة بالبقرة الحمراء ، التى يضحى بها وتحرق ويستعمل رمادها فى التطهير من النجاسة أو

---

(١) وأهم ما فى ذلك تقديم ذبيحة فى الصباح وأخرى فى المساء ، وإحراقها على المذبح ، وتسمى هذه الذبيحة : المحرقة أو الصعيدة .

(٢) باء تنطق (p) ثقيلة .

الدنس ، (وهى التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة البقـــرة) حسب سفر العدد ١٩ .

٥ - طَهَرُوتْ ، أى التطهير ، وهو يختص ببعض النجاسات الصغيرة التى تدوم مدة نهـار واحد على الأكـــثر ، حسب سفر اللاويين ١٩/٢٤ - ٢٨ .

٦ - مِقْواؤوت ، أى الآبار ، ويتنـاول أحكام الميـاه فى الآبار والمستودعات ، من حيث ما يحل منها وما يحرم فى الطهارة الدينية.

٧ - نِدّة ، وهى كلمة معناها « الحيض » ، وفيه أحكام النجاسة التى تطرأ على النساء فى بعض ظروفهن ، حسب اللاويين ١٥ / ١٩ - ٣١ ، ٨/١٢ - ٨ .

٨ - مَكْشيرين ، ومعناه الإعداد الدينى لبعض الحبوب والفواكه والثمار ، والشروط الواجبة لتجنب تنجيسها .

٩ - زابيم ، ومعناها النزيف بأنواعه ، ويتناول السوائل التى تنزف من بعض الناس فى حالات مرضية خاصة ، وما إليها من الإفرازات المختلفة ، وأحكام نجاستها .

١٠ - طِبُول يُومْ ، ومعناه الغطاس بالنهار ، ويتناول أحكام الاغتسال للطهارة أثناء النهار ، خصوصا لمن هو مطالب بالطهارة ابتداء من غروب الشمس فقط .

١١ - يَدَايِمْ ، أى الأيدى ، وأحكام طهارتها ونجاستها .

١٢ - عُوقْصين ، والكلمة معناها فضلات الثمار ، وهى الأعناق والألياف والقشور، من حيث طهارتها أو نجاستها فى الدين .

ملحقات المشنا

إلى جانب المشنا التى فرغنا الآن من تفصيل أقسامها ، والتى كُتِبَت كلها بعبرية متطورة بالنسبة لعبرية العهد القديم ، تسمى عند اليهود « لغة الأئمة » أو « لغة الحكماء » ، توجد نصوص متصلة بالمشنا وليست منها ، ومع ذلك فإن التلمود يذكرها ، وعلماء الشريعة اليهودية يرجعون كثيراً اليها ، وهى :

أ ـ التوسفتا ، ومعناها التذييل أو الزيادة أو الإضافة . وهى عمل تشريعى ملحق بالمشنا ومكمل لها .

وتحتوى التوسفتا على ستين فصلا تتضمن أربعمائة واثنتين وخمسين فقرة ، ويعزى كثير منها إلى أحبار اليهود الأولين المعاصرين للمشنا مثل عقيبا ومائير ، ونحميا ، كما توجد فيها نصوص ترجع إلى ما بعد الربى يهودا هناسىء حتى عصور كتابة التلمود . ويبدو أنها فى شكلها الحالى ترجع إلى القرن الخامس أو السادس الميلادى [١] .

ب ـ المخيلتا ، وهى كلمة آرامية معناها «المعيار» أو «المكيال» أو «الوعاء» . وهى تتضمن تسعة أبواب ، تعالج فيها أحكاما شرعية موجودة فى نص الكتاب المقدس . وتنسب إلى الربى إسماعيل ومدرسته . وكانت قد جمعت فى فلسطين ثم نقلت إلى العراق (بابل) حيث تنوعت تفاسيرها هناك . وهى بشكلها الذى نعرفه ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى .

---

(١) M. Mielziner ; op. Cit.

جـ - السفرا ، وهو نص يسمى أيضا « توراة الكهنة » وأسلوبه يختلف عن سابقيه بما يسوده من الجدل ، ويرد ذكره كثيراً فى التلمود . وهو ينسب فى الأغلب إلى الربى يهودا بن إيلاى، أحد تلاميذ عقيبا . ولكن دخلته إضافات مع مضى الزمن من علماء آخرين أشهرهم « أبا أريكا »[١] .

د - سفرى ، وهو كتاب فقهى يتناول شرح سفر العدد ابتداء من إصحاحه الخامس وكل سفر التثنية ، ففيما يتصل بالقسم الأول يحتوى على مائة وواحد وستين حكما ، وفى الثانى ثلثمائة وسبعة وخمسين حكما . ويقول التلمود أن الأجزاء غير المسندة إلى عالم معروف باسمه فى هذا الكتاب مروية عن الربى شمعون بن يوحاى أحد كبار تلاميذ عقيبا . (سنهدرين ٨٦/أ) .

هـ - البّرايتا ، ومعناها الكتاب البرانى أو الخارجى ، وهو يجمع شرائع من عهد التلمود ، يبدو أن بعضها كان يُروى من ضمن المشنا ، ولكن الحَبْر يهودا هناسىء رفضه ، فجمع ما بقى منه فى هذا الكتاب .

ونص المشنا يرجع بعضه إلى أيام المكابيين كما قلنا ، وهى الفترة التى يسميها مؤرخو الفكر اليهودى بعصر الكتبة (سوفريم) ويجعلونها تبدأ من عزرا مباشرة ، ويسمون طلائع هذا العصر : « رجال الكنيسة الكبرى» الذين يقال أن عددهم كان مائة وعشرين عضوا ، جمعهم لأول مرة

---

(١) سيرد فى موضعه من طبقات رواة الشرائع اليهودية .

شمعون الأول المكابى الملقب بالعادل (٣١٠ - ٢٩٢ ق م) ، أو حفيده شمعون الثانى (٢٢٠ - ٢ ٢ ق م) .

يلى عصر السوفريم أو الكتبة طور آخر من أطوار تكوين المشنا يسمونه حقبة الأزواج ، لأن علماء الشريعة اليهودية كانوا فى أثنائها يتعاقبون أثنين اثنين على النحو التالى :-

١ - يُستاى بن يُوعزر ويوساى بن يوحنان ، وعاشا فى أيام حروب المكابيين الأولى [١] .

٢ - يوشع بن فرحيا و نِتّاى الأربيلى ، وهما معاصران للمكابى يوحنا وهيرقانوس [٢] .

٣ - يهودا بن طبّاى وشمعون بن شطح ، وقد عاصرا الأمير المكابى اسكندر ياناى والملكة سالوى. [٣]

٤ - شمعيا و أبطاليون ، وقد عاشا فى عهد هيرقانوس الثانى [٤].

٥ - هليل و شمّاى ، من أيام الملك هيرودس [٥] .

تتوالى بعد ذلك طبقات فقهاء المشنا على أجيال تتلخص فيما يلى :-

أ - الطبقة الأولى ، وتمتد من سنة ١٠ إلى سنة ٨٠ ميلادية [٦] وتتردد فيها أسماء :

---

(١) أى فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد .

(٢) أى فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد

(٣) النصف الاخير من القرن الأول قبل الميلاد .

(٤) النصف الاخير من القرن الأول قبل الميلاد .

(٥) قبيل ميلاد المسيح أو فى نفس هذا الوقت تماما .

(٦) أى إلى تمام تخريب الهيكل اليهودى الثانى وتشريد اليهود فى أرجاء الأرض على يد الامبراطور الرومانى تيتوس ، سنة ٧٠ ميلادية.

١ - تلاميذ هليل وتلاميذ شماى .

٢ - عقبيا بن مهلليئيل .

٣ - الربى جمليئيل الكبير .

٤ - الربى حنانيا كبير الكهنة .

٥ - الربى شمعون بن جمالئيل .

٦ - يوحنان بن زكاى .

ب - الطبقة الثانية من « التنئيم » - أى رواة المشنا ، ٨٠ - ١٢٠ ميلادية :

١ - ربّان جمالئيل الثانى ، من مدرسة « يبنه » .

٢ - الربى صدوق .

٣ - الربى دوسا .

٤ - الربى إليعزر بن يعقوب .

٥ - الربى إليعزر بن هيرقانوس .

٦ - الربى يوشع بن حنانيا .

٧ - الربى إلعازار بن عزاريا .

٨ - الربى يهودا بن باثيرا .

جـ - الطبقة الثالثة من ١٢٠ إلى حوالى ١٣٩ ميلادية ، وفيها :

١ - الربى طرفون .

٢ - الربى إسماعيل .

٣ - الربى عقيبا .

٤ - الربى يوحنان بن نورى .

٥ - الربى يُوسَّاى الجليلى .

٦ - الربى شمعون بن نانُوس .

٧ - الربى يهودا بن بابا .

٨ - الربى يوحنان بن بروكا .

د - الطبقة الرابعة من ١٢٩ إلى حوالى ١٦٥ ميلادية ، ومعظمها من تلاميذ الربى عقيبا وفيها :

١ - الربى مئير .

٢ - الربى يهودا بن إيلاى .

٣ - الربى يوساى بن حلفتا .

٤ - الربى شمعون بن يوحاى .

٥ - الربى إلعازار بن شمُوع .

٦ - الربى يوحنا الإسكافى [1].

٧ - الربى إلعازار بن يعقوب .

٨ - الربى نحميا .

٩ - الربى يوشع بن قرحا .

١٠ - الربى شمعون بن جمالئيل .

هـ - الطبقة الخامسة من ١٦٥ إلى ١٠٠ ميلادية وأشهرها :

---

(١) الصندلار ، كما يسميه اليهود .

١ - الربى ناتان البابلى .

٢ - سيماخوس .

٣ - الربى يهودا هناسىء (الكبير) ، ويسمونه باختصار « رَبِّى » .

٤ - الربى يوساى بن يهودا .

٥ - الربى إلعازار بن شمعون .

٦ - الربى شمعون بن إلعازار .

و - الطبقة السادسة والاخيرة من (التنائيم) ومعظمهم من الشباب المعاصرين ليهودا هناسىء ومن تلاميذه ، وهم غير مذكورين فى المشنا ولكن أسماءهم ترد فى التوسفتا والبرايتا ، وأشهرهم :

١ - فليمنُون

٢ - ايسى بن يهودا .

٣ - الربى إلعازار بن يوساى .

٤ - إسماعيل بَرْ يوساى

٥ - يهودا بن لاكيش .

٦ - حيّـا .

٧ - آخـا .

٨ ابّا أريكا ، واشتهر باسمه المختصر « ابّا » فقط .

التلمـــود

عندما انتهى الربى يهودا هناسىء من تقييد نص المشنا فى صورته النهائية السالفة الذكر ، تركزت جهود العلماء اليهود على شرحهـــا فى مراكز تجمعهم التقليدية فى العراق ، حيث استمر تجمعهم هناك كجالية أجنبية ، منذ السبى البابلى . كما ظهر لهذا النص شراح فى فلسطين من فلول اليهود التى بقيت هناك بعد السبى ، أو بعد الأحداث الكثيرة التى توالت على فلسطين ، كما أن كثيراً من هؤلاء اليهود كانوا قد جاءوا إليها متسللين ، للحج أو الزيارة أو الإقامة ، بحسب الظروف .

وكانت مراكز البحث العلمى والدينى فى العراق موزعة على ثلاث نقط هى : نهر دعة ' فى إقليم ما بين النهرين بشمال العراق ، إلى الجنوب الشرقى من مدينة الرُّهَا ، وبلدة سُورة القريبة من بغداد فى إقلـــيم الجزيرة بوسط العراق ، ثم ظهرت أخيراً قاعدة ثالثة للنشاط اليهـودى التلمودى فى العراق بالقرب من سُورة ، فى مدينـــة عَانَة التى كانت تسمى قديما فومباديثا(١) .

أما فى فلسطين فكانت هناك مراكز ثلاثة أيضا ، فى شمـال البلاد هى : طبرية ، وقيسارية ، وزفورية ، أو سفورية وهو الاسم الدارج الآن للبلدة التى كانت على أيام اليونان تسمى « سفوريس » .

فى هاتين الناحيتين من الشرق الأوسط بدأت طبقات متعاقبة من

---

(١) Pumpaditha

أحبار اليهود تشرح نص المشنة ، شرحا مستفيضا ، تودع فى خلاله كل ما أرادت الاحتفاظ به وإشاعته بين اليهود من شرائع وفتاوى وحكايات وأساطير وخرافات وتفريعات واستطرادات ، فى كل علم وفـــن دون ترتيب أو تخطيط .

وهذا الشرح للمشنة كان يتم بلهجة يهودية بعيدة عن اللغة العـــبريه القديمة التى كتب بها العهد القديم ، وعن تلك اللغة العبرية الوسطى المتطورة التى كتبت بها المشنا . كان شراح المشنا الذين هم أحبار التلمود يشرحونها بلهجة أرامية يهودية قريبة من اللغة السريانية . وكان شرحهـــم يسمى « جمارا » بمعنى التكملة . كما أنهم يسمون فى تاريخ تطور الفكر اليهودى باسم خاص بهم هو « أموراثيم » ومعناها فى لغتهم « المتكلمون » أى الذين انطلقت ألسنتهم فى المدارس المختلفة السابقة الذكر شارحين ومعلقين وباسطين ، فى ما يشبه المحاضرات الشفوية ، التى ينصت إليها التلاميـذ ليصبحوا بدورهم ، عندما يصلون إلى النضج العلمى ، طبقة أخرى من الاموراثيم . وعلى ذلك فإن طبقـــات « الأموراثـيم » هى الاستمرار الدينى والفكرى فى ظل الجمارا لطبقات « التنائيم » فى ظل المشنا ، ومن نص المشنا - وهو عبرى كما قلنا - ونص الجمارا - وهو أرامى يهودى - يتكون ما يسمى بالتلمود .

وقد تبين لنا مما تقدم أنه منذ تقييد المشنا ، بدأ شرحها « الجمارا » فى بيئتين مختلفتين ومستقلتين هما فلسطين غربا والعراق شرقا . وقد أدى ذلك إلى ظهور تلمودين اثنين لا واحد : التلمود الغربى ، وهو الذى يسمى التلمود الأورشليمى ، تمسحا فى مدينـــة القدس وتبركا بهـا ، والتلمود

الشرق ، وهو الذى يسمى التلمود البابلى ، تذكاراً بقوة البحث الدينى فى العراق منذ السبى البابلى على أيام بختنصر ، ولأن العراق كانت منذ ذلك الوقت تسمى عند اليهود « بابل » .

وإذا كان التلمود البابلى يغطى بشرحه كل نص المشنا ، فإن التلمود الأورشليمى ظل ناقصا لا يشرح إلا بعض المشنا فقط . ثم إن أحبار اليهود فى بابل كانوا أيضا يحظون بثقة أرسخ من ناحية التبحر فى الفكر اليهودى مما كان يحظى به شراح فلسطين ، بحيث بقى التلمود البابلى بعد ذلك يتمتع بتقدير أعظم فى أعين اليهود من التلمود الغربى أو الأورشليمى .

وقد شرح التلمود الأورشليمى الثلاثة كتب الأولى من المشنا بتمامها : زراعيم ، وموعد ، وناشيم . كذلك شرح هذا التلمود الكتاب الرابع نزيقين - ما عدا الجزء السابع - عُدويوت أى الشهادات - والجزء التاسع آبوت أى الآباء .. ولم يشرح شيئا فى الجزأين الخامس والسادس . فيما عدا فصلا واحداً من الجزء السادس ، هو الخاص بأحكام الحيض عند النساء والذى يسمى نِدَّه ، (بكسر النون) .

إلى جانب ذلك نلاحظ أن طبقات الأموراتيم فى العراق « بابل » كانت أطول زمنا من طبقات الأموراتيم فى فلسطين . ففى بابل تغطى طبقاتهم المدة من سنة ٢١٩ ميلادية إلى سنة ٥٠٠ ميلادية ، فى حين أن طبقات الفلسطينيين لا تغطى إلا الفترة ما بين ٢١٩ ميلادية و ٣٠٩ ميلادية .

وسنذكر هذه الطبقات بترتيبها فيما يلى :

طبقات أحبار التلمود [الأموراييم] فى فلسطين

أ - الطبقة الأولى (٢١٩ - ٢٧٩).

١ - حنينا برحاما ، (ولد سنة ١٨٠ وتوفى سنة ٢٦٠ تقريبا).

٢ - يوحنا برنفاحا ، أى إبن النفاخ يعنى الحداد (١٩٩ - ٢٧٩ تقريبا).

٣ - شمعون بن لقيش ، وشهرته « ريش لقيش ».

٤ - يوشع بن ليفى ، وهو يكثر من القصص والأساطير فى شرحه ، من « اللدّ ».

ب - الطبقة الثانية (٢٨٩ - ٣٢٠).

١ - إلعازار بن فدات.

٢ - آمى ، وكان يعلم فى طبرية.

٣ - آسى ، وكان كسابقه يعلم فى طبرية.

٤ - حِيا (بكسر الحاء) بر أبا.

٥ - شمعون بر أبا ، ويعتقدون أنه أخو سابقه ، وكانا فقيرين جدا.

٦ - أباهو ، علم فى قيسارية ، وكان متبحرا فى علوم اليونان.

٧ - زيرا (أصل الاسم زعيرا ، أى الصغير أو القصير) وأصله من العراق.

جـ - الطبقة الثالثة والأخيرة فى فلسطين (٣٢٠ - ٣٥٩).

١ - إرميا ، تلميذ زيرا ، وأصله من العراق أيضا.

٢ - يُونا ، تتلمذ على سابقه.

٣ - يوساى بر زيدا ، علم بطبرية .

وبهذه الطبقة يقف شرح المشنا فى التلمود الأورشليمى .

طبقات احبار التلمود (الامورائيم) فى العراق (بابل)

أ - الطبقة الأولى (٢٠٩ - ١٥٧) .

١ - شيلا ، علم فى نهر دعة .

٢ - آبا أريكا ، المشهور بلقب « رب » ، علم فى سورة .

٣ - مارشموئيل ، علم فى نهر دعة .

٤ - مار عوقبا القاضى .

ب - الطبقة الثانية (٢٥٧ - ٣٢٠) .

١ - هونا (٢ ٢ - ٢٩٧) ، علم فى سورة وكان كثير التلاميذ جداً .

٢ - يهودا بن يحزقئيل ، اشتهر بالدقة وعلم فى فومبديثا ، وأخيراً رأس مدرسة سورة .

٣ - حسدا ، من رؤساء مدرسة سورة .

٤ - شيشت ، من نهر دعه ، انتقل بعد تدميرها إلى قرية شلهى .

٥ - نحمان بر يعقوب ، من نهر دعة

٦ - ربا بر ربه حنا .

٧ - عولا بن إسماعيل .

ج - الطبقه الثالثة (٣٢٠ - ٣٠٥) .

١ - ربا بر هونا ، فى سورة .

٢ - ربا بن نحمان (أو نحمانى ٢٧٠ - ٣٣٠) من فومبديثا .
٣ - يوسف بر حيا ، من فومبديثا .
٤ - أباى ، ويلقب بالنحمانى ، من فومبديثا .
٥ - ربا بن يوسف (٢٩٩ - ٣٥٢) علم فى قرية محوزة .
٦ - نحمان بن إسحق ، من فومبديثا .
٧ - بابا (بباءين ثقيلتين) بَرْ حَنَّان ، أسس مدرسة فى نارس بقرب سورة .

د - الطبقة الرابعة (٣٧٥ - ٤٢٧) .

١ - آشى ، من سورة .
٢ - أميار ، من نهر دعة .
٣ - زبيد برأوشعيا ، من فومبديثا .
٤ - ديمى بر حنينا ، وأصله من نهر دعة ، علم فى فومبديثا .
٥ - رفرام الكبير برباپا (بباءين ثقيلتين) ، من فومبديثا .
٦ - كاهنا بر تحليفا ، من فومبديثا .
٧ - مارزوطرا ، من فومبديثا .
٨ - يهودا (مناى) برشلوم .
٩ - إليعازار بن يوساى .
١٠ - يوساى بر أبين .

هـ - الطبقة الخامسة (٤٢٧ - ٤٦٨) .

١ - ماريمار ، من سورة ، وأصل اسمه مار يمار .
٢ - إيدى برأبين ، من سورة .

٣ - مار بر رب آشي ، من سورة .

٤ - رب آحا من سورة . وأصله من مواليد ديفتا .

٥ - رفرام الثاني ، من فرمبديثا .

٦ - رحومای ، من فومبديثا .

٧ - سما بر ربّا ، من فومبديثا .

و - الطبقة السادسة والأخيرة في بابل (٤٦٨ - ٥٠٠) .

١ - ربّا توسفيا ، من سورة .

٢ - ربينا بر حما ، من سورة .

٣ - يوساي ، من فومبديثا (١) .

---

(١) الاسماء التي ذكرناها هنا هي ألمع أسماء الأموورائيم ، أما القائمة الكاملة بكل من روى خبرا أو نقل أمرا في التلمود فموجودة في مراجع كثيرة أقربها دائرة المعارف العبرية (أوتسار يسرائيل) المجلد الثاني ، تحت لفظة [أمورائيم] . وقد اعتمدنا في تقسيماتنا واختيارنا على :

M. Mielziner; Introduction to the Talmud; New York 1925.
Z.H, Chajes; The Students Guide through the Talmud, London 1952. (English Translation by Jacob Shachter.)
L'Abbé L. Chiarini; Le Talmud de Babylone; Leipzic, 1831.

ملحقات التلمود

وإلى جانب نص التلمود ، الاورشليمي والبابلي ، في صورتها التي لخصناها ظهرت نصوص أخرى ، تنتمي إلى نفس الاسلوب تقريبا ، ولكنها لم تدخل في صميم هذا الكتاب وإنما بقيت خارجة عنه ، كأنما هي بالنسبة له نصوص برّانية أو « أوبوكريفا » . ومع ذلك فمعظم هذه النصوص ينشر على أنه ملحق بطبعات التلمود الشائعة . ومن ذلك :

١ ـ آبوت ، الربي ناثان . وقد سبق أن ذكرنا فصلا من فصول المشنا اسمه آبوت ، أو « فرق آبوت » ، أي الآباء أو وصايا الآباء ، وهو الفصل التاسع من القسم الرابع « نزيقين » ، أي الإصابات ، من المشنا . أما هذا التذييل التلمودي الذي نحن بصدده الآن فيعتبر توسيعا وتطويراً لما جاء في المشنا ، وترد فيه حكايات وقصص وأمثال كثيرة ، بحيث أصبح يتضمن واحدا وأربعين فصلا . ونسبته إلى الربي ناثان ـ من الطبقة الرابعة من أحبار المشنا ـ مشكوك فيها .

٢ ـ سوفريم . أي الكتبة ، وهو يتضمن الاحكام الشرعية لكتابة توراة موسى وسفر إستير ، اللذين يوضعان في كل معبد يهودي . كما يحتوي على أحكام نسخ « المسُّورت » وهي النسخة النهائية لنص العهد القديم . كذلك يذكر شرائع التلاوة الشرعية للسبت والأعيـــاد وأيام الصوم وباب « سوفريم » هذا يتألف من واحد وعشرين فصلا ، ذكر الربّي آشر في كتابه « هلكوت سفر توراه » أي « أحكام كتـــاب التوراة » أنه يرجع إلى العصر التالي للتلمود ، وهو عصر العلماء

« الجأونيم »[1].

٣ - إيبيل رَباتى . أى الأحكام الكبرى للحداد ويسمى بين اليهود على سبيل التخفيف من حدة اسمه كتاب « سِمَحُوت » أى الأفراح . وهو فى أربعة عشر فصلا تعالج التقاليد الخاصة بالجنازة والحزن على الميت . وهذا الموضوع مبحوث فى التلمود (موعد قاطان ٢٠/أ ، ٢٦/أ ، وكتوبوت ٢٨/أ) ، وهـــذا النص الإضافى متأخر عن عصر التلمود .

٤ - كالة . أى العروس ، وهو فصل واحد يفصل بعض القوانين الأخلاقية الخاصة بالزواج .

٥ - ديرخ إيرص . أى السلوك فى الدنيا ، وهو أحد عشر فصلا ، أولها يحدد أنواع الزواج المحرمة ، وباقيها تعاليم أخلاقية واجتماعية ودينية.

٦ - ديرخ إيرص زوطا . أى مختصر السلوك فى الدنيا ، وفيه قواعد ونصائح وحكم أخلاقية تملأ عشرة فصول .

٧ - فِرِق هَشّالوم أى الفصل الخاص بالسلام ، وهو فصل واحد يعالج كاتبه أهمية المسالمة فى الحياة .

٨ - إلى جانب السبعة فصول السابقة ، التى ترد فى آخر التلمود تحت عنوان عام هو « مسخْتُوت قطنّوت » أى الأبواب الصغيرة ، عثر الباحثون على سبعة أبواب أخرى من نفس القبيل ، يحتوى عليها

---

(١) نفس المصادر السابقه وبخاصة ميلتسينر.

مخطوط قديم التلمود ، ونشرته ربانين كثيرا بلم في فرانكفورت سنة ١٨٥١ .

وقد كثرت الشروح والحواشي على المشنا والجمارا ، وأقبل عليها اليهود باهتمام يفوق إقبالهم على التوراة نفسها في كثير من الأحيان ، وأهم تلك الشروح والحواشي يرجع إلى العصر الإسلامي . ومن أمثلة ذلك شرح الربي حنانئيل القيرواني الذي عاش في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، وشرح الربي سليمان الإسحاق (رشي) الذي عاش في « تروا » بجنوب فرنسا (١٠٤٠ - ١١٠٥ م) .

وكذلك كثرت المقدمات المؤلفة لمساعدة دارسي التلمود وأهمها ما كتبه الربي اسحق الفاسي المتوفى في الأندلس سنة ١١٠٣ ميلادية بعنوان « هالخوت » أي قواعد وأحكام . وكتب الربي آشر بن يحييل ، وهو ألماني الأصل توفي في طليطلة ، بالأندلس العربية ، سنة ١٣٢٧ ، مقدمة لدراسة التلمود على غرار سابقه .

وقام كثير من علماء اليهود بمحاولات لإعادة ترتيب التلمود ، واستخلاص الأحكام الشرعية الضرورية منه ، وتنقيتها مما يتخللها من استطرادات وحكايات وأساطير ، ومن أهمهم :

موسى بن ميمون الذي عاش في الأندلس والمغرب ثم في القاهرة حيث كان طبيبا للأسرة السلطانية الأيوبية في القرن الثاني عشر الميلادي . وقد ألف كتابا لعله أهم ما ظهر في تاريخ اليهود خاصا بالفقه الإسرائيلي وسماه « مشنى توراه » أي إعادة الشريعة ، وقسمه إلى أربعة عشر

جزءا ، صاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة بأسلوب عبرى سهل واضح دقيق . وقد أسمى كتابه باسم « يد » لأن الياء تساوى عشرة والدال أربعة فى حساب الجُمَّل - مما يرمز إلى الأربعة عشر جزءا التى يتألف الكتاب منها . ثم ذاع صيته بعد هذا باسم « يد حزاقة » أى « اليد القوية » ، والتوراة تستعمل هذا التعبير لوصف قوة الله فى تخليص العبريين من فرعون . وكأن الرأى العام اليهودى أراد ، عن طريق هذا التلاعب بالألفاظ ، المبالغة فى تكريم كتاب موسى بن ميمون .

يعقوب بن أشير بن يحيئيل ، وله كتاب مشهور جدا فى نفس الموضوع إسمه « طوريم » أى السطور أو الصفوف أو النظم . والمؤلف عاش بالأندلس فى القرن الرابع عشر .

الربى يُوسف كارو ، وهو إيطالى عاش فى القرن السادس عشر . وقد انتفع بالكتابين السابقين ، وألف كتابه المشهور باسم « شُولحان عاروخ » أى المائدة المرتبة ، وهو كتاب يحتوى على شرائع التلمود مرتبة ترتيبا أدق من سابقيه مع الاختصار ، وسهولة العثور على الشرائع والأحكام ، ولذلك انتشر جداً ، وكثرت طبعاته وشروحه ، وترجم إلى كثير من اللغات .

وحظيت الأساطير الواردة فى التلمود بعناية فى عزلها وترتيبها فى مجاميع خاصة ، واشتهر فى ذلك :

يعقوب بن حبيب الذى عاش فى النصف الاول من القرن السادس عشر . وجمع القصص والأساطير والامثال التلمودية فى كتاب سماه

(عين يعقوب) أى منبع يعقوب ، وقد سماه اليهود (عين إسرائيل) من باب التكريم .

وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر ... قام صموئيل يافيه بجمع القسم الأسطورى من التلمود الغربى (الاورشليمى) وشرحه شرحا مستفيضا بعنوان « يافيه مرأيه » أى الجميل المنظر [١] .

وقد طبع التلمود طبعات كثيرة أهمها :

الطبعة الأولى الكاملة للتلمود البابلى التى ظهرت فى البندقية فى اثنى عشر مجلدا من القطع الكبير من ١٥٢ إلى ١٥٢٣ وأشرف على نشرها دانيال بومبرج . وتحتوى هوامش هذه الطبعة على أشهر شروح التلمود التى أشرنا إليها ، وقد حذت حذوها الطبعات الشهيرة التى ظهرت بعدها فى البندقية وفى بال بسويسرا وفى كراكوف ، ولوبلين وأمستردام ، وفرانكفورت على الأودر ، وبرلين ، وفرانكفورت على الماين ، وزولتسباخ ، وديهرنفورت ، وبراغ ، ووارسو ، وفينا ، وفيلنا . وقد اجتهد بعض الناشرين فى تزويد هذه الطبعات بهوامش وشروح جديدة .

ولكن معظم هذه الطبعات منذ طبعة بال السويسرية إلى الآن قد امتدت إليها أيدى التحريف ، تحت اسم الرقابة الدينية . فأزالت نصوصا وغيرت كلمات خوفا من أن يعتبرها الرأى العام المسيحى فى أوربا اعتداء على مقدساته يقول الحاخام الأكبر موسى ميلتسينر [٢] إن

(١) فى هذا العنوان تورية ، فهو يعنى أيضا : يافيه - أى المؤلف - يبين ويظهر

(٢) المرجع السالف الذكر ، ص ٧٩ .

من الكلمات التي أزيلت ووضع غيرها في طبعات التلمود هذه ، الكلمات التالية :

[جوى] التي معناها شخص لا ينتمي إلى بني اسرائيل ، أحد أبناء الأمم الأخرى ، المحتقرة لأنها ليست من شعب الله المختار ، وقد أثبتوا بدل هذه الكلمة لفظة [كوتى] أي سامري ، أو [كوشى] أي زنجي أو حبشي .

[مين] التي معناها كافر ، وضع بدلها [صدوقى] أي ينتمي إلى طائفة اليهود الصدوقيين الذين يعتبرهم اليهود التلموديون من الزنادقة ، واستعملوا بدلا منها أحيانا كلمة [أبيقورى] أي أتبـــاع الفيلسوف اليوناني أبيقور ، الذي شاع عنه وعن تلاميذه عدم التقيد بالقانون أو الأخلاق ، ووصفوا الصدوقيين بالابيقورية أحيانا .

[نكرى] بمعنى أجنبي أو غريب ، محتقر من اليهود ، استعملوا بدلها حروف الاختصار [عكوم] وهي اختصار عبارة « عوبيد كوكبيم ومزلوت » أي عابد كواكب ومنازل أو بروج ، ويعنون به الكافر .

[أوموت هاعولام] يعني أمم ، العالم ، الشعوب غير اليهودية ، وهي عندهم حقيرة بالطبع ، ويختصرون هذه العبارة بالحروف [اوه] ، وقد استعملوا بدلها لفظة [بابليم] أي البابليين ، أو [كنعانيم] أي الكنعانيين .

[روماى] يعني روماني ، استعملوا بدلها [أراماى] أي آرامي أو سوري ، وكذلك [فارساى] أي فارسي أو إيراني أو مجوسي .

(رومي) أى مدينة روما ، وقد استعملوا بدلها (المدينة) .

ومع ذلك فبعض الطبعات التى ظهرت فى العصر الحديث تخلصت من كثير من هذا التحريف وعادت إلى طبع النص الأصلى .

أما التلمود الغربى أو الأورشليمى فقد نشره دانيال بومبرج أيضا فى البندقية ١٥٢٣ - ١٥٢٤ فى مجلد واحد ضخم ، بدون أية شروح .

وفى ١٦٠٩ ظهرت طبعة أخرى له فى كراكوف معها شرح قصير على الهامش .

وظهرت طبعة كروتشين سنة ١٨٦٦ ، مع شرح قصير ، وحواش تشير إلى المواضع المماثلة فى التلمود البابلى ، كما تصحح بعض القراءات .

وأكثر طبعات التلمود الأورشليمى شروحا وتعليقات ، وأوسعها شهرة الطبعة التى ظهرت فى شيتومير ، من سنة ١٨٦٠ إلى ١٨٦٧م .

الفصل الثانى

أصول العقيدة اليهودية

عاش اليهود فكريا وروحيا فى داخل هذا المجموع من النصوص المقدسة : العهد القديم ، والشريعة الشفوية أو المشنا ، ثم التلمود . وكان تفكيرهم فى الغيبيـــات بعد أن تعرضوا للسبى البابلى ، ثم للتشتيت فى الأرض على أيدى الرومان ، يتخذ اتجاهين محددين هما :

(١) نهاية العالم (٢) الخلاص على يد المسيح المنتظر .

والقارىء لأسفار الأنبياء فى العهد القديم يلاحظ أنهم كانوا يركزون اهتمامهم على مسألتين كبيرتين ، كما يقول الأستـــاذ الفرنسى شارل جينيبير هما :

(أ) أن الدنيا تبدو بعيدة عن الكمال بالمقارنة بما كان الله قد طالبنا به . وهذا يقتضى أن يحدث تنسيق بقدر الإمكان بين نقص الدنيا ومتطلبات الرب . ولن يكون هذا إلا بأن يُنزل الرب عقابا صارما على كل الذين تركوا سواء السبيل .

(ب) أن الله قد اختار إسرائيل شعبا له ومع ذلك فإن هذا الشعب المختـــار لم يكن دائما من حيث الاستقامة والهداية على مستوى المسئولية التى يلقيها عليه هذا الاختيار . وبالتالى فإنه لم يفلح فى

السيطرة على شعوب الأرض جميعا كما كان متوقعا ، بل كثيرا ما حدث العكس فاضطهدته شعوب الأرض جميعا . فكيف إذن يمكن أن يدوم هذا الوضع بالرغم من الوعود التى وعدها الرب لإبراهيم ويعقوب وموسى ؟ وهل من المعقول تصور أن الله لاينجز وعده؟ لا ، فإن النبي ميخا (٢٠/٧) يقول مخاطبا الرب: ستجعل الوفاء ليعقوب ، والرحمة لابراهيم ، كما أقسمت لآبائنا من أيام القدم .

وبالرغم من كل ما يبدو فى العالم من دنس ، وما يبدو من شعب الله المختار من إصرار على التفريط فى عهده مع الرب ، فإن الرب أخيرا سيكون له مع الدنيا يوم عظيم ، يذكره النبي عاموس فى القرن الثامن الميلادى للمرة الأولى بقوله : « ويل للمتمنّين يوم الرب . لِمَ ذاك ؟ إن يوم الرب لكم ظلمة لا نور . كما إذا هرب إنسان من وجه الأسد فلقيه الدب ، أودخل البيت وأسند يده إلى الحائط فلسعته حية. أليس يوم الرب ظلمة لا نورا ؟ بل هُوَ دَيجُور لا ضياء له . » (عاموس ١٨/٥ - ٢٠).

ويبدو من فحوى هذا الكلام أن عاموس لم يخترع عبارة « يوم الرب » ولا الفكرة الكامنة فيها ، بل وجدها عقيدة شائعة بين قومه ، وفى عصره ، ولم يزد على أن نقلها منسوبة إلى أصحابها . ويقول جينيبير إنه يبدو أيضا من هذه العبارة أن اليهود على عهد عاموس كانوا قد خلطوا بكثير من الحيلة والدهاء ، قضيتهم بقضية الله . فهم ينتظرون يوم الرب ليحمل لهم انتصار شعب الله المختار على الأمم الأخرى التى

ستكون قد دانت لهم بالخضوع . أما عاموس نفسه فواضح أنه يرى أن يوم الرب سوف يمتاز بانتصار العدالة الإلهية التي سيرتعد منها الشعب الإسرائيلي نفسه رعبا بسبب مااقترفه من جرائم وآثام (١)

وتبقى هذه الازدواجية حول مفهوم يوم الرب لدى الأنبياء الذين أتوا بعد عاموس . فالنبي إشعيا يقول مثلا (١٣ / ٦ - ٩) : ولولوا فإن يوم الرب قريب ، قادم من لدن القدير قدوم اجتياح . لذلك تسترخي كل يد ويذوب كل قلب لإنسان ، فيفزعون ويأخذهم الطلق والمخاض ويتضوّرون كالتي تلد ، ويحملق بعضهم إلى بعض ووجوههم مثل اللهيب . هو ذا يوم الرب قد حضر ، يوم قاس فيه سخط وغضب مضطرم ، ليجعل الأرض خرابا ، ويبيد منها مذنبيها .

ويرى نفس هذا الباحث الفرنسي (٢) أن « يوم الرب » بالمعنى الذي قصده الأنبياء ، معنى التهديد والوعيد والانتقام من العصاة وفي مقدمتهم الشعب الإسرائيلي نفسه ، هذا اليوم كان موضع تهكم وسخرية من الكثيرين ، وكانوا يرون أنه بعيد جداً ، وأطلقوا عليه لتأكيد هذا البعد الاسم العبري « أحَرِيت° هَيَّاميم° » التي معناها « آخرة الأيام » أو « الآخرة » أو « اليوم الآخر » ، وهو يوم لم تذكر التوراة عنه شيئا ، لا على عهد موسى ولا عهد القضاة ، على الأقل في النص الموجود بين أيدينا . وكأن اليهود بإطلاقهم اسم « آخرة الأيام » ،

---

(١) Ch. Guignebert ; Le Monde Juif vers le temps de Jésus. Paris 1950; Chapitre IV - pp. 162 ss.

(٢) نفس المرجع .

أو نحـــو ذلك ، لم يكونوا على أدنى شبه بما استعمله المسيحيون أو المسلمون ، الذين يؤمنون بالآخرة ، وبأنها قريبة جدا ، فاليهـــود يسخرون كما قلنا من بعدها مما اضطر نبيهم حزقيال (١٢ / ٢١ وما بعدها) إلى مهاجمتهم بسبب ذلك فى قـــوله : وكان إلىّ كلام الرب قائلا ، ياابن آدم ، ما هذا المثل السائر بينكم على أرض إسرائيل إذ تقولون ، ستطول الأيام ، وتخيب كل رؤيا . لذلك قل لهم ، هكذا قال السيد الرب ، إنى مبطل هـذا المثل فلا يعودون يتمثلون به فى إسرائيل ، بل قل لهم قد اقتربت الأيام ، وكلام كل رؤيا . لأنه لن تكون من بعد رؤيا باطلة ، ولا عرافة متملقة فى وسط بنى إسرائيل . لأنى أنا الرب أتكلم ، والكلمة التى أتكلم بها تتم ولا تؤخر من بعد ، بل فى أيامكم يا أيها الجنس المتمرّد ، أتكلم بالكلمة وأتممها ، يقـول السيد الرب .

وتأتى فـكرة انتظار المخلص ، أو المسيح ، مقترنة بفـكرة تجـديد العهد مع الرب ، أو فـكرة « العهد الجديد » عندئذ تتجدد أمّة الله ، لتصبح جديرة بالله . وعندئذ تصير أورشليم مدينة لا مثيل لهــا بين المدائن ، يقيم فيهـا الرب على جبل صهيون ، وتتجمع فيها المشردون من بنى إسرائيل ، وتزول فيها الأحقاد ، بل يموت فيها الموت نفسه وفى وسط هذه الآمال المركزة على إسرائيل لا ينسى مبشروا تلك البشارات أن يجعـــلوا فيها نصيبا ما للإنسانية من غير بنى إسرائيل . يقـول النبى إشعيا مثلا (٢٥ / ٦ ـ ١٠) : وفى هذا الجبل سيصنع

رب الجنود لكل الشعوب وليمة من المُسَمَّنات ، ومأدبة من المسمنات الدسمة مع النبيذ الصِرْف المروّق ، وفى هذا الجبل سيزيل رقعة الغطاء المغطى جميع الشعوب ، والحجاب الحاجب لكل الأمم . وسيبيد الموت إلى الأبد ، ويمسح السيد الرب الدموع عن جميع الوجوه ، ويزيل عار شعبه عن كل الأرض ، لأن الرب قد تكلم . فيقال فى ذلك اليوم ، هو ذا إلهنا الذى انتظرناه ، نبتهج ونفرح بتخليصه .

ويكاد المعلقون على أمثال تلك النصوص يتفقون على أمر واحد ، هو أن مبعثها إنما كان تعصبا قوميا ضيق الأفق ، شديد الحقد ، وتعلقا بفكرة الحق الإلهى فى السلطة « الثيوقراطية » الشديدة الغيرة ، وتعطشا لمغانم ماديّة ضخمة . كل ذلك ينبثق من حضيض الخوف والدمار ليخلق صورة ساحرة تداعب عواطف هؤلاء الموتورين .

وكما أن فكرة الآخرة لاتبدو كما قلنـــا من خلال أسفار التوراة الموسوية الخمسة بحالتها المعروفة ، فإننا لانكاد نجد شيئا يشعر بفكرة انتظار المسيح المخلص كذلك . ولكن الباحثين ، واليهود منهم بوجه خاص ، تأولوا ذلك من خلال آيتين ، فى كل التوراة ، مع كثير من التكلف والتعسف . فالآية الأولى (تكوين ٤٩ / ١٠) تقـــول : « لايزول صولجان من يهوذا ، ومشترع من سلالته حتى يأتى (شيلو) وتطيعه الشعوب » . ونحن نسأل مع مع الباحثين فى نص العهد القديم : من هو شيلو ؟ الواقع أنه لايوجد لهذا السؤال جواب شاف . فقد حرص بعضهم على أن يذكره كما هو دون تعليق . واعتبره بعضهم تحريفا من الناسخ ، وحاول أن يصحح هـــذا التحريف برأيه فمثلا نجد سعديا

الفيومى (١) من خلال ترجمته العربية يبدو أنه قرأ (شِلُو) وهى بالعبرية معناها (الذى له ، الذى ينتمى اليه ، صاحبه) ولذلك يقول فى ترجمته العربية : ولايزول القضيب من آل يهوذا ، والراسم من تحت أمره إلى أن يجىء (الذى هو له) ، وإليه تجتمع الشعوب . والفرنسى جنيبير (٢) يرى وجها آخر فى تصحيح هذا التحريف ، فيقرأ (موشلو) بدلا من (شيلو) ومعناها « حاكه ، والمسيطر عليه » . والترجمة الرسمية للحاخامية اليهودية بفرنسا (٣) تقرأ (شَالِيُو) ومعناها « المسالم ، المتمسك بالهدوء والسكون » وكلها كما نرى افتراضات حول نص غامض لاسبيل إلى الوصول لوجه الحق فيه ومع ذلك فإنه بعد كل مايمكن تصوره من تعديل أو تصحيح ، لايمكن أن ينطبق على المخلّص والمسيح بحال من الأحوال ، فالمسألة كلها لاتعدو أن تكون حديثا عن سبط يهوذا الذى ينتمى إليه داود وسليمان وأسرتها الملكية ، الوحيدة فى التاريخ اليهودى ، التى كان لها صولجان ولديها حق التشريع فى فترة ما ، مما يرجح معه رجوع هذه الآية ، بل كل الفصل الذى وردت فيه إلى مابعد قيام مُلك داود ، بالرغم من نسبتها هنا إلى موسى . وهذا هو رأى « دريفر » إذ يقول (٤) : إن الإصحاح ٤٩ سفر التكوين الذى

---

(١) سعديا بن يوسف الفيومى : تفسير التوراة بالعربية ،
أخرجه وصححه وبينه بحواش بالعبرانية يوسف درنبورج ـ باريس ١٨٩٣ ص ٧٧
(٢) المرجع المذكور له سابقا ، ص ١٧١ حاشية رقم (٥) .
(٣) La Bible, traduite du texte original par les membres du Rabbinat Français . Tome I p. 63 - Paris, 1900.
(٤) S.R. Driver, D D ; An Introdaction to the Literature of the Old Testament; gth edition 1929 - Edinburgh ; p. 19.

يبارك فيه يعقوب الأسباط ، هو بطبيعة الحال مقحم على يد كاتب من المدرسة اليهودية (اليَهْوِية) أخذه من مصدر مستقل . فالملابسات التاريخية والجغرافية التى تشع منه ، هى نفس الملابسات المعروفة فى عصر القضاة وصمويل وداود ، وهو العصر الذى أخذت فيه عادة بركة شيخ القبيلة شكلها الشعرى الذى نراه هنا . والمؤلف البريطانى يوافق فى ذلك الألمانى دلمان ، ويتفق معهما فى نفس الرأى العلّامة السويسرى لوسيان جوتييه وغيره .

أما الآية الثانية التى وجدها بعض الباحثين فى توراة موسى وتوهموا أنهم عثروا فيها على المخلّص المسيح المنتظر فتقول (العدد ١٧/٢٤) : إنى أراه وليس حاضرا ، أبصره وليس قريبا ، يبرز كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل ، فيحطم طرفى مؤاب ، ويخسف كل أبناء الغرور .

والآية تنطوى على غموض لايقل عن سابقتها . فالترجمة التى أثبتناها هى مافهمته منها الحاخامية الفرنسية . أما الترجمة العربية الكاثوليكية فتثبت بدل المقطع الأخير « ويريح جميع بنى شيت » . على حين أن الترجمة العربية البروتستنتية تقول « ويهلك كل بنى الوغى » . ويترجمها سعديا الفيومى بقوله « ويزلزل سائر بنى شيت » . ومهما يكن من شىء فان هذا الموصوف هنا يبدو جبّار حرب ، منتقما شديد البطش ، بعيدا عما يقترن بفكرة المسيح المنتظر من الوئام والسلام . ومع ذلك فلابد لنا من القول بأن فكرة المسيح المنتظر قد أخذت فى عقلية اليهود ، بحسب العصور والظروف التى عاشوا فيها أشكالا مختلفة جدا ، كل جيل

منهم صنع مسيحه حسب هواه ، وطبقا للصورة الخيالية الوجدانية التى يحلم بأن يكون عليها هذا المسيح .

والذى يهمنا هنا هو الإشارة إلى تعلق اليهود بفكرة الخلاص ، والبناء الفكرى المعقد الذى ارتبط بهذا الأمل والذى أصبح عالما حافلا بحكايات كثيرة ترتبط به وشخصيات لعل أعظمها وأشهرها وأشدهـــا ارتباطا بما يراه اليهود فى المسيح هى شخصية النبى إلياس ، الذى يسميه اليهود « إيليا التشبى » أو « إلياهو النبى » .

ووصفه فى العهد القديم بالتشبى هو نسبة إلى موضع غامض قد يكون من أرض جلعاد ، التى هى بادية الشـــام . أما نسبه فى بنى إسرائيل ففيه خلاف كبير ، فبعض أحبار اليهود نسبوه إلى سبط جاد ، وآخرون إلى سبط بنيامين ، بل قيل أيضا إنه من الكهنة ، أى من سبط ليفى الذى ينسب إليه موسى وهارون .

وأخبار معجزات هذا النبى كثيرة فى العهد القديم نفسه ، حيث كان معاصرا للملك آخاب ، سابع ملوك دولة إسرائيل المنشقة فى شمال فلسطين ، التى كانت عاصمتها السامرة فى إقليم نابلس . جاء فى سفر الملوك الأول ١٦/٢٩ - ٣٣ :

« وآخاب بن عمرى ملك على إسرائيل فى السنة الثامنة والثلاثين لآسا ملك يهوذا ، وملك آخاب بن عمرى على إسرائيل فى السامرة إثنتين وعشرين سنة . وعمل آخاب بن عمرى الشر أمام عينى الرب أكثر من الذين قبله ، وكأنه كان أمرا هينا أن يسلك خطايا يربعام بن نباط ،

حتى اتخذ إيزابيلا ابنة إتُويَعْل ملك صيدا زوجة ، وسار وعبد البعل وسجد له ، وأقام مذبحا للبعل فى معبد البعل الذى بناه فى السامرة . وعمل آخاب أوثانا من الخشب ، وأمعن آخاب فى إغضـــاب الرب إله إسرائيل الذين كانوا قبله . » كان ذلك حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد .

ويبدو من حديث العهد القديم عن النبي إلياس أن هذا الرجل أخذته الغيرة على الدين والأخلاق أمام الانحلال والفساد والكفر التى تفشت فى إسرائيل ، ممثلة فى الملك نفسه ، فقام ينادى بالإصلاح . وأقسم لآخاب بالله رب إسرائيل أنه لن ينزل مطر من السماء إلا بناء على قوله هو (الملوك الأول ١٧/١) . والظاهر أن آخاب وقف منه موقفا عنيفا جدا حتى خاف على نفسه ، إذ تقول القصة إن كلام الرب جاءه قائلا : « انطلق من هنا ، واتجه نحو الشرق ، واختبىء عند نهر كريت الذى فى مواجهة الأردن ، فتشرب من النهر ، وقد أمرْتُ الغربان أن «تعولك هناك ... وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحا وبخبز ولحم وكان يشرب من النهر » .

ثم تأتى قصته مع إمرأة أرملة تعيش هى وابنها فى « صرفة » وهى إحدى قرى الشمال التى تسيطر عليها صيدا . كان ذلك فى زمن قحط ومجاعة ، وكان كل مافى بيت المرأة من الدقيق والزيت لايكاد يكفى لصنع فطيرة واحدة . فطلب منها إيليا أن تصنع له فطيرة صغيرة وتصنع الباقى لها ولإبنها . وظلت تصنع الفطائر لها ولأهلها جميعا طيلة زمن المجاعة فلا يفرغ الدقيق ولاينقص كوز الزيت .

وفى أثنـــاء ذلك مرض ابن الأرملة ومات ، فأخذه من حضنها ،

وصعد به العلية التى كان يقيم بها وأرقدة على سريره ، وصـــرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهى ، أكذلك قد أسأت إلى الأرملة التى أنا عندها بإماتتك إبنها ؟ ثم تمدد على الولد ثلاث مرات ، وصرخ إلىالرب وقال . يارب ، إلهى ، لترجع نفس هذا الولد لجوفه . فسمع الرب لصوت إيليا ، ورجعت نفس الولد إلى جوفه ، فعاد إلى الحياة . فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه . وقال إيليـــا أنظرى ، إبنك حى . فقالت المرأة لإيليا : الآن علمت أنك رجل الله، وأن كلام الرب فى فمك حق

وبعد هذه الخوارق والمعجزات التى قام بها إيليا التشبى أثناء اختفائه من بطش آخاب ، حان الوقت الذى يتحدى فيه هذا الملك الظالم .

فجاء إلى السامرة وكانت المجاعة فيها قد اشتدت جداً وانقطع نزول المطر وهلك الناس والدواب . وكان الموظف الذى يدير القصـر يسمى « عوبادبا » وهو رجل صالح متـــدين لايشارك أخاب فى آرائه ولا فى جرائمه فقابله إيليا وقال له : إذهب وقل لسيدك إن إيليا هنـــا . فلما رآه أخاب قال له : أأنت ذلك الشخص المزعج لإسرائيل ؟ فقال : أنا لم أزعج إسرائيل ، بل أنت وبيت أبيك بترككـــم وصايا الرب وسيركم وراء الأصنام . « والآن أرسل فأجمع إلى كل إسرائيـــل على جبل الكرمل ، وكذلك أنبياء البعل الأربعمائة والخمسين ، وأنبيـــاء الأثان الخشبية الأربعمائة الذين يأكلون من مائدة إيزابيلا ... فتقـدم إيليا إلى جميع الشعب وقال لهم : إلى متى تعرُجون بين الفرقتين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه ، وإن كان البعل فاتبعوه . فلم يجب الشعب

بكلمة . فقال إيليا للشعب : لقد بقيت الآن وحدى نبيا للرب ، وهؤلاء أنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلا . فليؤت لنا بثورين ، فيختاروا لهم ثوراً ثم يقطعونه ويجعلوه على الحطب ، ولا يضعوا نارا . وأنا أيضا أهيء الثور الآخر وأجعله على الحطب ولا أضع نارا . ثم تدعون أنتم باسم آلهتكم ، وأنا أدعو باسم الرب ، والذى يجيب بنار فهو الإله. فأجاب جميع الشعب قائلين : هذا كلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل: اختاروا لكم ثوراً وافعلوا أولا ، لأنكم كثيرون ، وادعوا باسم آلهتكم ، ولكن لاتضعوا نارا . فأخذوا الثور الذى أعطاهم ، وقربوا ، ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر ، وهم يقولون : يابعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذى صنعوه . فلما كان الظهر سخر منهم إيليا وقال : اصرخوا بصوت أعلى فإنه إله ، ولعله فى محادثة أو خلوة أو فى سفر ، أو لعله نائم فيستيقظ . فكانوا يصرخون بصوت عال وقد تجرحوا بالسيوف والرماح حسب طقوسهم حتى سالت دماؤهم . فلما فات الظهر وهم يتنبأون إلى حين إصعاد التقدمة ، وليس صوت ولا مجيب ولا مصغ ، قال إيليا لجميع الشعب ادنوا منى فدنا جميع الشعب منه . فرمم مذبح الرب المتهدم ، ثم أخذ إيليا اثنى عشر حجرا ، بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب إليه قائلا يكون إسمك إسرائيل . وبنى تلك الحجارة مذبحاً باسم الرب، وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من الحب . ثم صفف الحطب ، وقطع الثور ووضعه على الحطب ، وقال املأوا أربع جرار ماء ، وصبوا على المحرقة وعلى الحطب . ثم قال ثنوا فثنوا . ثم قال : ثلثوا ، فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح دائرا وامتلأت القناة أيضا

بالماء . فلما حان إصعاد التقدمة تقدم إيليا النبي وقال : يارب ، يا إله ابراهيم وإسحق وإسرائيل ، ليعلم اليوم أنك إله في اسرائيل ، وأني عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبني يارب . استجبني ، ليعلم هذا الشعب أنك يارب أنت الإله ، وأنك أنت رددت قلوبهم إلى رجعة فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ، حتى لحست الماء الذي في القناة . فلما رأى ذلك جميع الشعب خروا على وجوههم قائلين : الرب هو الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا : اقبضوا على أنبياء البعل ، ولا يفلت منهم أحد . فقبضوا عليهم . فأنزلهم إيليا إلى نهر قيشون ، وهناك ذبحهم (١) .

وتتوالى معجزات هذا النبي فهو ينزل المطر من السماء ، ويسيّر السحاب ، ولكنه مع ذلك يخشى من انتقام أخاب فيهرب جنوبا نحو أرض يهوذا ، حتى يصل إلى بئر سبع . وأدركه الجوع فاضطجع في في البرية ينتظر الموت ، وإذا بواحد من الملائكة قد جاء فلمسه وقال له : قم فكل . فالتفت فوجد عند رأسه رغيفاً وجرة ماء ، فأكل وشرب ثم اضطجع فجاءه ملك الرب مرة أخرى ولمسه وقال : قم فكل ، فإن الطريق أمامك بعيدة . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين يوما وأربعين ليلة ، إلى جبل الله حوريب ، وهو الجبل الذي سمع فيه موسى صوت الله . وبات في مغارة هناك ، فجاءه كلام الرب يقول . ما بالك ههنا يا إيليا . فقال إني ثرت ثورة للرب إله الجنود ، لأن بني اسرائيل قد نبذوا عهدك ، وقوضوا مذابحك ، وقتلوا أنبياءك بالسيف وبقيت أنا وحدي ، وقد طلبوا روحي ليأخذوها .

(١) ارجع في هذا الصدد إلى سفر الملوك الأول ، الاصحاح ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

فقال : أخرج ، وقف على الجبل أمام الرب فاذا الرب عابر ، وريح عظيمة عاتية تصدع الجبال وتحطم الصخور أمام الرب ، ولم يكن الرب فى الريح . وبعد الريح زلزلة ، ولم يكن الرب فى الزلزلة وبعد الزلزلة نار ، ولم يكن الرب فى النار . وبعد النار حفيف نسيم لطيف ، فلما سمع إيليا ستر وجهه بردائه وخرج ووقف بمدخل المغارة ، فاذا بصوت يقول له : ما بالك يا إيليا ؟ فقال انى ثرت ثورة للرب اله الجنود وكرر عبارته السابقة . فقال له الرب امض فأرجع فى طريقك نحو برية دمشق ، فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكا على آرام . وامسح ياهو بن نمشى ملكا على إسرائيل ، وامسح إليشع بن شافاط من آبل محولة نبيا ، خليفة لك .

وهكذا ينطلق إيليا التشبي من دائرة النبي المحلى فى مملكة اسرائيل ، الشمالية ، لتصبح له رسالة « دولية » فى منطقة الشرق الأوسط كلها ، كما يختار نبيا يخلفه فى هذا العمل الضخم هو إليشع الذى يسمى بالعربية « اليسع » ، وهذا ما يفسر لنا اقتران الإسمين إلياس واليسع معا عند ذكر الأنبياء فى الفكر العربي .

وأدار النبي إيليا خطته بإحكام ودقة حتى علا شأنه جداً ، وتنبأ بهزيمة أخاب وبأن زوجته الكافرة إيزابيللا ستقتل وتأكلها الكلاب ، هى وكل العصاة من إسرائيل ، ومن لم تأكله الكلاب منهم فستخطفه جوارح الطير . واستمرت مملكة اسرائيل فى عدائها لإيليا النبى بعد موت أخاب حتى أرسل اليه خليفته « أحزيا » فرقا من جيشه تريد أن تستدرجه وتنزله عن الجبل الذى اعتصم به . كانت كل فرقة تتألف من خمسين جنديا عليهم قائد ، فيأمر ايليا السماء فترسل عليهم ناراً تلتهمهم .

وكان آخر كرامات هذا النبي هو صعوده حياً الى السماء حيث يعتقد اليهود أنه موجود فيها حتى الآن . « أراد الرب أن يرفع إيليا فى العاصفة نحو السماء ، وكان إيليا قد ذهب مع إليشع من الجلجال . فقال ايليا لإليشع : أقعد هاهنا فإن الرب قد بعثني الى بيت ايل . فقال اليشع لعمر الله ، ولعمرك أنت ، انى لن أفارقك . فسارا الى بيت أيل . فخرج بنو الأنبياء الذين فى بيت ايل الى اليشع وقالوا له: هل علمت أن الرب فى هذا اليوم سيأخذ سيدك من فوق رأسك ؟ فقال نعم قد علمت ، فاسكتوا . ثم قال له إيليا : يا اليشع أقعد ها هنا ، فإن الرب قد بعثني إلى أريحا . فقال لعمر الله ، ولعمرك أنت ، انى لن أفارقك . وأتيا أريحا . » وتكرر نفس المنظر مع بنى الانبياء فى أريحا ، ثم انتقلا إلى الأردن . « فأخذ إيليا رداءه ، ولفه ، وضرب به الماء ، فانفلق من هنا وهناك ، وجازا كلاهما على اليبس ، فلما عبرا قال إيليا لإليشع سلنى ماذا أصنع لك قبل أن أوخذ عنك . فقال اليشع : ليكن لى سهمان من روحك ، قال : قد سألت أمرا صعبا ان أنت رأيتني عندما أوخذ من عندك يكون لك ذلك ، وإلا فلا . وفيما كانا سائرين ، وهما يتحادثان ، إذا مركبة نارية ، وخيل نارية قد فصلت بينهما ، وطلع إيليا فى العاصفة نحو السماء ، واليشع يبصر ويصرخ يا أبى يا أبى ، يا مركبة إسرائيل وفرسانه ، ثم لم يره بعد : فأمسك ثيابه وشقها شطرين ، ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ، ورجع ووقف على شاطىء الأردن . وأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال : أين الرب إله إيليا الآن أيضا ؟ وضرب المياه فانفلقت من هنا وهناك وعبر اليشع » . وكل ذلك مذكور بتفصيله ، من سفر الملوك الاول ١٧ إلى سفر الملوك الثانى ٢ .

وقد بقى النبي إيليا إلى يومنا هذا من الأركان الغيبية فى الفكر اليهودى . وكثر الحديث عنه فى التلمود والمدراش وفى كتب التصوف اليهودى ، واعتبر فى نظر أكثر اليهود مساويا لموسى ، بل اعتبر الوحيد فى أنبياء بنى إسرائيل الذى يمكن أن يقارن بموسى . جاء فى المجلد الثانى من دائرة المعارف العبرية المنشور فى نيويورك سنة ١٩٠٨ ، باشراف يهودا دافيد أيزنشتاين ، تحت عنوان « موسى وإلياهو » أن أصحاب المدراش جروا على تشبيه إلياهو بموسى من عدة وجوه أهمها :

١ ـ أن الاثنين ينتميان إلى سبط اللاويين ، (وقد أشرنا إلى الخلاف القائم حول نسبة إلياهو إلى هذا السبط) .

٢ ـ إنهما مكلفان من الله برسالة محددة هى خلاص بنى إسرائيل ، أما موسى فقد أتم رسالته بتخليصهم من فرعون ؛ وأما إلياهو فالأمر فية مختلف جداً ، إذ أنه ـ فى اعتقادهم ـ قد صعد إلى السماء فى المركبة النارية التى ذكرنا قصتها وأنه سينزل إلى الأرض فى آخر الزمان ، قبل يوم الدين ، ليتم رسالة الخلاص التى كلف بها ، وقد كانت هذه العقيدة شائعة بين اليهود بعد العودة من السبى البابلى ، فالنبى ملاخى الذى عاش فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد يقول (ملاخى ٤/٤ ـ ٦) : اذكروا شريعة موسى عبدى التى أوصيته بها فى حوريب ، إلى جميع إسرائيل ، رسوما وأحكاما . هأنذا أرسل اليكم إيليا النبى ، قبل أن يجىء يوم الرب العظيم الرهيب . فيرد قلوب الآباء إلى الأبناء ، وقلوب الأبناء إلى آبائهم لئلا آتى وأضرب الأرض بلعنة » .

٣ - أن كلا منهما نبيّ ، وقد لقب كلاهما بلقب « رجل الله » فى الكتاب المقدس .

٤ - أنهما جميعا قد صعدا إلى السماء . وقد رأينا فى ذلك نصا صريحا فى قصة إلياهو ، أما موسى فالنص الصريح الذى عندنا فى الكتاب المقدس عنه أنه مات ولم يرفع ، بل دفن فى قبر لم يكن الذى سجل التوراة بالكتابة يعرف أين هو (التثنية ٣٤ / ٥ ، ٦) والواقع أن أن إرتفاع موسى إلى السماء قد تأوله اليهود اجتهاداً فيما بعد .

٥ - أن كلا منهما قتل رجلا ظالما ، فموسى قتل المصرى الذى رآه يضرب واحداً من قومه ، وقالوا إن إلياهو قتل حيئيل بانى مدينة أريحا ، المعاصر لإلياهو وللملك الإسرائيلى آخاب ، وحادثة القتل المنسوبة إلى إيليا النبى هى أيضا من اجتهادات اليهود فى التأويل ولم يرد بها نص صريح ، وكل ما هنالك أنهم توهموها فى آية (هوشع ١٣ / ١) التى لا تفصح عن ذلك بحال فهى تقول : « لما تكلم إفرايم ، ألقى الرعب فى إسرائيل ، فأثم فى البعل ومات » .

٦ - أن موسى وإيليا كلاهما قد اعتمد فى فترة معينة على امرأة ، موسى على بنت كاهن مدين ، وإيليا على الأرملة التى أحيي لها ولدها من الموت .

٧ - أن موسى هرب من وجه فرعون ، وإلياهو هرب من وجه آخاب وزوجته الكافرة إيزابيلا .

٨ - أن موسى جمع شمل قومه على جبل الطور فى سيناء ، وإلياهو جمع شملهم على جبل الكرمل فى شمال فلسطين .

٩ ـ أن كلا منهما اتخذ له مغارة يختبيء فيها ، ورد ذكر مغارة موسى فى سفر الخروج (٣٣ / ٢٢) فى قول الرب له : « ويكون متى اجتاز جلالى أنى أضعك فى نقرة من الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز » .

١٠ ـ أن كلا من موسى وإلياهو قد بقى أربعين ليلة على وجبة واحدة ، موسى عندما واعد ربه ، وإلياهو فى صحراء يهوذا فى الجنوب من فلسطين .

١١ ـ أن موسى وإلياهو كانا جديرين بالتجلى الإلهى العجيب ، وتأولوا هنا قول نبيهم ناحوم (١ / ٣) : الرب فى الزوبعة ، وفى العاصفة طريقه ، قالوا إن الزوبعة هى موسى والعاصفه هى إلياهو .

واليهود بالطبع أحرار فى أن يقارنوا ويؤولوا فى كتابهم ، ولكن هناك آية صريحة فى توراة موسى نفسها تجعل هذه المقارنة تبدو عجيبة ، وكأنما هى تتجاهل قول التوراة (التثنية ٣٤ / ١٠) : « ولم يقم من بعدُ نبيٌ فى إسرائيل كموسى » .

الخيال الشعبى اليهودى أمام فكرة المسيح المخلص :

اعتقد اليهود كما قلنا أن إيليا النبى سيأتى مبشرا بمجيء المسيح ، بل لقد قال بعضهم إن المسيح هو ابن الأرملة الذى أعاده إلياهو إلى الحياة ، وأنه سيأتى فى آخر الزمان بعد أن يتقدمه إلياهو . بل يبدو أن بعض فرق اليهود قد ظنت أن إلياهو والمسيح شيء واحد ، ونشعر بذلك من خلال لهجة الإلحاح التى رددها بعض علماء اليهود عندما يبدأون الحديث عن إلياهو فيقولون إنه ليس هو المسيح . ولكنهم

جميعا يؤمنون بأنه سيأتى ، بل إنه ينزل من حين إلى حين إلى هذه الدار الفانية ليطمئن على أنه مايزال هناك يهود يقيمون الطقوس والشعائر والأعياد حسب ما تقرر عليهم منذ القدم . (١)

ووجد الخيال الشعبي اليهودى فى أحلك أوقاته غذاء خصبا فى سيرة النبى إيليا ، فهو عند أطفال اليهود يقابل « بابانويل » عند أطفال العالم المسيحى ، يزورهم فى المنام حاملا لهم اللعب والهدايا . وهو ينزل من السماء ليكون ضيفا على الاتقياء يعلمهم توراة الرب ، ويأتيهم بالخيرات والبركات . ويذكر التلمود (باب السنهدرين) أن الربى يوساى كان صديقا للنبي إلياهو إذ دعاه حضر اليه توا من السماء ، وإلى يوساى هذا تنسب العبارة التى يقول فيها : « إن آبانا إلياهو غضوب ، فهذه ثلاثة أيام أدعوه فيها فلا يحضر ، فتجلى له إلياهو وقال : أدعوتنى غضوبا ، ولماذا ؟ فأجاب يوساى : إن أمرك معنا الآن يثبت هو نفسه انك غضوب » . وباختصار فإنه لاتكاد تذكر فى الحكايات اليهودية قصة فرج بعد شدة ، أو جزاء عادل على عمل ما ، أو حادثة خارقة للعادة ، أو تدخل معجز من الملائكة كجبريل وميكائيل إلا أفسح الفكر اليهودى فيها مكانا للنبي إلياهو أيضا . بل لقد اقتضت تقاليد عيد الفصح فى بعض خطواتها ، عندما يصب النبيذ فى الكئوس ، أن يصب كأس للنبي إلياهو أيضا

وقد جرى المفسرون اليهود على التركيز على مجىء النبي إلياهو ، عند تفسير

---

(١) أنظر مادة (الياهو) فى دائرة المعارف العبرية « أوتصار يسرائيل » ـ نيويورك ١٩٠٨ ، المجلد الثانى .

الآية (ملاخى ٣ / ١) : « إنى مرسل ملاكى فيهىء الطريق أمامى ، وبغتة يأتى السيد الذى تنتظرونه إلى هيكله ، وملاك العهد الذى ترضون به . ها إنه آت ، قال رب الجنود » . وقالوا إن « ملاك العهد » المذكور فيها هو النبي إلياهو نفسه

وإذا كان إيليا النبي قد أصبح جزءاً لايتجزأ من فكرة المسيح المنتظر عند اليهود ، فإن هذا المسيح المنتظر بدوره قد أثر تأثيرا عميقا فى التطور الدينى عند اليهود .

فقد بدأت كلمة « مسيح » ، بالعبرية « ماشيَح » ، حياتها اللغوية بمدلول مادى عادى . فالفعل « مسح » كان يستعمل لمبايعة الملوك ، إذ يأتى الكاهن الأكبر الذى يقوم بطقوس التتويج ويأخذ على كفه بعضا من الزيت المقدس فيمسح به مقدم رأس الملك ثم يضع التاج . وهكذا كان كل ملك عند العبريين يسمى فى القديم « مسيحا » ، أى أنه متوج بطريقة شرعية وممسوح بالزيت المقدس .

ومع الحوادث الجسام التى تعرض لها اليهود فى إبان السبى البابلى ، وما كان قد سبقه من فساد فى ملوك إسرائيل ويهوذا ، أصبح حلم الأنبياء والمصلحين والكثرة الكثيرة من اليهود أن يأتى ملك فذ من نوعه ، مخلص ، معه القوة والبركة ، معجز يعيد الأمجاد السالفة ، فيكون هو الملك بحق ، وهو « المسيح » . نرى هذه الفكرة واضحة متبلورة فى قول النبي الإسرائيلى (إشعيـــا ٩/٦ ، ٧) : « لأنه يولد لنا ولد ، ونُعطى إبنا ، وتكون الرئاسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا ، مشيرا إلها قديرا أبا ، أبديا ، أميرا للسلام ، لنمو الرياسة ، والسلام لا انقضاء له

على عرش داود ومملكته ، ليقرها ، ويوطدها بالعدل والإنصاف من الآن إلى الأبد . إن غيرة رب الجنود ستصنع هذا . »

تأكدت مع السبي البابلي ثم مع النكبات المتعاقبة التي حلت باليهود فكرة الأمل المسيح الخاص حتى أصبحت كما قلنا من أركان العقيدة اليهودية العامة ، وسميت عند كثير من مؤرخي تطور الفكر الإسرائيلي باسم « المسيحانية » (١).

أما لماذا لم يؤمن اليهود بالمسيح عيسى بن مريم عند قيامه بدعوته فيما بينهم ، فإنهم يتعللون في ذلك بأن سيدنا عيسى عليه السلام لا تتحقق فيه الشروط التي وردت عند الأنبياء السابقين حول المسيح المنتظر وزمانه . فإن النبي إيليا لم ينزل مرهصا له ، ولم يعد من السماء قبل مجيئه ممهدا عن بعثته . ثم أنهم يقولون إن النبي إشعيا في سفره (الأصحاح الحادي عشر) يصف هذا المسيح المنتظر فيقول : « ويخرج فرع من جذر يسى ، وينبت غصن من أصوله . ويحل عليه روح الرب ، وروح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة وتقوى الرب . وتكون لذته في مخافة الرب ، فلا يقضي بحسب نظر عينيه ، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه . بل يقضي بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ، ويضرب الأرض بعصا فمه ، ويهلك المنافق بنفخة شفتيه : ويكون البر نطاقا لحقويه ، والحق حزاما لجنبيه . فيسكن الذئب مع الحمل ، ويربض النمر مع الجدي والعجل ، وشبل

---

(١) Messianisme .

الأسد مع دابة العلف ، وصبي صغير يسوقها . وترعى البقرة والدب معا ، ويربض أولادهما معا ، ويأكل الأسد تبنا كالبقر ، ويلعب الرضيع على جحر الثعبان ، ويضع الفطيم يده فى نفق الأفعوان . لا يؤذون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى ، لأن الأرض ستمتلىء من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر . وفى ذلك اليوم يكون أصل يسّى قائما كراية للشعوب ، ترجوه الأمم ، ويكون مثواه مجيدا . وفى ذلك اليوم يمد المولى يده ثانية ليفتدى بقية شعبه التى بقيت من أشور ومصر وفتروس وكوش وعيلام وشنعار وحماة وجزائر البحر . ويرفع راية للأمم ، ويجمع المنفيين من إسرائيل ويضم المشتتين من يهوذا من أربعة أطراف الأرض . فيزول حسد إفرايم ، وتضمحل عداوة يهوذا . فلا إفرايم يحسد يهوذا ، ولا يهوذا يعادى إفرايم . بل ينقضّان على أكتاف الفلسطينيين غربا ، وينهبان بنى المشرق معا ! ويكون على أدوم ومؤاب امتداد يدهما ، وبنو عمون فى طاعتهما ! ويبيد الرب لسان بحر مصر ، ويهز يده على النهر بريحه العاصفة ، ويشقه سبعة جداول فيُعبر بالأحذية وتكون سكة لبقية شعبه ، التى بقيت من أشور ، كما كانت لإسرائيل يوم نزوحه عن أرض مصر . » وقد تكرر ذلك كله فى مواضع أخرى من أقوال نفس هذا النبى ، أشهرها ماجاء فى نهاية الإصحاح الخامس والستين من سفره حول السلام الدائم القائم بين الذئب والحمل ، وما سيكون من إقلاع الأسد عن الافتراس واكتفائه بأكل التبن كالبقر . ويقول اليهود إنه لم يتحقق شىء واحد من ذلك على عهد عيسى بن مريم فالذئب مايزال يأكل الحمل ، والأسد لايذوق التبن بل يعيش على قتل الفريسة وتمزيقها ، والحية تهلك الإنسان ، وبقية إسرائيل ويهوذا ذليلة

مشردة فى الأرض . وهكذا تنكر هؤلاء اليهود للمسيح ، حتى إنهم حرفوا إسمه من « يسوع » التى تنطق بالعبرية « يشوع » ومعناها المخلص ، فسموه « يشو » وهو تحريف خبيث بنوه على حساب عددى لحروف هذه الكلمة ، إذ هى بحساب الجُمّل تساوى ثلثمائة وستة عشر وقد جعلوها رمزا لعبارة سرية فيما بينهم تساوى فى هذا الحساب نفس القيمة وهى العبارة الآرامية « نبلا بريكا » التى معناها « الرّمه المقدسة » ينعتون بها السيد المسيح عليه السلام .

والواقع أن الحلم المسيحانى لم يكف عن مداعبة خيال اليهود منذ السبي البابلى وحتى القرن العشرين . يقول النبي دانيال (الإصحاح السابع ، الآية ١٣ وما بعدها) : « ورأيت فى رؤى الليل فإذا بمثل ابن آدم آتيا على سحاب السماء حتى وصل إلى الأزلىّ فقدم بين يديه ، وأوتى سلطانا ومجدا وملكا ، فجميع الشعوب والأمم والألسنة تتعبد له ، وسلطانه سلطان أبدى لايزول وملكه لاينقرض . فارتاع روحى ، أنا دانيال ، فى وسط جسمى ، وأفزعتنى رؤى رأسى . فاقتربت الى أحد الواقفين ، وسألته عن حقيقة ذلك كله ، فأخبرنى وأعلمنى بتعبير الكلام » ثم يستمر هذا الإصحاح نفسه فى سياق تفسير أحلام دانيال ، وهى نبوءات سياسية وعسكرية متوقعة فى آخر الزمان ، تنتهى بهلاك أعداء الرب وشعبه المختـــار ، واحدا تلو الآخر ، حتى يأتى آخر الظالمين « فينطق بأقوال ضد العلىّ ويبتلى قديسى العلى ، ويخال أنه يغير الأزمنة والشريعة . وسيقعون فى يده إلى زمان وزمانين ونصف زمان . ثم يجلس أهل القضاء فيزال سلطانه ويدمر ويباد على الدوام . أما الملك والسلطان ، وعظمة الملك تحت السماء بأسرها ، فتعطى لشعب القديسين

للعليّ ، يكون ملكه ملكا أبديا ، وجميع السلاطين يصيرون عبيدا له ويطيعونه ! »

وككل الأحلام التى تداعب خيال الشعوب ، ظفر الحلم اليهودى المسيحانى على مدى التاريخ بكثير من اليهود الذين يدّعى كل منهم أنه المسيح المنتظر .

فن هؤلاء « ثيوداس » الذى ظهر سنة ٤٤ ميلادية ، فاتبعه جمهور كبير من اليهود ، وأراد أن يستغلهم لصالحه سياسيا ، فاجتمع بهم على نهر الأردن ، وادعى أنه سيفلق ماء النهر مثل موسى ليعبر هو والشعب معه . فعلم بأمره الحاكم العسكرى الرومانى للمنطقة ، وأرسل كتيبة من الفرسان فقتلت من هؤلاء اليهود عددا كبيرا ، وقطعت رأس هذا المسيح وحملته معها إلى قائدها .

ويذكر المؤرخ يوسيفوس مسيحا آخر من يهود مصر ، ذهب إلى جبل الزيتون المشرف على أورشليم وأخذ ينشر دعوته فآمن به نحو ثلاثين ألفا ، وقد قال لهم إنه بإرادته ستنهدم الأسوار الرومانية عن مدينة القدس ، فيدخلها هو وأتباعه ويستولون عليها . فعلم بذلك حاكم المدينة فليكس (من سنة ٥٥ إلى ٦٠ م) وانقضّ عليهم بجيشه فقتل منهم الكثيرين ، وشتت جموعهم ، وهرب هذا المسيح فلم يظهر بعد ذلك .

والظاهر أن إدعاء يهودىٍّ مّا أنه المسيح المنتظر كان أمرا سهلا هينا يكاد يحدث كل يوم . فهذا هو المسيح عليه السلام يقول لتلاميذه وهو جالس على جبل الزيتون على انفراد : « احذروا أن يضلكم أحد ، لأن كثيرين سيأتون باسمى قائلين : أنا المسيح . ويضلون كثيرين » .

(إنجيل متى ٤/٢٤ - ٥) وفى نفس هذا الإصحاح يقول المسيح : « لأنه سيكون حينئذ ضيق شديد لم يكن مثله منذ أول العالم إلى الآن ، ولن يكون . ولولا أن تلك الأيام ستقصر لما كان ينجو ذو جسد ، لكن لأجل المختارين ستقصر تلك الأيام . حينئذ إنْ قال لكم أحد أن المسيح هنـا أو هنـاك فلاتصدقوا . لأنه سيكون هنـاك مُسَحَاء كذابون وأنبياء كذابون ، ويعطون آيات عظيمة وعجائب ، حتى إنهم يضلون المختارين لو أمكن . ها أنا قد تقدمت فأخبرتكم . فإن قالوا لكم ها هو فى البرية فلا تخرجوا ، أو ها هو فى الحجرات فلا تصدقوا » . (آيات ٢١ - ٢٦) .

وفى أعقاب ظهور المسيح عليه السلام ، وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه ثيوداس تقريبا ، قام يهودى اسمه يهوذا الجليلى فادعى أنه المسيح كذلك « وأزاغ شعبا كثيرا اتبعوه ، فهلك هو أيضا وتبدد جميع الذين أطاعوه » . (العهد الجديد - أعمال الرسل ٥/٢٧) .

والكثرة من يدعى من اليهود أنه المسيح المنتظر كان الموظفون الرومان يخاطون بينهم . فمثلا عندما دخل القديس بولس الهيكل فى أورشليم ، وكان اتبع شريعة المسيح عليه السلام ، رآه اليهود فى الهيكل ، فراحوا يصرخون : « يارجال إسرائيل ، أغيثوا . هذا هو الرجل الذى يعلم جميع الناس فى كل مكان خلاف ماعليه الشعب والشريعة وهذا المكان . وقد أدخل أيضا يونانيين إلى الهيكل ودنّس هذا الموضع الطاهر - وذلك أنهم كانوا قد رأوا تروفيمس الأفسسى فى المدينة معه ، فظنوا أن بولس ، قد أدخله الهيكل - فهاجت المدينة كلها

وتبادر الشعب إلى بولس ، فأمسكوه وجروه إلى خارج الهيكل ، وفى الحال أغلقت الابواب ، وفيما هم يريدون أن يقتلوه بلغ الخبر قائد الحامية بأن أورشليم كلها قد هاجت . فأخذ من ساعته جنودا وقادة مائة [1] ، وأسرع إليهم ، فلما رأوا قائد الألف [2] والجند كفّوا عن ضرب بولس . ثم دنا اليه قائد الالف ، وأمسكه وأمر به أن يوثق بسلسلتين . وراح يسأله من هو وماذا صنع . وكان البعض يصيح فى الجمع بشيء والبعض بشيء آخر ولما لم يستطع معرفة حقيقة الأمر بسبب الضجة ، أمر أن يذهبوا به إلى المعسكر . فلما بلغ الدرج حمله الجنود خوفا من سطوة الجمهور ، فإن جمهور الشعب كانوا يتبعونه وهم يصرخون : خذوه . ولما قارب بولس أن يدخل المعسكر قال لقائد الألف : هل لى أن أكلمك؟ فقال : هل تعرف اليونانية ؟ ألست أنت ذلك المصرى الذى أثار قبل هذه الأيام هيجانا ، وخرج إلى البرية بأربعة آلاف رجل من القتلة ؟ (أعمال الرسل ٢١/٢٨-٣٨) . ويبدو بوضوح أن القائد خلط بين بولس الرسول وبين اليهودى المصرى الذى سبقت الإشارة إلى ادعائه أنه المسيح المنتظر .

وفى القرن الثانى الميلادى ، حوالى سنة ١٣٠ ، قام اليهودى الثائر « بركوكبا » بإعلان الجهاد المقدس لطرد الرومان وغيرهم من فلسطين ، والإستيلاء عليها لتكون وطنا لليهود . ولو أنه قصر الأمر على ذلك لكانت حركته حركة صهيونية عسكرية ككثير غيرها فى تاريخ اليهود .

---

(١) درجة من درجات الضباط تقارب درجة « نقيب » أو « كابتن » .

(٢) درجة عسكرية عليا تقارب درجة « مقدم » أو « قومندان — كولونيل .

ولكنه ادعى لأتباعه ـ أو لعلهم هم الذين ادعوا ـ أنه المخلّص والمسيح المنتظر . ولما جاء جيش الإمبراطور الروماني هدريان فأباد اليهود من فلسطين ، وغيّر أكثر آثارهم هناك بتهديمها ومحوها وتغيير أسمائها ، تبين لليهود أن هذا المسيح المنتظر لم يكن إلا دجالا ، فغيروا اسمه من « بركوكبا » أى ابن الكوكب أو النجم وجعلوه « بركوزيا » أى ابن الكذاب .

وبعد الضربة القاضية التي تلقاها اليهود من الامبراطور هدريان ، انكمشت الأحلام المسيحانية عندهم ، واكتفوا إما بالمعيشة في المنفى ، يجمعون المال ، أو ينكبون على دراسة شرائعهم ، ورواية تعاليمهم الشفوية ، التي تألف منها التلمود كما قلنا ، أو الحياة في ظل الفقر والخوف والتشرد . ولم يشعروا بشيء من العدالة والحرية إلا بعد ظهور الاسلام .

ومع هذه الطمأنينة التي تمتعوا بها ، عاد المسيح المنتظر يداعب خيالهم من جديد ، فكان أول الأدعياء بعد ذلك هو إسحق بن يعقوب عوبديا المعروف باسم أبي عيسى الأصفهاني . وقد عاش في عهد الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) . وهو من مواليد أصفهان ببلاد فارس ، وقد تناول الشريعة بالتغيير والتبديل ، ثم خلفه تلميذه « يوجدان » ، الذي أدعى بدوره أنه المسيح المنتظر ، وصدقه قوم كثيرون ، معتمدين على حسابات خرافية أساسها أن بين يوجدان هذا وبين دانيال ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثون سنة ، توهموا أنها المدة التي بشر دانيال ببعثه المسيح بعدها . وقد أطلقوا عليه لقب « الراعي » .

وإليه تنسب طائفة اليوجدانية من اليهود التي سنتوه ببعض تعاليمها في موضعها من هذا الكتاب .

وفي أيام عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠ م) ظهر مسيح آخر في سوريا اسمه « سيرينوس » . ولعل السبب في ظهوره هو أن الخليفة عمر ابن عبد العزيز كان قد لاحظ أن اليهود أساءوا استعمال الحريـــة التي نالوهـا في ظل الاسلام ، فبدأ يشدد الرقابة عليهم ويأخـذهم بالحزم ، ويعاقبهم بشدة إذ انحرفوا عن جادة الصواب . وبالرغم من أن أخبار هذا المسيح الكذاب قليلة إلا أنه يبدو منهـا جميعا سعيه لإقامة المجتمع اليهودي على حرية مطلقة ، لتوغل كثيراً في الفوضوية ، بحجة تحريرهم سلطة الحاكم . فقد قال بإلغاء السلطة الملوكية وتعطيل شرائع التلمود ، والصلوات . وإلغاء عقود الزواج ، ورفع الحظر عن المحرمات في الطعام والشراب ... الخ . وقد استمر في دعوته إلى أيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان الذي تلا عمر بن عبد العزيز . وقد ألقى هذا الخليفة القبض عليه ، فأنكر جديته في هذه الدعوة ، وقال إنه كان يعبث لمجرد الضحك . فأرسله الخليفة ليسلم إلى بعض اليهود المتمسكين بدينهم ليتوب ، وهكذا انتهت حركة سيرينوس هذا .

وعلى أثر ذلك رغب عدد كبير من اليهود الذين كانوا قد اتبعوه في العودة إلى الديانة اليهودية الرسمية ، ولكن الحاخامين الذين واجهوا هذه المشكلة لم يستطيعوا البت فيها ، وكان أكثرهم يميل إلى الاستمرار في اعتبار هؤلاء العائدين من أتباع هذا المسيح الكذاب كفارا ، لايمكن قبولهم في الدين من جديد . وأخيرا قرروا استفتـــاء شيخ الشريعة

التلمودية الباقى فى أكادية فومبديثا وهو الربى « الجاأون » نوطراى ، فأفتى بأنه من المستحسن استمالة هؤلاء المنحرفين وإعادتهم إلى حظيرة اليهودية العامة . وقضى باستتابتهم وعودتهم إلى الإقرار بالإيمان باليهودية واعتبارهم بعد ذلك من بنى إسرائيل بشكل كامل .

وتكرر انبثاق ظاهرة المسيح الكذاب فى المجتمع اليهودى إبان الحروب الصليبية ، فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . ظهر واحد منهم فى فرنسا ، ولكنه قتل عام ١٠٨٧ ، كما ظهر آخر فى قرطبة عام ١١١٧ ، وثالث فى فاس بالمغرب عام ١١٢٧ ، وقد تحدث عنهم موسى ابن ميمون فى كتابه « رسالة اليمن »

ومن أشهر من ادعوا شخصية المسيح المخلّص داود الرائى . وهو داود بن سليمان من مواليد مدينة آمد فى إقليم كردستان سنة ١١٢٥ . درس فى شبابه التوراة والمدراش والمشنا والتلمود على أكبر أساتذة عصره ، ونذكر منهم الحاخام حسداى ، رئيس يهود العراق الذى كان لقبه الرسمى « رأس الجالوت » أى كبير الجالية اليهودية التى وجدت فى العراق منذ أيام بختنصر حسب زعم اليهود فى ذلك ، كما درس على الجاأون عيلى ، شيخ علماء الشريعة اليهودية فى بغداد إذ ذاك ، وكان لقبه الرسمى هو « رأس المثيبة » أى مدير الأكاديمية الشرعية اليهودية ، كما أن لقب « الجاأون » الذى معناه الحرفى « الأفخم » أو « المعظم » كان يعطى لكبار علماء الشريعة اليهودية الذين أعقبوا عصر التلمود مباشرة ، أى من القرن الخامس الميلادى إلى مستهل القرن الثانى عشر أو بعد بقليل . كذلك أتقن داود الرائى علوم العرب التى كانت مزدهرة جدا

فى عصره ببغداد ، قاعدة العباسيين وكبرى عواصم العالم الاسلامى . وأوغل فى تعلم التنجيم والسحر وسائر هذه المعارف السرية .

وقد بدأ داود الرائى خطواته الأولى نحو ادعاء أنه المسيح المنتظر حوالى سنة ١١٦٣م ، بمحاولة القيام بحركة صهيونية دعا إليها بين يهود بغداد والإقليم المحيط بها ، فكان ينادى بالذهاب إلى القدس وانتزاعها من أيدى العرب وإعلان حكم يهودى فيها . والواقع أن هذه الدعوة لم تكن مجرد نزوة فى فكر داود الرائى ولكنها كانت قائمة على تخطيط مدروس . ذلك أن الصليبيين كانوا فى ذلك الوقت يحاولون ضعضعة العالم العربى من جهات شتى وأساليب متنوعة ، منها الجاسوسية ، والحرب ، وبث الأراجيف والإشاعات ، وتشجيع حركات الزندقة والإلحاد ، وإثارة الأقليات الدينية والعنصرية ضد وحدة العالم العربى والإسلامى . وقد امتد هذا التخطيط الهدام إلى أعماق بلاد فارس وإلى سوريا ومصر ، وتنبه اليهودى داود الرائى إلى ذلك فأراد أن يغتنم الفرصة ويحاول إقامة هذه الصهيونية فى صميم العصور الوسطى . ونجح فعلا فى إثارة الفتنة فى الدولة السلجوقية ، وفى الخلافة العباسية نفسها ، سمى نفسه « مناحم » ومعناها بالعبرية « المُواسى » ثم أطلق على نفسه لقب الملك المخلِّص « المسيح » . ولم يكتف بذلك بل راح يذيع بين يهود العالم العربى أن رسالته المقدسة هى خلاص بنى إسرائيل من الغربة والاحتقار والتشرد فى الأرض ، وجمعهم جميعا فى فلسطين ، واغتصاب هذه البلاد من العالم العربى ، وإعلان حكومة يهودية مستقلة فيها تعيد مملكة داود وسليمان .

وقد تحمس لذلك اليهود ، وبخاصة الأعداد الكبيرة منهم التى كانت تقيم فى إقليم أذربيجان ، فكونوا جيشا من المتطوعين وضموه تحت قيادة هذا المسيح الكذاب نفسه . ومن مقر قيادته راح يرسل الدعوة سرا إلى يهود الموصل وبغداد بأن ساعة الخلاص قد حانت ، ويطلب منهم مساعدته على تحقيق هذا الهدف ، بالقيام بأقصى ما وسعهم من أعمال التخريب والإرهاب وإشاعة الفوضى فى دولة العرب .

وقرر داود الرائى أن يشن هجوما حربيا بجيشه هذا على المسلمين ، ورأى أن يبدأ بالاستيلاء على مدينة آمد التى ولد فيها ، ولكن جيوش المسلمين فتكت به وأحبطت هجومه ، وقتل هو نفسه هذه المعركة .

وعلى عادة اليهــــود ، سرعان ما تحول داود الرائى بعد قتله إلى أسطورة حافلة بالخوارق والمعجزات الخرافية . فقد حكى الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ، الذى قام برحلته بعد هذه الحوادث بعشر سنين فقط - سنة ١١٧٣ - أنه سمع من اليهود فى تلك المنطقة بقيام مسيح مخلص يدعى أن الله أرسله لاحتلال القدس وتخليص اليهود من حكم الامم الأخرى . وأن كثيرا من اليهود آمنوا به ، وبأنه المسيح المنتظر . فلما سمع بذلك أمير خراسان المسلم بعث إليه يستدعيه . فلما حضر بين يديه استجوبه فأكد له داود الرائى أنه المسيح نفسه . فأمر بوضعه فى السجن بمدينة طبرستان . وبمجرد وصوله إلى السجن وإغلاق الأبواب عليه ، فوجىء الامير برؤيته واقفا أمامه ، فصاح بالحرس ليقبضوا عليه ، فأجاب الحراس بأنهم لا يرون إنسانا ولكنهم يسمعون صوته فقط ! وانصرف داود الرائى من القصر ، وركب فرسه ومشى به على ماء النهر

حتى عبره ، فلم يستطع الجنود اللحاق به ، لأنهم بعد عبورهم على أثره تبينوا أنه قطع مسيرة عشرة أيام فى يوم واحد .

ويقال إنه لما وصل إلى آمد . أرسل حاكم خراسان بالخبر إلى أمير المؤمنين فى بغداد ، حتى يتصل برؤساء الدين اليهودى ، ليحذروا أبناء طائفتهم من هذا المسيح الكذاب ، وإلا وجب قتل كل اليهود فى خراسان فكتبوا إلى داود الرائى يطالبونه بالكف عن حركته لأن زمان الخلاص لم يحن بعد ، وعلاماته لم تظهر . وهددوه بإعلان تكفيره اذا تمادى فى عمله . كذلك كتب الحـــاخام الأكبر زكاى رئيس يهود العراق ، والعالم اليهودى المنجم يوسف المعروف بلقب برهان الفلك ، محاولين رد داود الرائى عن عزمه . ولكن كل هذه المحاولات لم تفلح ، فأهدر أمير خراسان دمه ، وجعل لمن يقتله سراً مكافأة قدرها عشرة آلاف دينار وتم اغتياله فعلا ، وهكذا انتهت دعوته . وطالب أمير خراسان اليهود بغرامة قدرها مائة قنطـار من الذهب ، تعويضا عما احدثوه من أضرار بالدولة بسبب قيام هذا المسيح الكذاب بينهم . وزعم بعض اليهود أنه كان يشفى الأبرص ، كما ذكر بعضهم أنه قال للأمير عندما ادعى أنه المسيح وسأله الامير عن معجزته إنه لو قطعت رأسه بالسيف فلن يموت ، فأمر الأمير بقطعها ، ومات . ولكن بعض المؤمنين به بقوا زمنا طويلا ينتظرون عودته ، وكانت فرقتهم تسمى « المحماتيين » نسبة الى « نحمان » أو « مناحم » التى معناها المواسى ، والتى كانت من ألقاب داود الرائى كما ذكرنا .

وفى سنة ١٥٠٢ أدعى اليهودى الألمانى أشر إملين أنه المسيح الحق ،

وأن الله أرسله أيضا الاستيلاء على فلسطين وإقامة دولة لليهود بها . فآمن به عدد كبير . وأمرهم أن يهدموا الأفران التى يخبزون فيها خبز الفصح الشرعى المعروف باسم « متصّة » ، وعلل ذلك بأنهم فى الفصح القادم يخبزونه فى القدس ، فأطاعوه ولكنه مات بالسكتة فى هذه السنة ، فتزعزع إيمانهم ، لدرجة أن بعضهم ترك الديانة اليهودية كلها واعتنق المسيحية .

وممن يجدر ذكرهم فى ادعاء شخصية المسيح داود الرأوبينى ، الذى ولد حوالى سنة ١٤٩٠ ميلادية فى خيبر بالقرب من المدينة المنورة ، وتوفى فى إسبانيا سنة ١٥٣٥ . بدأ دعوته بقوله إنه الوريث الشرعى لعرش مملكة خيبر اليهودية التى أسقطها الإسلام . وأرسل إلى البابا فى روما ، وإلى ملوك أوربا يطلب منهم أن يمدوه بالأموال والأسلحة حتى يحارب العرب . واستقبله البابا « كليمنت السابع » فى الفاتيكان بحفاوة كبيرة سنة ١٥٢٤ . وفى السنة التالية جرى له استقبال رسمى فى قصر ملك البرتغال . وكثر أتباعه فى أوربا وذاع صيته بين اليهود جميعا . ولكن حدث أن كثيرا من اليهود الذين كانوا قد تنصّروا هم وذريتهم تحت ضغط محاكم التفتيش المسيحية فى إسبانيا والبرتغال بدأوا يتركون المسيحية ويتهودون من جديد ، وكان من بين هؤلاء اليهودى المتنصر « دييجو بيريز » الذى اتبع هذا المسيح وتهود من جديد وأصبح اسمه « سلومون مولخو » . وقد أحدث ذلك رد فعل فى غاية السوء بالنسبة لهذا المسيح الكذاب ، خصوصا بعد أن تقرر إحراق مولخو علنا لخروجه من المسيحية وهكذا تم القبض على داود الرأوبينى فى إسبانيا وأودع السجن ، ووضع له السم فى طعامه فمات .

والمسيح الكذاب التالى شخصية عجيبة بلغت غاية الخطورة وغاية الهزل فى آن واحد ، هى شخصية شبتاى صبى (وتنطق زفى خطأ).

ولد فى مدينة أزمير فى سيف سنة ١٦٢٦ ومات فى ألبانيا سنة ١٧٦٥ . وكان أبوه ، مردخاى صبى ، من سلالة أسرة يهودية إشكنازية (ألمانية) نزحت واستقر بها المطاف فى أزمير ، بعد إقامة فى شبه جزيرة المورة فى بلاد اليونان .

بدأ أبوه فى الاشتغال بتجارة البيض والطيور ، ثم أصبح مندوبا لشركة تجارية بريطانية ، وربح من ورائها ربحا كبيراً . وكان ابنه شبتاى على ما يبدو ذكيا غاية الذكاء . دخل فى سن السادسة إلى مدرسة يهودية شهيرة تعلم فيها التوراة والتلمود ، فما أن بلغ الخامسة عشر حتى كان يتعاطى التدريس ، واستمر فى نفس الوقت فى دراسة « القبالة » وهى علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود . وفى سن الثامنة عشرة رخص له بأن يمارس الأستاذية وتخريج الطلاب . واشتهر إلى جانب ذلك بهيئته الجميلة وطلاقة لسانه فى الحديث والخطابة . وقد لوحظ عليه حب العزلة ، وكثرة التطهر بالغطاس فى ماء البحر صيفا وشتاء . وفى هذا الوقت قام نزاع مسلح بين تركيا وإمارة البندقية حول السيطرة على جزيرة كريت ، فنشطت هذه الحرب التجارة بين أزمير وأصبح أبو شبتاى من كبار الأغنياء . فخطب لابنه بنت ثرى كبير من أثرياء اليهود ، وكانت غاية فى الجمال ، ولكن يقال إنه لم يدخل بها طلقها . وتزوج من فتاة أخرى ، ولكنه طلقها أيضا دون أن يدخل بها .

أثرت عليه دراسته لعلم « القبالة » فأخذ يحسب الحسابات الفلكية

والسرية ثم أعلن أن سنة خلاص بنى إسرائيل هى سنة ١٦٤٧ . ثم إنه وجد أن هذا الخلاص محتاج إلى مجىء المسيح المنتظر ، ولم يجد فى الأمة اليهودية كلها من هو أحق منه بهذه الرسالة ، وأعلن الأمر لتلاميذه فآمنوا به فوراً . ثم راح يشيع بين يهود المدينة خلاصة ما وصلت اليه حساباته الفلكية . ولما علم به رؤساء الدين اليهودى نظروا فى دعوته وأعلنوا لعنتهم عليه وعلى المؤمنين به . فبدأ الرأى العام اليهودى فى أزمير يتنكر له ، وحاول بعضهم الإعتداء عليه هو وتلاميذه بالضرب والقتل ، فهرب بحراً إلى القسطنطينية . وكان السلطان العثمانى وكبار رجال حكومته موجودين فى هذا الوقت خارج العاصمة فى مدينة أدرنة . فانتهز شبتاى فرصة غياب السلطان وراح يبشر بالخلاص ، وقد وجد لمعاونته اليهودى أبراهام ياكينى ، الذى اجتهد فى بث الدعوة . ولكن رؤساء اليهود فى أزمير أرسلوا يحذرون منه فى القسطنطينية . فأحس بالخطر وفر هو وأتباعه إلى مدينة سالونيك التى كانت مركزاً لدراسة علم القبالة .

هناك أقام فى أمان وكثر حوله الاتباع والتلاميذ . وإستمرت إقامته فى هذه المدينة ثمانى سنين . وفى إحدى الولائم خطر له أن يحول الوليمة إلى حفلة زواج يكون هو فيها العريس وتزف اليه التوراة كالعروس . وبعد ذلك أعلن للجموع المحتشدة أنه المسيح المنتظر . ولكن شيوخ الدين اليهودى فى المدينة ينكرون عليه ذلك ويستصدرون حكما من المحكمة الملية اليهودية بكفره واستحقاقه للقتل ، فيلوذ بالفرار فى أوائل عام ١٦٥٨ . وبقى سنة كاملة مشرداً فى البلاد فذهب إلى أثينا . ثم هرب

منها الى أزمير ، ورجع الى القسطنطينية . وأخذ يتعاطى التنجيم ورؤية الطوالع معلنا أن وقت الخلاص قد حان ، وأن هواة اليهود ستقوم فى فلسطين

ولكن المعارضة اشتدت عليه ، خصوصا عندما ذهب إلى القسطنطينية فهرب إلى مسقط رأسه ، أزمير وأقام هناك ثلاث سنين ملتزما الحيطة والسرية فى اتصالاته .

ومن العجيب أن دعوته هذه تركت أثرا يشبه العدوى فى الأوساط الإسلامية والمسيحية ، وإنتشرت إشاعات مختلفة فيما بينهم ، فالمسلمون يقولون بظهور المهدى المنتظر عما قريب ، وعودة النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى الحياة الدنيا مرة أخرى ، والمسيحيون يحددون سنة ١٦٦٦ تاريخا لتجلى السيد المسيح على الأرض ، وبالغ بعض المسيحيون فراحوا يبشرون بأن هذه السنة هى سنة الخلاص لليهود أيضا . وحركت هذه الإشاعات رغبة شبتاى صبى فى أن يتمادى مرة أخرى فى ادعاء أنه المسيح المنتظر . فاتجه سنة ١٦٦٢ أو ١٦٦٣ من أزمير الى القدس ثم تركها وحضر الى الإسكندرية ومنها الى القاهرة (١) .

وفى القاهرة تعرف بيهودى من وجهاء المجتمع هو رفائيل يوسف جلبى ، مدير خزينة الدولة ورئيس الطائفة اليهودية بمصر . وقد آمن

---

(١) « أوتصار يسرائيل » ـ دائرة المعارف اليهودية العبرية ـ نيويورك ـ المجلد العاشر ص ٥٢ ـ ٥٦ .

H. Graetz; Histoire des Juifs, traduit de l'Allemand par Moïse Bloch; Paris, 1897 —Tome 5, p. 194-210.

به هذا اليهودى المصرى وأكرمه وأغدق عليه الأموال الطائلة . فقرر أن يقوم برحلة أخرى الى القدس ، مارا بمدينتى غزة والخليل .

كانت الأحوال الإقتصادية فى فلسطين فى ذلك الوقت قد بلغت من السوء درجة جعلت من بقى من أغنياء اليهود بها يهاجرون ، بحيث لم يبق هناك الا قلة من البؤساء والصعاليك . وحتى هؤلاء كانوا فى حال من الضيق واليأس جعلهم يرحبون بأية محاولة للتغيير . وانتهز الفرصة شبتاى صبى ، وراح يعلن البشائر فى كل مكان ، وكثر أتباعه. والتزم هو فى هذه الفترة أن يكثر من الصوم والتقشف والعبادة ، واهتم بتدريس المعارف الروحانية المتضمنة فى كتب « القبالة » اليهودية . بل إنه كان يأخذ بعض ضعفاء العقول ويذهب بهم إلى المقابر فى الليالى المظلمة ، ويمارس عليهم تأثيراً نفسياً بحيث يؤكدون أنهم سمعوا أصواتا فى القبور تهتف وتقول « شبتاى صبى هو المسيح » وفى هذه الفترة ، اتخذ له بطانة من الناس ، كان أقربهم اليه يهودى أفاق معروف بالإجرام إسمه صموئيل فريمو .

وحدث فى ذلك الوقت أن القائمقام (والى فلسطين) إتاوة باهظة على اليهود . ففكر شبتاى صبى فى أن يسوى لهم المشكلة بأن يطلب من صديقه اليهودى المصرى رفائيل يوسف جلبى المساعدة . وفعــلا ترك القدس وعاد إلى القاهرة

وتصادف فى نفس هذه الفترة أنه كانت فى أوربا فتاة يهودية تريد أن تقلد فى قومها ما صنعته جان دارك . كان اسم هذه الفتاة سارة ،

وكانت قد هربت من بولونيا على أثر حملة من حملات اضطهاد اليهود[1]، واستقر بها المطاف فى أمستردام بهولندا . وهناك راحت تبشر بأن الأوان قد آن ليقوم على رأس الشعب اليهودى مبعوث من العناية الإلهية يكون مسيحاً وملكا . وكانت سارة هذه على جانب كبير من الجمال ، بحيث كثر بين المؤمنين بها أهل الريبة والفسوق . وأخذت تطوف أوربا حتى وصلت الى مدينة « ليفورنو » بايطاليا . وما أن سمع شبتاى صبى وهو فى القاهرة بهذه الفتاة حتى أرسل يستدعيها ليتخذها زوجة . أما رفائيل يوسف جلبي فإنه أعطى شبتاى صبى مبلغا ضخما من المال مساعدة منه ليهود القدس فى دفع الإتاوة المفروضة عليهم .

وذهب هذا المسيح الكذاب لأداء المهمة فمر بمدينة غزة ، والتقى هناك بيهودى آخر ، من أصل إشكنازى (المانى) اسمه ناتان بنيامين هاليفى ، الذى يعرف فى تاريخ هذه الحركة باسم ناتان الغزاوى . فجعله شبتاى صبى من صحابته المقربين ، واعلن أنه نبى فى إسرائيل ، واتفق معه على تزييف وثيقة تشهد بأن شبتاى صبى هو المسيح المنتظر . فأحضر قطعة قديمة جداً من رق الغزال ، وأزال منها الكتابة القديمة ، وكتبا عليها نصا يثبت هذه الأكذوبة ، وأظهرا الصحيفة للناس . ثم دخل القدس فى حفل حافل فى أخريات سنة ١٦٦٤ ، فأعلن بنفسه أنه المسيح ، وأنه المتصرف فى مصير العالم كله .

---

(١) تسمى حملات التنكيل باليهود هذه ـ وخاصة فى أوربا الشرقية البوجروم Pogrom وهى غارة كان أعداء اليهود والمتعصبون ضدهم يشنونها على مراكز التجمع اليهودية فيعيثون فيها بالقتل والنهب والاحراق والاغتصاب وانتهاك الاعراض ونحو ذلك .

وثارت ثائرة الحاخامين ، القائمين على أمر الدين اليهودى فى شكله التقليدى العام المتوارث . وجمع الموجودين منهم فى القدس كل قواهم وهجموا على هذا المسيح الكذاب هجوم المستميت حتى طردوه هو وتابعه ناثان الغزاوى . وبمجرد وصول هذا الأخير إلى غزة بعث بمنشور لكل أتباع مسيحه يطلب منهم أن يبشروا فى كل مكان بأن شبتاى صبى - الذى كان مختفيا فى هذا الوقت - سيظهر للناس . وكان أول ظهوره فى مدينة أزمير . وفى عيد رأس السنة اليهودية الموافق يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٦٦٥ ، سارت المواكب من أتباعه تهلل وتنفخ فى الأبواق وتعلن التجلى الأعظم المسيح المنتظر . فاشتد غضب رؤساء اليهود ، وأعلنوا الفتوى الشرعية بإهدار دمه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على المساس به لكثرة أتباعه .

وبدأت مع ذلك فترة صعبة من المناوشات والمعارك بين أتباعه وبين اليهود التقليديين . وفى تلك الفترة أباح شبتاى صبى لاتباعه أن ينطقوا اسم الله الأعظم « يهوه » الذى كان محرما على اليهود النطق به - ومايزال - بسبب الغضب الإلهى الذى أقرّوا بأنه حل عليهم ، والذى انتهى بالسبى البابلى على يد بختنصر . فمنذ هذا الوقت كانوا إذا وصلوا فى قراءتهم إلى هذه الحروف الأربعة « يهوه » نطقوها « آدوناى » أى مولانا . وكان شبتاى صبى يزعم أن غضب الله ارتفع عن الأمة ببعثته وأن الاسم الممنوع قد أصبح مباحا .

وفى يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٦٦٥ ، وكان صاحبنا فى أوج مجده وإنتصاره على الحاخامين اليهود ، استدعى المثول أمام قاضى المسلمين

التركى ، فأشاع أنه سيذهب للقائه ويقيم الدليل على صحة دعواه بعمل بعض المعجزات والخوارق . وانتشرت هذه الشائعات ، وأصبح الناس فى الشوارع والأسواق يحكون القصص الخيالية عن هذه المعجزات . وكثر المؤمنون به فى مدينة أزمير ، حتى لوحظ أن الأطفال كانوا يتغنون بكراماته فى الشوارع . ويقول مؤرخو هذه الفترة من اليهود التقليديين المعادين لحركة هذا الرجل إن السبب فى سكوت دوائر الأمن التركية عنه طيلة هذه المدة انه كان يدفع لهم مبالغ طائلة من المال رشوة حتى يغمضوا اعينهم عنه ، يضاف إلى ذلك ان هؤلاء المسئولين الأتراك كانوا يكرهون اليهود ويحتقرونهم ، ولا يهمهم ان تحدث مثل هذه الفتن الدينية فى اوساطهم .

ومع ذلك فقد وصلت اخبار هذه الفتنة إلى الوزير التركى « كوبرلى » بالقسطنطينية ، وإذا بقاضى ازمير يعلن شبتاى صبى بأنه مطلوب منه التوجه إلى العاصمة فى ظرف ثلاثة أيام . فقال له شبتاى صبى أنه سيذهب ليقيم الدليل على صحة نبوته أمام الوزير . فاستشاط كوبرلى باشا غضبا ، وأرسل إلى قائمقام أزمير أمراً بالقبض على هذا الدجال وارساله فى الحديد ، وتحت الحراسة ، إلى العاصمة .

وتم ترحيله بحراً من أزمير يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٦٦٥ ، ولكن البحر فى فصل الشتاء هذا كان هائجا جدا ، فطالت الرحلة إلى يوم ٤ فبراير سنة ١٦٦٦ ، ولم تصل إلى غايتها ، بل أصيبت السفينة بعطل قرب مضيق الدردنيل ، فأنزل ركابها إلى الأرض ، وأقيمت حراسة مشددة على شبتاى صبى ، الذى استمرت رحلته فى عربة بطريق البر حتى وصل إلى قرية قريبة من القسطنطينية تدعى « كوجوك جكمجى » .

ووصل خبر وجوده إلى يهود العاصمة التركية فخرجوا للاحتفال باستقباله ، فعاد إليه الأمل القديم فى الاستمرار فى إدعاء النبوة ، ولكن أحد الضباط الأتراك الموكلين بحراسته عندما سمعه يردد أنه المسيح المبعوث من السماء صفعه على وجهه علناً ، فحاول أن يستمر فى إدعائه وأدار له الخد الآخر ليصفعه أيضا . وعندما مثل أمام الوزير أحمد باشا كوبرلى سأله من هو ، وماذا دعاه إلى إثارة هذه الفتنة . فأنكر فى إجابته أنه إدعى شيئا مما يقال ، وزعم أنه مجرد رجل دين يهودى من القدس ، يجوب البلاد ليجمع الصدقات . ولكن كوبرلى لم يأخذ بقوله وأمر بوضعه فى السجن . ثم نقل من سجن إلى سجن خشيـــة أن يحـاول المؤمنون به إخراجه بالقوة او بالحيلة ، حتى وضع فى النهاية فى قلعة حصينة على الدردنيل اسمها « إقليد البحر » أى مفتاح البحر ، ومنـــذ ذلك الوقت يسميها اتباع شبتاى صبى إلى اليوم « إقليد العـــز » ويعظمونها ، لإرتباطها بسيرة زعيمهم .

وبعد اتصالات مختلفة أحضره حاكم ادرنة إلى هذه المدينة التى كانت مقرا للحكومة فى ذاك الوقت . وفى يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٦٦٦ ادخل شبتاى صبى للمثول أمام السلطان التركى محمد الرابع . وفى هذه المقابلة أعلن أنه يريد الدخول فى الإسلام . ووافق السلطان وحاشيته ، وأعلن شبتاى صبى اعتناقه للديانة المحمدية ، وأصبح اسمه محمد أفندى ولقبه « قافوجى باشى إيطراق » ومعناها خادم الأعتاب ، كما اعلن ان زوجته سارة قد أسلمت أيضا وأصبح اسمها فاطمة قادن ، أى السيدة فاطمة :

وبالرغم من اسلامه ، واتقانه للغة العربية والتركية ودراسته للقرآن

وتفسيره على يد مفتى الاتراك ، فإنه لم يقطع الأمل فى قيادة حركة جديدة بين اليهود . وقد كتب للمؤمنين به من اليهود ، بعد دخوله فى الإسلام بتسعة أيام فقط ، رسالة يقول فيها : « الآن الحقونى بنسل اسماعيل (العرب) ، ومع ذلك فأنا أخوكم محمد قافوزجى باشى إيطراق » وكان كلما قابل بعض أتباعه القدماء أنكر الإسلام ، وافهمهم أنه مجرد ستار يحتمى به ويتخفى وراءه . فإذا التقى بالأتراك راح يتهم اليهود بالسخرية من الإسلام والدس على المسلمين ، محاولا بذلك استمرار الفتن فى ادرنة والقسطنطينية . وبعد سنوات احس الأتراك بخطورته فنفوه إلى البانيا ، وحددوا اقامته فى قرية داخلية سكانها جميعاً من الأرناءوط ، ويصعب على اليهود الاقتراب منها ، وهى قرية « الباسان » وهناك عاش يتصل باليهود عن طريق الرسائل والمندوبين إلى أن مات فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٦٧٥ بمرض الكوليرا ، ودفن فى مقابر المسلمين الأتراك فى هذا المكان .

وأتباع هذا المسيح الكذاب يسمون « الدونمة » ، وقد كتبها بعض المؤرخين « الدومنة » ، ويظهر أن التسمية كانت فى الأصل تعنى الفرقة ذات الأصلين اليهودى والمسلم أو التركى . وأتباع هذه الفرقة يسمون أنفسهم « المؤمنين » وهم قليلو العدد لايتجاوزون بضعة آلاف ؛ أكثرهم متمركز فى إقليم سولونيك .

والذى دعانا إلى تخصيص هذا الوجه اليهودى العجيب بوقفة طويلة هنا ، هو أن تلك الظاهرة ، وهى ظاهرة الازدواجية الدينية عند بعض طوائف اليهود تكررت فى تاريخهم ، فقد ظهر اليهود « المارانوس » فى

البرتغال على أثر محاكم التفتيش الكاثوليكية ، وكــــونوا فرقة يهودية فى جوهرها كاثوليكية فى مظهرها الخارجى فهم يبنون معابدهم على شكل الكنائس ، ويظهرون فى الحياة العامة بمظهر لايميزهم عن الكاثوليك، بينما هم فى عباداتهم وعقيدتهم يهود متعصبون حاقدون على الأمم الاخرى والعجيب انهم بعد نهاية عصور الاضطهاد الدينى لم يرجعوا عن هذا المظهر الذى آتخذوه لأنفسهم واصبحوا فرقة وحدهم .

كذلك يهود الدونمة الذين استمروا فى التخفى وراء واجهة اسلامية ، مع بقائهم على الولاء لأصلهم اليهودى ، واعتقادهم أن شبتاى صبى لم يمت وأنه سيعود فى يوم ما لممارسة سلطته الزمنية والدينية مسيحا وملكا.

وبعد موت شبتاى صبى ورثه ابنه يعقوب صبى فى رئاسة الفرقة ، فادعى هو أيضا أنه المسيح وأمر أتباعه باظهار الديانة الإسلامية ، فتبعه نحو أربعمائة يهودى ، أعلنوا الاسلام سنة ١٦٨٧ . وسافر هو إلى مكة للحج سنة ١٦٩٠ ، وفى طريق العودة مرض ومات فى الاسكندرية .

وورثه ابنه « بركيا » (١٦٩٥ - ١٧٤٠) وادعى أيضا أنه المسيح المنتظر . ثم جاء واحد من نفس فرقة الدونمة فزعم نفس الزعم وقال إنه المسيح ابن يوسف .

وفى نفس تلك الفترة ظهر مسيح آخر من أتباع شبتاى صبى اسمه مردخاى من مدينة ايزنشتادت . وقاد حركة كبيرة مؤداها أن رجوع شبتاى صبى من السماء ستكون بعد ثلاث سنوات . ومرت هذه المدة دون أن يرجع صاحبه ، فقلق أتباعه ، ولكنه وجد لهم فتوى أقنعتهم وهى أن شبتاى صبى قد أضاع صفة المسيح لأنه عندما ظهر فى هذه

الدنيا أصبح كثير المال واسع الثراء ، ومن علامات المسيح المنتظر أنه يركب حمارا ، ولما كان هو نفسه فقيرا جدا ، فقد ركب لهم حمارا وادعى أنه هو شخصيا المسيح ابن داود . ووصل صيته إلى ايطاليا ، فدعاه يهود روما للاحتفال به سنه ١٦٨١ ، ولكن قساوسة محاكم التفتيش علموا بأمره وقرروا قتله ، فهرب من روما إلى برلنده وظل مختفيا بها إلى أن مات .

ومن أشهر الذين ادعوا المسيحانية يعقوب فرانك المولود سنة ١٧٢٦ . وهو مؤسس فرقة مشهورة باسم الفرانكية . وكان يعتقد بتقمص الارواح ، ويقول إن روح المسيح سكنت أولا فى سيدنا داود ، وفى النبي إلياهو ، ثم انتقلت إلى يسوع المسيح (عيسى بن مريم) ، ومنها إلى نبي المسلمين محمد صلى الله عليه وسلم ، وحلت بعد ذلك فى شبتاى صبي ، وتلاميذه ، حتى وصلت إلى بركيا ، ثم انتقلت الصفة المسيحانية اليه هو شخصيا . نسمى نفسه ، « سانتو سنيور » أى السيد المقدس ، وأعلن الكفر بالتلمود ، وزعم أتباعه أنه يصنع المعجزات . بدأ ذلك كله فى إقليم « بودوليا » فى الجنوب الغربى من روسيا ، بالقرب من منطقة غاليسيا . وقد انتهى بقرار من السلطات الروسية بطرده هو وأتباعه من البلاد . ولكنه عاد اليها سنة ١٧٥٩ ، وأعلن هو وتلاميذه الدخول فى الديانة المسيحية ، وكان عددهم جميعا حوالى ألف . ولكن الإشاعات انتشرت بأنهم تنصروا فى الظاهر فقط . فقبض على يعقوب فرانك وقدم للمحاكمة ، ويقول المؤرخون له من اليهود الفرانكية : ان القاضى الذى نظر فى أمره كان ملحدا لا يؤمن بالله ولا بدين من الأديان ؛ فحكم عليه بالسجن . وقد مات سنة ١٧٩١ ودفن فى المقابر المسيحية بمدينة أوفنباخ .

الفصل الثالث

الشريعة الموسوية وتطوير الدين اليهودى

يتبين لنا من تلك الجولة التى قمنا بها حتى الآن خلال النصوص المقدسة عند اليهود ، ومما ذكرناه من وصولهم فى وقت متأخر ، إلى الاعتقاد باليوم الآخر ، والأمل فى مجىء المسيح المخلص ، وما كان من استغلال بعض المفتونين أو الدجالين لهذا الأمل ، أن الفكر الدينى لدى اليهود كان يتسم بظاهرة ينفرد بها دون الأديان السماوية ، وهى بقاء بابه مفتوحا على مصراعيه لكل ألوان التطور ، بحيث أصبح اليهودى اليوم لايشبه ماكان عليه اليهود على أيام داود وسليمان ، فضلا عن أولئك الأقوام الذين عاشوا فى البداوة تحت حكم القضاة ، أو الرعيل الأول الذى اتبع تعاليم موسى وهارون . فالنصوص تغيرت ، والظروف التاريخية كذلك ، والعقائد والطقوس أيضا ، بحيث يجد مؤرخ الفكر اليهودى نفسه أمام عدة أديان ومجتمعات مختلفة ، غريبة بعضها عن بعض ، لاتتفق إلا فى الاسم ، وتدخل بسببه فى ركام متكتل .

ولو أننا ألقينا نظرة على الإسلام وحاولنا المقارنة من وجهة النظر هذه ، لوجدنا أن النص المقدس الذى بين أيدى المسلمين ، وهو القرآن الكريم ، قد جاء به نبى واحد هو سيدنا محمد صلى الله عليه ، وسلم ، وأنه كمل كله فى حياته ، على مدى ثلاث وعشرين سنة ، كان أثناءها حريصا على تقييده بالكتابة ، يأمر بذلك كتبة الوحى ، ويمليه عليهم ،

ويراجعه معهم . وكان يمنع من كتابة ماليس بقرآن موحى به من حديثه الشريف ، حتى لاتختلط النصوص . وكان يشجع على حفظ القرآن وترتيله بحيث لم يكن هناك أدنى شك فى هذا النص عند وفاته صلى الله عليه وسلم ، وعندما جمعه ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان من الصحابة الحافظين له ومن النسخ النبوية نفسها ، ورتبه فى صورته المعروفة لنا . وقد تم ذلك كله بعد وفاة الرسول بأقل من عشرين عاما . فهذا الكتاب الذى بين أيدى المسلمين يبدو ولا سبيل إلى تشبيهه من قريب أو من بعيد بالنصوص المقدسة التى بين أيدى اليهود ، فالعهد القديم وحده يستغرق أجيالا من الأنبياء المتعاقبين على مدى ألف سنة تقريبا ، ولو أننا أضفنا إلى ذلك المشنا والتلمود ، وهى نصوص مقدسة عندهم يكفّرون من رفضها لوجدنا تراثا شرعيا يغطى ألفى ، وهى فترة لايمكن تصور مجتمعين متشابهين أحدهما على طرفها الأول والثانى على طرفها الأخير ، دون أن يربطها نص واحد .

ولو أننا حاولنا نفس تلك المقارنة بين النص المقدس المسيحى ، وهو العهد الجديد ، وهذا التراث اليهودى ، للاحظنا أن السيد المسيح قام ونشر دعوته فى وقت قصير جدا ، حوالى ثلاث سنين ، ثم حمل حواريوه وتلاميذه دعوته وأقواله من بعده ، ثم تم الاتفاق على روايات معينه للأناجيل وأعمال الرسل ورسائل القديسين الأوائل ، منذ القرن الثانى بعد المسيح ، استبعد ماسواها من نقول ونصوص ، بدا لآباء الكنيسة المسيحية القديمة أنها غير جامعة للشروط التى يتطلبونها فى النصوص المقدسة . وبعد ذلك أغلق الباب ، فلم يعد هناك من سبيل إلى تصور نص يرتفع إلى مستوى الثقة والقدسية التى للعهد الجديد .

ومهما قيل بعد ذلك من أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا ـ ومايزال فى رأى بعض الفقهاء ـ فى الإسلام والمسيحية جميعا ، ومهما قيل من الاعتقاد فى عصمة البابوات أو الأئمة لدى طوائف من المسيحيين أو المسلمين ، فالذى لاشك فيه هو أن القرآن يقف محورا للشريعة الإسلامية كما أن الإنجيل هو عصب الديانة المسيحية ، بينما يبدو الأمر مختلفا جدا فيما يتصل بتوراة موسى فى الديانة اليهودية . فهى لم تعد غير حلقة فى سلسلة طويلة جدا من نصوص لها عند اليهود نفس التقديس ، تشمل كما قلنا كتب الأنبياء الأوائل والأواخر ، وأسفار الحكمة ، ثم تنسحب على المشنا والتلمود والمدراش ... الخ . وبالرغم مما يقال فى الأوساط الدينية اليهودية من أن كل هذه النصوص تتفق بعضها مع بعض ، وأنها ترتفع ـ بطريقة تعبدية ميتافيزيقية بحتة ـ إلى سيدنا موسى ، فان التطور الفكرى مع الزمن ، والتأثر بالتيارات الروحية والفلسفية الأجنبية يبدو واضحا . ولعل من المفيد هنا أن نعطى للقارىء العربى فكرة عن ذلك من خلال الباب المسمى « فقرات الآباء » من الجزء الرابع من المشنا ، حيث يبدو أثر الفكر اليونانى بحدوده ورسومه وتقسيماته ، ومثله الخلقية والاجتماعية واضحا . جاء فى الفصل الأول من هذه الفقرات :

١ ـ تلقى موسى التوراة من سيناء ، وبلغها ليوشع ، ويوشع الأوائل ، والأوائل للأنبياء ، وبلغها الأنبياء لرجال الكنيسة الكبرى . وهم أوصوا بثلاثة أشياء فقالوا : كونوا مدققين فى الحكم ، وأكثروا من التلاميذ ، واجعلوا سياجا للتوراة .

٢ ـ وكان شمعون الصديق من بقايا رجال الكنيسة الكبرى ، وكان يقول :

إن الدنيا تقوم على ثلاثة أمور ، التوراة ، والعبادة ، والإحسان .

٣ - وتلقى أنطيجونوس السوخى من شمعون الصديق ، وكان يقول : لاتكونوا كعبيد يخدمون السيد بغرض تسلم المكافأة ، بل كونوا كعبيد يخدمون السيد بلا غرض فى تسلم مكافأة ، فعندئذ تحل عليكم التقوى من السماء .

٤ - وعن هؤلاء تلقى يسّى بن يوعزر الصردى ، ويسّى بن يوحنا المقدسى . وكان الاول يقول : ليكن بيتك منتدى للحكماء ، وتعلق بتراب أقدامهم ، وكن متعطشا إلى الارتواء بكلامهم .

٥ - وكان الثانى يقول : ليكن بيتك مفتوحا للجميع ، وليكن الفقراء كأهل بيتك ، ولاتكثر الحديث مع النساء . قالوا حتى حديث الإنسان مع إمرأته ، فكيف بأمرأة غيره . ولذلك قالت الحكماء: كل من يكثر الحديث مع النساء يجلب شرا على نفسه إذ يهمل من وصايا التوراة ، ونصيبه فى النهاية جهنم .

٦ - وأخذ يوشع بن فرحيا ، ونتاى الاربلى عنهما . وكان الاول يقول : اتخذ لك أستاذا ، واغنم صاحبا ، واحكم على كل إنسان بالخير .

٧ - وكان الثانى يقول : ابتعد عن جار السوء ، ولا تؤاخ الشرير ، ولاتتهرب من القصاص .

٨ - وأخذ عنهما يهوذا بن طباى ، وشمعون بن شاطاح . وكان الاول يقول : لاتسعَ بنفسك إلى القضاء فى الخصومات . وإذا وقف أصحاب الخصومة أمامك فليكونوا فى عينيك كالمذنبين ، فإذا ما انصرفوا من

من ادنك وقد حكمت بينهم وقبلوا حكمك فليكونوا فى نظرك كالأبرياء .

٩ - وكان الثانى يقول : أكثر من استجواب الشهود ، وكن حذرا فى كلامك ، حتى لايعتمدوا عليه فى الكذب .

١٠ - وأخذ عنهما شمعيا ، وأبطليون . وكان الأول يقول : عليك بحب العمل ، وكره التملق ، وإياك والسعى للتقرب من العظماء .

١١ - وكان الثانى يقول : أيها العلماء احترسوا فى الفظكم حتى لاتخطئوا خطيئة توجب عليكم السبى ، فتنفون إلى حيث المشرب الردىء ، فيشرب تلاميذكم الآتون بعدكم ويموتون ، ويستباح اسم رب السماء .

١٢ - وأخذ عنهما هليل ، وشمَّاى وكان الأول يقول : كونوا من تلاميذ هارون فقد كان يحب السلام ، ويبحث عنه جاهدا . وكان يحب الخليقة ، ويقربها من التوراة .

١٣ - وكان يقول : الساعى للإستزادة من العظمة يفقد ماعنده منها ، والذى لايستزيد من المعرفة ينتقصها ، والذى يرفض العلم يستحق القتل والمعتمد على تاجه يسقط .

١٤ - وكان يقول أيضا : إذا لم أكن لنفسى فمن يكون لى ؟ وإذا كنت لنفسى فقط فمن أكون ؟ وإذا لم أبدأ الآن فمتى ؟

١٥ - وكان شمَّاى يقول : أجعل التفقه فى الشريعة عادتك ، وتكلم قليلا واعمل كثيرا ، واستقبل كل إنسان بوجه بشوش .

١٦ - وكان سيدنا جمليئيل يقول : اتخذ الك معلما ، وتخلص باليقين من الشك ، وحتى زكاة العشر لاتؤدها بدون حساب :

١٧ - وكان شمعون ابنه يقول : نشأت طيلة حياتى بين العلماء فلم

أجد خيرا من الصمت . وليس التفقه فى العلم هو الأصل ، بل الأصل هو العمل . ومن كثر لغطه كثر غلطه .

١٨ - وكان يقول أيضا : الدنيا تقوم على ثلاثة أشياء ، على الحق ، والعدل ، والسلام ، كما قال : « احكموا عند أبوابكم بالحق والعدل والسلام » . (زكريا ٨/١٦) .

وهذا النص من المشنا ، قد دخل فى الصلوات اليهودية ، ليفهم منه المتعبد غلطا بطبيعة الحال أنه من موسى إلى مابعد ميلاد المسيح ، تتصل أجيال متعاقبة من القدسية السماوية فى إسرائيل .

وقد ذكرنا من قبل أن البون شاسع جدا بين الشريعة الموسوية الفطرية وما أعقبها ، وسنعطى هنا خطوة من الخطوات المتأخرة جدا لما انتهت اليه العقيدة اليهودية فى العصور الوسطى ، بعد قرون طويلة من الاختلاط بالمسيحية والاسلام ، تتمة لمعرفة الخطوط العريضة لتطور الفكر الدينى اليهودى ، وما صحبه من فرق وطوائف مختلفة . وهذا النص هو مايسمى « الأصول الثلاثة عشر » التى وضعها موسى بن ميمون وجعلها أركان الإيمان اليهودى:

١ - أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق ، تبارك اسمه ، هو الموجد والمدبر لكل المخلوقات . وهو وحده الصانع لكل شىء فيما مضى وفى الوقت الحالى وفيما سيأتى .

٢ - أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق ، تبارك اسمه ، واحد لايشبهه فى وحدانيته شىء بأية حال ، وهو وحده إلهنا كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون إلى الأبد .

٣ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق ، تبارك اسمه ، ليس جسما ، ولاتحده حدود الجسم ، ولاشبيه له على الإطلاق .

٤ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق ، تبارك اسمه ، هو الأول والآخر .

٥ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق ، تبارك اسمه هو وحده الجدير بالعبادة ، ولا جدير بالعبادة غيره .

٦ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن كل كلام الأنبياء حق .

٧ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن نبوة سيدنا موسى عليه السلام كانت حقا ، وأنه كان أبا للأنبياء ، من جاء منهم قبله ، ومن جاء بعده

٨ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن كل التوراة الموجودة الآن بأيدينا هى التى أعطيت لسيدنا موسى عليه السلام .

٩ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن هذه التوراة غير قابلة للتغيير ، وأنه لن تكون شريعة أخرى سواها من قِبَل الخالق ، تبارك اسمه .

١٠ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق ، تبارك اسمه ، عالم بكل أعمال بنى آدم وأفكارهم ، لقوله « هو الذى صور قلوبهم جميعا وهو المدرك لكل أعمالهم » .

١١ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق تبارك اسمه ، يجزى الحافظين لوصاياه ، ويعاقب المخالفين لها .

١٢ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بمجىء المسيح ، ومهما تأخر فأنى أنتظره كل يوم .

١٣ ـ أنا أومن إيمانا كاملا بقيامة الموتى ، فى الوقت الذى تنبعث فيه بذلك إرادة الخالق ، تبارك اسمه ، وتعالى ذكره الآن وإلى أبد الآبدين .

وواضح أن علاّمة اليهود فى العصور الوسطى الإسلامية ، وطبيب الدولة الأيوبية فى مصر ، موسى بن ميمون ، قد وصل بالعقائد اليهودية فى هذه الأصول الثلاثة عشر إلى المستوى الفكرى الموازى لنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين ، كما أن تأثره بها واضح أشد الوضوح ، فالخالق عنده كما يبدو فى الأصل الأول من هذه الأصول قد خلعت عليه ربوبية فلسفية لاتكتفى بما كان يكتفى به القصص البسيط فى سفر التكوين ، من أنه « فى البدء خلق الله السموات والأرض ... » بل وضعت من حوله الشروط والاحتياطات ، فهو وحده الذى خلق والذى يخلق ، حتى يتم النص على اختصاصه بهذه القدرة ، منذ الأزل وإلى أبد الآبدين .

وهو واحد ، ولكنه ليس فى بساطة الإله الواحد الذى ورد نص التوراة بوحدانيته فى سفر التثنية (٦/٤) إذ يقول : « إسمع إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد » وهى الآية التى تقوم مقام شهادة أن لا إله إلا الله عند المسلمين . فهذا الرب الواحد المعلن عن وحدانيته فى التوراة يتركها مطلقة بلا قيد ولا شرط ، كما أنه يجعل الإيمان وجدانيا لا عقلانيا ، إذ يقول بعد هذه الآية مباشرة : فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن نفسك ومن كل قوتك . » أما موسى بن ميمون فإنه يعلن عن وحدانية لا شبيه لها على الإطلاق ، ثم ينص ، فى الأصل الثالث ، على أن هذا الوحد ليس بجسم ولا تحده حدود الجسم ، وأنه

هو هو منذ الأزل وإلى الأبد ، أو كما يقول فى الأصل الرابع إنه الأول والآخر . ولا يكتفى بهذا بل ينص على تنزيهه سبحانه وتعالى عن الشريك فى قوله فى الأصل الخامس إنه وحده الجدير بالعبادة ولا يستحق العبادة غيره .

كل ذلك يبدو فيه بوضوح أثر الفكر الدينى الإسلامى الذى لم يكن معروفا على عهد التوراة ، يوم كان الإله الرب الواحد لايعنيه إلا شعبه المختار ، ولايغضبه أن تكون للأمم الأخرى آلهة أخرى ، ولايتحرج الراوية من أن يقارن ـ على لسان موسى نفسه ـ بين هذا الرب وغيره من الأرباب فيقول (خروج ١٥/١١ - ١٨) : « من مثلك بين الآلهة يارب . من مثلك جليل القدسية ، مهيب التسابيح ، صانع المعجزات . تمد يمينك فتبتلعهم الأرض . ترشد برأفتك الشعب الذى افتديته ، تهديه بعزتك إلى مسكن قدسك . سمعت الأمم فارتعدت . أخذ الرعب سكان فلسطين . ذهل إذ ذاك زعماء أدوم . أقوياء مؤاب أخذتهم الرجفة . ماج كل سكان كنعان . وقعت عليهم الرهبة والهلع . من عزة ذراعك يصمتون كالحجر ، حتى يعبر شعبك يارب ، حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته . تأتى بهم فتغرسهم فى جبل ميراثك ، فى الموضع الذى أقمته يارب لسكناك المقدس ، الذى هيأته يداك يارب . الرب يملك إلى الدهر والأبد . » ونلاحظ أن هذه الأبدية الأخيرة تفهم تأويلا ، فما كانت اللغة العبرية تحتوى على كلمة صريحة لهذه الفكرة حينئذ ، وهى بحرفيتها فى الآية تعنى « الرب يملك إلى (نهاية) العالم والزمن » .

وفى هذه الأصول الثلاثة عشر تأتى بعد ذلك عقيدة تعلن أن كل كلام النبيين حق وخاصة نبوة موسى ، كما فى الأصلين السادس والسابع .

ثم تقفز فكرة صوفية إسلامية لها شبيه فى المسيحية حول صاحب الدعوة ومؤسس الدين ، فكثير من متصوفة المسلمين يقولون ان العالم كله قد خلق من نور النبي صلى الله عليه وسلم . يقول البوصيرى فى البردة :

وَرَاوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ
عن نفسِهِ فأراها أيَّما شَمَمِ
وأكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها ضرورتُهُ
إنَّ الضرورةَ لا تعدو على العُصُمِ
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ
لولاه لم تخرُجِ الدنيا من العَدَمِ
محمدٌ سيد الكونينِ والثَقَلَيْـ
نِ والفرِيقَيْنِ من عُرْبٍ ومن عَجَمِ

ويقول فى الهمزية :

أنتَ مصباحُ كلِ فضلٍ فما تصـدُر إلا عن ضوئك الأضواءُ
لك ذاتُ العلوم من عالم الغيبِ ومنها لآدمَ الأسماءُ
لم تَزَلْ فى ضمائرِ الكونِ تُختَا
رُ لك الأمهاتُ والآباءُ
ما مضت فترةٌ مِنَ الرُسْلِ إلا
بشرتْ قومَها بك الأنبياءُ
تتباهى بك العصورُ وتسمو
بك علياءُ بعدَها علياءُ

أما فى المسيحية فإن سيدنا عيسى عليه السلام قد جعل واحدا من الأقانيم أو العناصر الأزلية الأبدية الثلاثة التى تنسبك فيها ربوبية الإله الواحد ، وهى الأب والابن والروح القدس ، وسيدنا عيسى المسيح هو الابن فى هذا الثالوث المقدس حسب اعتقاد النصرانية .

فعلى ضوء الفكرة الصوفية الاسلامية ، والفكرة اللاهوتية المسيحية نجد موسى بن ميمون يقول فى الأصل السابع إن موسى كان أبا للأنبياء ، من جاء منهم من قبله ، ومن أتى بعده أيضا .

وفى الأصل الثامن يأتى بأمر لم يكن معروفا عند من قبله من اليهود الأقدمين وهو وجوب الايمان بأن كل التوراة الموجودة بين أيدينا الآن هى نفسها التى أعطيت لسيدنا موسى عليه السلام . ويستكمل فكرته فى الأصل التاسع بأنها غير قابلة للتغيير ، وأنه لن تكون شريعة أخرى سواها من قبل الخالق تبارك اسمه . وهو هنا يقلد المسلمين تقليدا صارخا فى قولهم بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين ، وأن القرآن الكريم هو خاتم الرسالات التى أنزلها الله إلى رسله الكرام .

ويطول بنا القول لو حاولنا أن نناقش علامة اليهود ابن ميمون فى ذلك ، فالنبوة فى إسرائيل بقيت كما رأينا مفتوحة مستمرة بعد موسى ، والتوراة التى بين أيدينا كانت قد ضاعت أكثر من مرة ، وكانت تروى مشافهة مدة مديدة من الزمان فى أوساط مختلفة من الرواة ، بحيث لم تأت إلى أيدينا إلا بعد تنسيق وتجميع وزيادة وحذف ، كما بيناه فى

حديثنا عن مصادر نص التوراة ، وعن الابوكريفا (الكتب غير القانونية) .

وفى الأصل العاشر يبدو أثر عقيدة الأشاعرة المسلمين ، وهى عقيدة الدولة الأيوبية التى كان ابن ميمون كبير أطبائها ، واضحا . فهو ينص على ضرورة الإيمان بإثبات علم الله بأعمال الناس ونواياهم ، مقدما بذلك للإيمان بالثواب والعقاب ، فى الأصل الحادى عشر . ونحن نعلم أن الأشاعرة كانوا قد وقفوا موقفا وسطا حول أفعال العباد بين رأى المعتزلة الذين كانوا يقولون بحرية الإنسان ، وأنه هو الذى يخلق أفعاله ، وينكرون القضاء والقدر ، وبين بعض غلاة أهل السنة وطوائف من الجبرة الذين كانوا يقولون بأن الانسان مسير لا مخير وأن كل ما يصدر عنه من أعمال إنما يأتى بإرادة الله . وكان المعتزلة يعارضون فى ذلك ويقولون : إذا كان الكافر يكفر وفقا لإرادة إلهية بذلك ، وإذا كان الفاسق والقاتل والسارق يرتكبون جرائمهم هذه بإرادة من الله فإن معاقبته لهم عليها تكون غير عادلة . وتوسط أبو الحسن الأشعرى فقال إن القضاء والقدر هو شىء سبق فى علم الله لا فى إرادته ، فالله يعلم بعلمه الكامل الذى لا تحده حدود بما سيأتيه عباده من خير أو شر ، ولكنه لم يجبرهم على شىء مما يفعلون . ولم يأخذ موسى بن ميمون بفلسفة الأشاعرة هنا فحسب ، بل زادها وضوحا وشرحا فى كتابه المشهور فى العقائد اليهودية الذى سماه « دلالة الحائرين » ، وهذه نقطة من النقط القليلة التى خالف

فيها ابن ميمون سلفه سعديا جأون ، سعيد بن يوسف الفيومى ، الذى ألف هو أيضاً كتابا فى العقــائد اليهودية سماه « كتاب الأمانات والاعتقادات » ، وقال فيه بحرية الخلق فى أفعالهم ، وهو رأى المعتزلة الذين عاصرهم فى بغداد .

اما الأصلان الثـانى عشر والثـالث عشر فإنهما يجمعان العقيدتين الرئيسيتين اللتين شرحناهما من قبل ، وشرحنا أنهما من المعتقدات اليهودية غير الموسوية التى انبثقت فى مجتمعهم فى الأيام الحالكة المليئة بالنكبات التى بدأت بتصدع مملكة سليمان بعد موته مباشرة ثم انتهت بالسبي البابلى أولا ، ثم الشتات والتشرد الرومانى (الدياسبورا) ، ثانيا . هاتان العقيدتان هما كما قلنا : المسيحانية ، أو الايمان بمجىء المسيح المنتظر ، وكذلك الإيمان بالقيامة وبعث الموتى فى اليوم الآخــــر .

فنحن كما أسلفت القول قد ابتعدنا مع أحبار المشنا ، ومع معتقدات سعديا الفيومى ، وأصول موسى بن ميمون بعدا شديدا عن تلك الشريعة البدوية البسيطة التى تضمنتها التوراة ، ترسلها موجزة ، مباشرة ، لاتحاول فيها أن تفلسف شيئا أو تأوله .

ولنأخذ مثلا الوصايا العشر التى وردت فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج ، وتكررت فى الإصحاح الخامس من سفر التثنية على نحو يبدو منه أنهـا كانت عصب الشريعة الموسوية . تقول هذه

اوصايا ، والنص هنا من سفر الخروج : « ثم تكلم الله بجميع هذا الكلام ، قائلا :

١ - أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر ، من دار العبودية . لايكن لك آلهة أخرى أمام وجهى .

٢ - لاتصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ، مما فى السماء من فوق ، ولا مما فى الأرض من تحت ، ولا مما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لها ولا تعبدها ، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور ، أتعقب ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيـــل الثالث والرابع من أعدائى ، وأصنع إحسانا إلى ألوف من أحبـــائى وحافظى وصاياى .

٣ - لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يبرىء من ينطق باسمه باطلا .

٤ - أذكر يوم السبت لتقدسه فى ستة أيام تعمل وتنجز كل أعمالك واليوم السابع سبت الرب إلهك ، لاتصنع فيه عملا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى فى داخل أبوابك . لأن الرب خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيها فى ستة أيام ، وفى اليوم السابع استراح . ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه .

٥ - أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك .

٦ - لا تقتل .

٧ - لا تزْنِ .

٨ - لا تسرق .

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور .

١٠ - لا تشتهِ بيت قريبك ، لا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك .

الفصل الرابع

الشعائر اليهودية

١ ـ الصلاة

وحتى الطقوس والعبادات اليهودية تطورت جنبا إلى جنب مع تطور العقائد ، ولسنا نريد أن نقول فى هذا الموضوع الحساس برأينا ، بل نقتطف اللباب من المقدمة التى كتبها أحد علماء الشريعة اليهودية المصريين ، وهو الدكتور هلال يعقوب فارحى لترجمته لمجموع نصوص الصلوات اليهودية الذى سماه « سدور فارحى » وطبعه فى القاهرة سنة ١٩٠٧ ، يقول : (١)

ونرى أن تأدية الصلاة والعبادة كانت منذ أول وجود الجنس البشرى ، وذلك عندما أدرك بنو البشر وجود قوة إلهية فائقة ، وضعف جنسهم ، وأن حياتهم ووجودهم متوقفان عليه تعالى .

وأول تأدية شكر وعبادة من هذا القبيل كانت تقدمات قايين وهابيل (تكوين ٤ / ٣ - ٤) . وسفر التكوين يذكر جملة صلوات متفرقة وعبادات من الآباء من هذا القبيل . وتذكر الأسفار التالية فى الكتاب أنواع التقدمات والقرابين التى قرر القرار عليها رسميا ، وكانت تقدم عن يد

---

(١) سدور فارحى ، عرب يتلم : لدكتور هلال يعقوب فارحى - طبع فى مطبعة الأدون روبرتو موسكوفتش بمصر ، سنة ١٩١٧ - ص ٤ وما بعدها .

الكهنة ، فى أمكنة مخصوصة للعبادة ، وتذكر أيضا صلوات متفرقة لرجال الله وأنبيائه (تكوين ١٨/٢٣ و ١٧/٢٠ و ١٢/٢٤ و ٢٨/٢١ و ٩/٣٢ خروج ٣٢/١١ عدد ١٢/١٣ يوشع ٦/٧ صموئيل الأول ١/٢ و ٢٣/١٢ الملوك الأول ٨/٢٢ و ١٧/٢٠ يوئيل ١٠/٢ الملوك الثانى ٢/٢٠ دانيال ٩/٤ عزرا ٦/٩ نحميا ١/٤ ... الخ) .

ولذلك العهد لم تكن الصلاة محددة وإجبارية ؛ بل كانت تتلى ارتجاليا ، حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية والعمومية .

وعندما خرب الهيكل وسبى بنو إسرائيل من بلادهم إلى بابل وبطلت التقدمات والقرابين ، وضعت الصلوات بدلا منها إلى يومنا هذا . وهذه العبادات بالصلوات تفوق كثيرا العبادات القديمة بالذبائح والتقدمات . جاء فى المشنا (البركات ٣٢) أن الصلاة أفضل من القرابين . فإن العبادة بالتقدمات هى عبارة عن تقدمة شىء من مال الإنسان ، أى مادة حسية أرضية على مذبح مادى ، بخلاف العبادة الروحية بالصلوات ، فإنها إظهار عواطف وإحساسات وتقدمة شكر روحية صادرة من نفس الإنسان على مذبح قلبه وعقله وشهواته الجسدية .

وقد أظهر الحق سبحانه وتعالى إرادته ورغبته فى أفضلية هذه العبادة على التقدمات بلسان أنبيائه ، وبين لنا أن التوبة الحقيقية ، والأعمال الخيرية الصالحة وتجنب عمل الشر أفضل من التقدمات والذبائح (إشعيا / ١١ - ١٢) وأن الصلاة تقوم مقامها (هوشع ١٤/٣) .

وما أفضل الإنسان الذى يشعر بضعفه وبخطيئته واحتياجاته ، فيتكل عليه تعالى ، وعلى قدرته ومحبته ، و يظهر إحساساته له شخصيا رأسا ،

ويقدم له الشكر على نعمه وخيراته ، ويكشف له قلبه وضميره ، ويعترف أمامه بذنوبه وخطاياه وعجزه ، ويطلب إليه المغفرة والعفو ، ويلتمس منه سد حاجاته والمعونة والمساعدة فى أوقات الضيق والشدة ، ويلقى عليه رجاءه عالما بأنه رحوم ورؤوف ، يقبل صلواته ، ويمنح طلباته بكثرة محبته ورأفته ورحمته ، ويقبل التائبين والخطاة ، ويساعد المحتاجين الذين يلجأون اليه ويدعونه ، ويعزى المصابين والحزانى ، وهو الصديق الوحيد فى وقت الضيق ، وهو قريب أن يستجيب صلاة كل من يدعوه ، فإنه استجاب صلاة موسى ، ورفع الوباء عن مصر ، وشفى مريم ، وقبل صلاة إيليا وإليشع ، لاجل شفاء الاولاد وتوبة أهل نينـــوى ، وعفى عنهم ...

والصلاة على نوعين . فردية ، أى شخصية ، ومشتركة ، أى عمومية .

أما الفردية فهى صلوات ارتجالية من أفراد ، تتلى حسب الظروف والاحتياجات الشخصية ، ولا علاقة لها بالطقوس والمواعيد والمواسم ، ولدينا أمثلة متعددة من هذا القبيل فى الكتاب المقدس ، مثل صلاة إبراهيم لأجل خلاص سدوم ، وأيضا لأجل شفاء أبيمالك (تكوين ١٨ / ٢٣ - ٣٣) وصـــلاة يعقوب لأجل خلاصه من عيسو أخيه (تكوين ٣٢ / ٩ - ١٢) ، وصلاة موسى لأجل بنى إسرائيل (خروج ٣٢ / ٣١ - ٣٢) ولأجل شفاء مريم (عدد ١٢ / ١٣ - ١٤) وصـــلاة يشوع لاجل محاربة عاى (يوشع ٧ / ٦ - ٩) وهكذا صلوات صموئيل وإيليا وإليشع وداود ويونان (يونس) ودانيال وعزرا . وهذا النوع

من الصلاة يتلى فى أى محل كان ، فإن يونان صلى فى جوف الحوت ودانيال فى جب الأسود .

والصلاة المشتركة هى صلوات تؤدى باشتراك جملة أشخاص علناً وعموما ، فى أمكنة مخصوصة ومواعيد معلومة ، حسب طقوس وقوانين مقررة من رؤساء الدين والكهنة .

ولم توضع الصلوات الطقسية عند الإسرائيليين إلا بعد تأسيس أمكنة العبادة ، كخيمة الاجتماع والهيكل . وأول صلاة طقسية كانت عند تقديم باكورة الأثمار ، وبعد أداء الاعشار (تثنية ٢٦ / ٥ - ١٠ و ١٣ - ١٥) وعند تقدمة الذبائح كفارة عن الخطايا (لاويين ١٦ / ٢١) . وبركة هارون وأولاده المثلثة كانت من نوع الصلاة الطقسية (عدد ٦٥ / ٢٢ - ٢٧) .

ويتضح من (إشعيا ١ / ١٥ و ٢٩ / ١٣ و ٥٨ / ٥) أن فى عهد الأنبياء وضعت صلوات قانونية ، ويستدل على أوقاتها من (دانيال ٦/١٠) فإنه كان يصلى ويركع ويشكر الله تعالى ثلاث مرات كل يوم ، وكذلك من المزمور ٥٥ / ١٧ . وأحيانا مرتين كل يوم ، من أخبار الأيام الأول ٢٣ / ٣٠ .

وكانت الصلاة مركبة غالبا من النثر ثم من النظم ، وتتلى بالغناء فى الابتداء . وبالتدريج صارت تستعمل آلات موسيقية قانونية ، كما يتضح من سفر المزامير ، وكان يخصص مغنون لهذا القصد ، فإن عزرا يذكر فى سفره أن بين الذين رجعوا من بابل من السبى كان مائتان من المغنين والمغنيات (عزرا ٢ / ٦٥) .

وكانت الصلاة فريضة واجبة على النساء والرجال (المشنا ، البركات ٣/٣) وكانوا يصلون جلوسا ووقوفـــا ، ويركعون ويسجدون ، ويبوقون ، ويصومون ، ويبكون فى تضرعاتهم وإعترافاتهم حتى يومنا هذا . وفى أيام الضيقة كانوا يلبسون خيشا ، ويذرون ترابا ورمادا على رؤوسهم ، ويمزقون ثيابهم ، ويحلقون شعور رؤوسهم (سفر إيخا ، أو المراثى ، / ٢٠ و يوشع ٧ / ٦) وكانوا يحرصون بوجوب وضع ، الأيادى على الصدر مع حنى الرأس قليلا ، كوقوف الخادم أمام سيده ، لزيادة الاحترام . ويقرأ الصلاة الحزّان (المدب من الشعب) بصوت مرتفع ، والعاميدة [1] بصوت منخفض ، ويكررون العاميدة بصوت عال لكى يسمع الذين لا يعرفون القراءة .

وكانوا يتجهون فى صلواتهم إلى جهة أورشليم . وفى أورشليم إلى جهة الهيكل قبلة لهم (الملوك الأول ٨ / ١٣ و ٣٨ و ٤٤ و ٤٨) وهذه العادة متبعة ليومنا هذا .

وبناء على نص الآية فى (عاموس ٤/ ١٢) - « واستعد للقاء إلهك يا إسرائيل » كان الأتقياء والمتعبدون يصرفون نحو ساعة من الزمان استعداداً للصلاة ، فيما يخص النظافة واللبس وجمع الأفكار وما أشبه ذلك . وكان عزرا يوصى بوجوب غسل الجسم بكل تدقيق قبل العبادة (المشنا ـ البركات ٣ /٤) وفى المجامع كانت أماكن الجلوس مرتبة حسب درجات الشعب ومراكزهم ، من أمام الهيكل إلى الوراء :

---

(١) سترد ترجمة كاملة لنصوص « العاميدة » فى موضعها من هذا الفصل .

ولا يسمح الإسرائيليون بالوساطة والشفاعة فى صلواتهم بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى قال نبى هذا : إذا التمست أو طلبت شيئا من رئيس بشرى فاستجابة طلبك كثيراً ما تتوقف على وساطة ومساعدة وسيط الرئيس ، كائنا كان أو صديقاً ، خادما أو حبيبا . ولكن بينك وبين الله تعالى لايلزم وساطة ميخائيل أو جبرائيل ، بل إفتح قلبك وضميرك له ، واطلبه فى أى وقت كان . وهو يستجيب دعاءك ، كما قال بلسان نبيه : « ويكون أن كل من يدعو باسم الرب ينجو » (يوئيل ٣/٥ فى الأصل العبرى = ٢/٣٢ فى الترجمات) ، غير أن علماء القبالة يعتقدون بوساطة بعض الملائكة ، خلافا لاعتقاد عموم الإسرائيليين .

أما زمن وضع الصلاة المستعملة فى وقتنا الحاضر فيختلف حسب أقسامها . إنما القسم الأساسى والأهم فيها ، وهو الشيمّاع والشيمُونة عِشْرِه ، ينسب إلى عزرا ومائة وعشرين رجلا من الشيوخ والعلماء ، والأنبياء ، ومن ضمنهم النبى دانيال وحجى وزكريا وملاخى (بركات ٢/٤) . فإن عزرا بعد خراب الهيكل الأول وإبطال الذبائح والتقدمات رأى وجوب وضع صلوات يومية للشعب لتقوم مقام هذه ، ولتعزيهم فى ضيقاتهم ويأسهم ، فجمع هؤلاء الرجال المعروفين برجال الكنيسة الكبرى ووضعوا القسم الأساسى من الصلاة المذكور آنفا . وهو المتبع عند كافة الإسرائيليين ، ولم يتغير أساسياً إلى الآن إلا فى بعض تغييرات لفظية ، وإضافة بعض فصول وأناشيد منتخبة من التوراة والمشنا والتلمود،

وأغانى روحية مثل « أدُونْ عولام »(١) . وما أشبه لسلمون جابيرول وربى يهوذا الليفى ، وإبراهيم وموسى عزرا (٢) ، لتلائم الأوقـات والمواسم ، أضيفت مؤخراً لغاية الجيل السادس عشر .

وقد وضعت الصلوات فى اللغة العبرانية لكى يقرأها الإسرائيليون أينما وجدوا ، على أن بعض صلوات خصوصية وضعت باللغة الكلدانية وكتب سعديا هَجّاوِن البعض بالعربية أيضا ، ومنذ الجيل السادس عشر ترجمت إلى كافة اللغات الغربية . والآن أذكر شيئاً من القسم الأساسى من الصلاة إتماما للفائدة .

الشِمَـــاع

الشِماع هو أهم قسم من الصلاة ، مأخوذ من سفر التثنية ، رتبه مع البركة التى قبله وبعده عزرا وجماعته كما ذكر آنفا . وكلمة « شماع » أى « إسمعْ » ، هو أول كلمة من آية التوحيد عند الإسرائيليين : « إسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا الرب واحد » (تثنية ٦/٤) . وهى أيضا أول كلمة من مجموع آيات عقيدة الإسرائيليين .

والشماع مجموع من ثلاثة أقسام .

القسم الأول مأخوذ من التثنية ٦/٤ - ٩ . يبتدىء بآية التوحيد ، ثم يذكر وجوب محبة الله من كل قلوبنا ونفوسنا وأموالنا (كذا) ، ووجوب حفظ وصاياه ، وتعليمها لأولادنا ، ووجوب التكلم عنها

---

(١) معناها « رب العالم » .

(٢) كل أولئك من أدباء اليهود وشعرائهم فى الاندلس الاسلامية فى العصور الوسطى .

دائما ، وربطها آية على أيدينا ، وعصابة بين أعيننا ، وكتابتها على قوائم أبوابنا .

القسم الثانى مأخوذ من التثنية ١٣/١١ - ٢١ . يذكر وعد الله تعالى بمكافأتنا وباطالة حياتنا عند إتمامنا وصاياه ، وبالعكس تأديبنا إذا إرتكبنا المعاصى ولم نطع أوامره . ويكرر شيئا من القسم الاول .

القسم الثالث مأخوذ من العدد ١٥/ ٣٧ - ٤١ . يذكر وصية الأهداب[1] ، ليذكرنا بوجوب طاعة أوامر الله عندما نراها ، ولكى لانميل إلى شر قلوبنا وأميالنا ، ويذكرنا أيضا بخروجنا من مصر قديما .

وكان مراد رجال الكنيسة الكبرى أن يضيفوا إلى الشماع الآيات فى العدد ١٨/٢٣ - ٢٤ ، ولكنها لم تضف خوف الإطالة (المشنا - البركات ١٢) .

شمونه عسره

مجموع تسع عشرة بركة (وكانت فى الأصل ثمان عشرة) وهى أهم قسم فى الصلاة بعد الشماع وضعها عزرا ورجال الكنيسة الكبرى كما سبق . وقد قيل إنه نظراً لقلة إستعمالها مع مرور الزمان رتبها ثانية شمعون الباقُولى مع ربّان جملئيل ، فى يَبْنَة ، ونظراً لانشقاق الإسرائيليين وقتئذ إلى فئات صدوقيين وأسيين وغيرهما ، أضاف إلى هذه البركات شموئيل القاطان - أى الصغير - البركة الثانية عشر « ولَمَلْشينيم » ضد الصدوقيين (المشنا - بركات ٢٨) . وقد حفظت إسمها الأصلى « شمونه

(١) هى أهداب الرداء المميز الذى يلبسه اليهود فى الصلاة واسمه (ظليت).

عسره ، أى ١٨ مع أنها صارت ١٩ بركة . وكانت تقرأ غيبـــا من الواحد إلى الآخر إلى عهد الجاونيم ، وقيل أنها لم تكتب إلا عند وضع « مسيخت سوفريم » .

وقد وردت أكثر الفاظها وعباراتهـا فى الكتاب المقدس ، وبعضها فى المشنا مثل « تُشتَويا نسيْم تحتَاوُ هحرير شعى » وغيرها .

وتسهيلا للذاكرة كانوا يتخذون آيات وجملا تدل على عدد الكلمات فى كل بركة . مثلا الآية فى الخروج ٣/٢٨ تحتوى على ١٧ كلمة ، وهو عدد الكلمات فى البركة الرابعة ، والكلمات فى إشعيـــا ٨/٥٥ أو ١٣/٦ يعادل عدد الكلمات فى البركة الخامسة ، وهو ١٥ . وعدد الحروف فى الامثال ٢٢/٤ أو المزامير ٣/١٠٣ يعادل عدد كلمات البركة الثـامنة ، وهو ٢٧ .

وتقسم إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول ، شبَاحيم أى تسابيح . يشمل الثلاث البركات الأولى « ريشُونُوت » ويحتوى على تسابيح وتعظيم لله تعالى .

القسم الثانى ، بَقَاشوت أى طلبات أو توسلات . يشمل الثلاث عشرة البركة المتوسطة « إمصاعيئوت » ويحتوى على طلبـــات خصوصية وعمومية للشعب .

القسم الثالث ، هُودَاُوت أى تشكرات . يشمل الثلاث البركات الثلاث الأخيرة « أحرونوت » ويحتوى على تشكرات .

والقسم الاول والثانى من هذه البركات لايتغيران مطلقـــا فى كافة

الصلوات على مدار السنة ، وأما القسم الثالث فيتغير فى أيام السبوت ورؤوس الشهور والمواسم والأعياد ، ويبدل بما يلائم الاوقات .

وإليك عدد وأسماء هذه البركات بالتفصيل ، مع بيان محل ورود ألفاظها وعباراتها فى الكتاب المقدس (راجع براخوت ٢٩ و ٣٣ . ومجلة ١٧ و ١٨ . وشبات ٢٤ . وسوطه ٦٨) .

(١) أبوت : أى الآباء ، سميت بالآباء لانه ذكرت فيها أسماء الآباء ، راجع خروج ١٥/٣ ، تكوين ٩/١٤ ، تثنية ١٧/١٠ ، إشعيا ٢٠/٥٩ مزامير ١١/٧ و ٣/٩٨ و ٣٦ و ١٠/٨٤ ، تكوين ١/١٥ .

(٢) جبوروت : أى القوات . فيها تنسب الجبروت لله تعالى ، وتسمى أحيانا « تحييت همتيم » لانه ذكر فيها قيامة الأموات . مزامير ١٤/١٤٤ خروج ٢٦/١٥ مزامير ٦/١٤٦ - ٧ دانيـــال ٢/١٢ صموئيل الأول ٦/٢ .

(٣) قدوشت هشيم : أى قداسة اسم الجلالة . مزمور ٤/٢٢ و ٣/١٦ .

(٤) أته حونن : وتعرف أيضا بالطلبة لاجل الفهم والحكمة . إشعيا ٢٣/٢٩ إرميا ١٥/٣ مزامير ١٠/٤٤ . وقد وردت « أته حونن » لا أقل من ١٠٠ مرة فى المزامير .

(٥) تشوبة : أى التوبة إشعيا ١٠/٦ و ١٣ إشعيا ٧/٥٥ .

(٦) سليحة : أى العفو والسماح . إشعيا ٧/٥٥ .

(٧) بركت هَيَجأولّه : أى الخلاص . مزمور ١٤/٩ و ١٨/٢٥ و ١٥٣/١١٩ - ١٥٤ و ١/٣٥ و ١/٤٣ و ٢٢/٧٤ و ٥٨/٣ .

(٨) بركت هاحوليم : أى طلبة لاجل شفاء المرضى . إرميا ١٤/١٧ و ١٧/٣٠ .

(٩) بركت هشانيم : أى طلبة لأجل محصولات السنة . مزمور ٤٥/٥ و ١٢ و ٥/١٠٣ ارميا ١٤/٣١ .

(١٠) قبوص جليوت : أى طلبة لأجل جميع المسبيين . إشعيا ١٢/١١ و ١٣/٢٧ و ٥/٤٣ و ٢٠/٤٥ و ٩/٦٠ إرميا ٢٧/٥١ تثنية ٤/٣٠ ميخا ٦/٤ مزامير ٢/١٤٧ .

(١١) بركت هدين : أى طلبة لأجل الأحكام . إشعيا ٢٦/١ هوشع ٢١/٢ مزامير ٥/٣٣ و ٤/٩٩ إشعيا ٨/٦١ . قابل : إشعيا ١٠/٣٥ و ١١/٥١ مزامير ١٠/١٤٦ .

(١٢) هملشينيم : أى طلبة ضد الصدوقيين . مزامير ١٥/٨١ إشعيا ٥/٢٥ .

(١٣) صدّقيم : أى طلبة لأجل الصالحين . إرميا ٢٠/٣١ إشعيا ١٥/٦٣ مزامير ٦/٢٢ و ٢/٢٥ و ٥/٧١ و ٨/١٤٣ جامعه ٩/٦ .

(١٤) بنيان يروشليم : أى طلبة لأجل إعادة بناء أورشليم . زكريا ٣/٨ مزامير ٢/١٤٧ و ٣٦/٨٩ - ٣٧ و ٥/١٢٢ .

(١٥) إت صيمح : أى طلبة لأجل نسل داود . هوشع ٥/٣ إشعيا ٧/٥٦ مزامير ٢٣/١ و ٩/١١٢ تكوين ١٨/٤٩ مزامير ٤/٨٩

و ١٨ و ٢١ و ٢٦ و ٢٥/٥ حزقيال ٢٩/٢١ و ٣٤/٢٣ مزامير ١٣٢/١٧ و ١٣٢/١٠ إرميا ٢٣/٥ و ٣٣/١٥ .

(١٦) تِفِلّة : أي طلبة لأجل قبول الصلاة . مزامير ٦٥/٣ .

(١٧) عَبُوَدة : أي طلبة لأجل إعادة طقس العبادة في الهيكل . ميخا ٤/١١ .

(١٨) هُوَدأة : تحتوى على اعتراف وشكر . أخبار الأيام الاول ٤٩/١٣ صموئيل الثانى ٢٢/٣٦ مزامير ٧٩/٣ و ٣٨/٦ إرميا ١٠/٦ .

(١٩) شالوم : أى طلبة السلام . مزامير ٢٩/١٠ عدد ٦/٢٧ ميخـــا ٦/٨ مزامير ١١٩/١٦٥ و ١٢٥/٥ .

وقد اختصروا الثلاث عشرة البركة المتوسطة ، أى القسم الثانى ، وتعرف بكلمة « هبينينو » ، تتلى عند كثرة المشغولية بدل العاميدة كلها على رأى ربى عقيبا (برايتا ٤/٢ - ٤) . وهذا الاختصار كما يأتى :

(١) امنحنا حكمة لنتعلم طرقك (٢) اجعل قلبنا يهابك (٣) اغفر خطايانا (٤) خلصنا (٥) احفظنا من الأمراض (٦) اكفنا من محصولات الأرض (٧) اجمع شملنا (٨) حاكمنا بحقك (٩) عاقب الأشرار (١٠) كافىء الأبرار (١١) ابن أورشليم والهيكل (١٢) لتحى مملكة وسلالة داود مسيحك (١٣) استجب لنا .

كتاب الصلاة

إن أقدم كتـــاب يشمل مجموع صلوات السنة (السّدور) هو « سِيدِر ٌ رَبٌ عَمْرام » على اسم جامعة عمرام الجأون فى «ماته محسيه »

فى بابل سنة ٨٤٦ و ٨٦٤ . وهو يختلف قليلا عن كتب الصلاة الحالية ويقرب من طقس السفاراديم أكثر من الإشكنازيم . وبقى مابنوف عن ألف سنة بدون طبع ، إلى أن اشترى كورونل نسخة من « حبرون » وطبعها فى وارسو سنة ١٨٦٥ .

ثم قام بعده سعديا الجأون رئيس مدرسة سورا فى بابل ، ووضع سدُّوراً سنة ٩٢٨ - ٩٤٢ وجد مخطوطا فى الفيوم محل ميلاده ، وكان يحتوى على صلاتين من وضعه ، عرّب إحداهما بنفسه ، والأخرى عرّبها صيمحَ بن يوسف . وجمع ربى الحانان « سيدر تقون تِفِلّة » فى الجيل فى الجيل السادس عشر .

ووضع موسى الميمونى الشهير كتاب « سيدر تفّلوت كل هّشانا » فى آخر كتاب له شهير معروف بـ « اليّاد » وهو يطابق طقس السفاراديم تماما . وقد طبع مع ترجمته الألمانية فى بطرسبرج سنة ١٨٥١ .

وأهم وأول كتاب صلاة للأشكنازيم هو « مَحْزُور فترْى » وضعه حاخامو فرنسا سنة ١٢٠٨ ، وهو أكبر من سدّور عمرام بعشر مرات .

أما الاختلافات الموجودة فى الصلوات بين طقوس السفاراديم والإشكنازيم فهى قليلة جدا ، وتنحصر فى الأغانى والملحقات ، أما أساس الصلاة والبركات فلا اختلاف فيها غير أن السفاراديم يكثرون من استعمال النعوت والمترادفات . ومنذ عهد العالم لُورْيَا انتشر طقس أو منهاج السفاراديم فى روسيا كثيرا ، وبالأخص عند الفئة المعروفة بالحاسيديم .

وأول كتاب صلاة مطبوع ظهر فى ٢ أيار عبرانى سنة ٥٢٤٦ الموافق ٧ ابريل سنة ١٤٨٦ حسب منهاج يهود روما ، والنسخة الوحيدة الباقية

منه موجودة في مكتبة مدرسة اللاهوت الإسرائيلية في الولايات المتحدة بأمريكا .

وأول كتاب صلاة للسفراديم طبع في فينيسيا (البندقية) سنة ١٥٢٤ دعى « تِمُونُوت ، تِحنُّوت ، تِفلِرت » أى تأملات وتوسلات وصلوات

وأما كتاب صلاة القرائين فيختلف كثيرا عن سِدّور الإسرائيليين ، وطبع أول مرة في فينيسيا في الجيل السادس عشر في أربعة أجزاء .

وأول ترجمة سدور من العبرانية إلى اللغات الأخرى كانت إلى الايطالية في رومية ، بحروف عبرانية ، سنة ١٥٣٨ ، وبعدها إلى الالمانية في ١٥٦٢ ، وإلى الانكليزية في ١٧٣٨ ، وإلى الفرنساوية في ١٧٧٣ ، وإلى البولاندية في ١٧٩٣ ، ثم إلى جملة لغات أخرى في أوقات مختلفة .

مواقيت الصلاة

وإذ قد تبين لنا من شرح الدكتور هلال فارحي هذا أن أساس التدين اليهودى نفسه ، وهو الصلاة الموسوية الموصوفة في كتب الشريعة اليهودية ، لاتمت إلى ما كان من طقوس الصلاة الموسوية ، فإننا نريد أن نشير أيضا إلى أن الأعياد الدينية الإسرائيلية ضعيفة الصلة هي كذلك بموسى وشريعته ، بل أن كثيرا منهـــا يرجع إلى مناسبات وذكريات تاريخها متأخر عن سيدنا موسى بكثير .

وقبل أن نعطى بيانا موجزا بذلك ، نرى أن نبين بعض التفاصيل الخاصة بإقامة الصلاة اليومية التى أشار إليها الدكتور فارحى .

الصلوات الواجبة على اليهودى ثلاث في كل يوم :

١ ـ صلاة الفجر ، ويسمونها صلاة السحر « شَحَارِيت » ووقتها حسب ما قررته المشنا منذ أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأزرق إلى ارتفاع عمود النهار .

٢ ـ صلاة نصف النهار أو القيلولة « مِنْحَة » ، وتجب منذ انحراف الشمس عن نقطة الزوال إلى ماقبل الغروب .

٣ ـ صلاة المساء ، ويسمونها صلاة الغروب « عَرِبِيتْ » ، ووقتها من غروب الشمس .

وراء الأفق إلى أن تتم ظلمة الليل الكاملة ، أى مايقابل وقت العشاء عند المسلمين .

طقوس الصلاة :

وتبدأ الصلاة بشيء يقابل الوضوء هو غسل اليدين فقط ، ثم يوضع الشال الصغير على الكتفين ، أو الشال الكبير فى الصلوات التى تتم جماعة فى المعبد كصلاة السبت والأعياد وهذا الشال يكون من نسيج أبيض مستطيل أو مربع وفى كل زاوية من زواياه حلية مؤلفة من ثمانية أهداب من الخيط أربعة بيضاء وأربعة زرقاء [1] ، رمزا للتعرف على طلوع الفجر بتمييز الخيط الأبيض من الخيط الأزرق . وهذا الأزرق مختلف فيه من حيث درجته فى الزرقة ، وإنما نهتم بذلك لدخوله حاليا فى ألوان الراية الإسرائيلية . فنص المشنا فى هذا الموضع يعبر عن الأزرق باللفظة العبرية المبهمة « تِكِليت » التى اختلف فيها الشراح من

---

(١) اسمها بالعبرية « صيصوت » .

الأزرق الكحلى الداكن ، إلى البنفسجى ، إلى السماوى ، إلى الأزرق الفاتح الضارب إلى الخضرة القريب مما يسمى عندنا « الكرنبى » أو « اللوزى » ، ويسمى عند شراح المشنا من اليهود « الكُرّاتى » أى ، الذى لونه كلون الكُرّاث . وقد مال سعديا الفيومى إلى ترجيح الأزرق السماوى ، فكان يستعمل فى ترجمته كلمة « أسمنجونى » من الفارسية « آسمان » بمعنى سماء و « كون » بمعنى لون . ومعظم اليهود يتبعون هذا الرأى الآن ، كما تأخذ به إسرائيل فى اللون الأزرق رايتها .

ولهذا الشال فى طهارته أحكام خاصة أهمها أنه لاتلمسه النساء ، وهكذا يخصص له موضع معلوم فى المنزل ، ويجب على اليهودى لبسه منذ أن يبلغ سن التكليف بالعبادة وهى ثلاث عشرة سنة ، ويبقى عنده إلى أن يموت فيكفن عادة فيه .

والصلاة اليهودية تجب فيها تغطية الرأس ، وهى عموما تقليد عندهم للتعبير عن الاحترام ، إذا قرأوا فى النصوص المقدسة ، أو ذكروا اسم الله ، أو قابلوا عظيما من العظماء .

كذلك يلبسون « التفلّين » . وهى عبارة عن علبة صغيرة من الخشب أو الجلد محفوظ بداخلها رقعة من رق الغزال أو الجلد مكتوب عليها « قراءة السماع » (١) التى سبقت الإشارة إليها وهذه العلبة مثبتة فى شريط من الجلد . ويجب وضعها عند الصلاة فى وسط الجبهة بحيث يربط شريط الجلد حول الرأس وتوضع واحدة أخرى على الكف اليسرى بحيث يربط شريطها حول اليد وتكون العلبة مثبتة عند أصل الإبهام . وإذا كان المصلى أشول

---

(١) شماع بالعبرية .

أى يستعمل يده اليسرى ، وجب عليه أن يربطها على الكف اليمنى . وقد اعتمد الفقه اليهودى فى فرضه لهذه « التفلّين » على فهم حرفى ظاهرى الآية (التوراة - سفر التثنية ٨/٦) التى تقول عن كلمات الله : « وثبتها على يدك آية ، ولتكن عصائب بين عينيك » . وواضح أن المراد هو المعنى المجازى وهو التمسك بها كما يتمسك الإنسان بشىء ثمين فى يده ، والاهتداء بها كما يحمل الإنسان العلامة التى تهديه أمام عينه دائما .

ونص قراءة السماع بفقراته الثلاث هو :

إسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، الرب واحد فتحب الرب إلهك بكل قلبك ، وبكل نفسك ، وبكل قوتك . ولتكن هذه الكلمات التى أنا موصيك بها اليوم على قلبك . وارووها لأولادك ، وتلفظ بها فى إقامتك ببيتك وفى مشيك فى الطريق وحين نومك وقيامك . وثبتها على يدك آية ، ولتكن عصائب بين عينيك . واكتبها على مصاريع بيتك وعلى بواباتك (التوراة - سفر التثنية ٤/٦ - ٩) .

فاذا سمعتم وصاياى التى أنا موصيكم اليوم سمعا ، لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه بكل قلوبكم وكل نفوسكم ، أعطيتُ مطر أرضكم المبكر والمتأخر فى أوانه ، فجمعتَ قمحك وخمرك وزيتك . وأعطيت بهائمك عشبا فى حقلك فتأكل أنت وتشبع . واحترسوا من أن تزيغ قلوبكم فتنحرفوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها ، فيحمى غضب الرب عليكم ، ويغلق السماء فلا يكون مطر ، ولا تعطى الأرض غلتها ، فتبيدون سريعا من الأرض الطيبة التى يعطيكم الرب . فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم وثبتوها آية على أيديكم ، ولتكن عصائب بين عيونكم ، وعلموها

لأولادكم متكلمين بها عند الإقامة فى بيوتكم وحين المشى فى الطريق ووقت منامك وقيامك . واكتبها على مصاريع بيتك وعلى بواباتك ، لكى تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التى أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها طيلة أيام السماء على الأرض . (التوراة ـ سفر التثنية ١١/١٣ - ٢١) .

وكلم الرب موسى قائلا : حدث بنى إسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهدابا فى أطراف ثيابهم على أجيالهم ، ويجعلوا على هدب كل طرف فتيلا من الاسمانجونى . فتصير لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتنفذونها ولا تدورون وراء قلوبكم ووراء عيونكم إذ أنتم من ورائها تفسقون لكى تتذكروا وتنفذوا كل وصاياى وتكونوا مقدسين لإلهكم . أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ليصير لكم إلها . أنا الرب إلهكم . (التوراة ـ سفر العدد ١٥/٣٧ - ٤١) .

وهذا الجزء من الصلاة اليهودية هو الوحيد المأخوذ كله كما رأينا من التوراة ، بينما البركات الثمانى عشر التى تسمى عندهم « شمونة عشره » أو « عاميدة » ، فقد وصفها النص الذى سقناه من الدكتور هلالة فارحى وصفا تفصيليا ، وأشار إلى أنها ترجع فى تصنيفها إلى عزرا ورجال الكنيسة الكبرى ، وأن الحبر اليهودى صمويل الأصغر أقحم فيها مايسمونه بالبركة التاسعة عشرة ، وترتيبها فى العاميدة الثانية عشرة ، وهى فى الواقع ليست بركة ولكنها لعنة يصبونها على الفرق الأخرى من غير اليهود الربانيين ، وبخاصة طائفة الصدوقيين التى سنتحدث عنها فى مكانها من هذا الكتاب . وصمويل الأصغر هذا من مدرسة « التنائيم » أى رواة المشنا كما هو معروف . وأما العاميدة فى صورتها النهائية هذه

فإنها تبدو على النحو التالى [1] :

يامولاى افتح شفتى فيخبر فى بتسبيحك . (مزامير ٥١/١٧) .

— ١ —

مبارك أنت يارب إلهنا وإله آبائنا ، إله إبراهيم ، إله اسحق ، وإله يعقوب . الإله العظيم الجبار المهيب . الإله العالى ، الواهب الإنعامات الطيبة ، مالك الكل ، وذاكر فضائل الآباء ، والآتى بخلاص لبنى أبنائهم لأجل اسمه ، بمحبة .

(يضاف إليها فى عشرة أيام التوبة [2] ، اذكرنا للحياة يا أيها الملك الذى يسر بالحياة . اكتبنا فى سفر الحياة . لأجلك أيها الإله الحى ، الملك المعين المنجى والواقى . مبارك أنت يارب يامجن إبراهيم .

— ٢ —

أنت جبار إلى الأبد يارب ، أنت محيى الموتى ، القادر على الانقاذ (ويضيفون فى الصيف) المنزل الندى . (وفى الشتاء) مسير الريح ومنزل المطر .

الكافل الحياة بفضله . المحيى الموتى بمراحم جليلة . مقيم الساقطين ، وشافى المرضى ومطلق الأسرى ومقيم أمانته للنائمين فى التراب . من مثلك صاحب قدرات . ومن يشبهك ملكا يميت ويحيى ، وينبت النجاة .

---

(١) رجعنا إلى الدكتور فارحى فى كتابه المتقدم ذكره ، ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) وهى الأيام العشرة من رأس السنة اليهودية — أول تشرى — الذى يوافق شهر أكتوبر ، إلى يوم الكفارة ، يوم كبور ، وهو العاشر من تشرى .

(وفى عشرة أيام التوبة يقال) من مثلك أيها الأب الرحمن ، « الذاكر مخلوقاته برحمة للحياة . وإنك لأمين على إحياء الموتى . مبارك أنت يارب يامحيي الموتى .

(وعند تكرار العاميدة يضاف) نقدسك ونعظمك كأنغام نطق محفل السرافيم [1] المقدس ، إذ يثلثون لك التقديس ، فهكذا مكتوب على يد نبيك « وصاح هذا لهذا وقال : قدوس ، قدوس ، قدوس رب الجنود . ملء كل الأرض مجده » (إشعيا ٦/٣) فيقابلونهم مسبحين وقائلين « مبارك مجد الرب فى مقامه » (حزقيال ١٢/٣) . والقول المكتوب فى كلامك المقدس « يملك الرب إلى الأبد ، إلهك ياصهيون من جيل لجيل . سبحوا الله» (مزامير ١٤٦/١٠) .

- ٣ -

أنت قدوس ، واسمك قدوس ، والمقدسون فى كل يوم يسبحونك سيلاه[2]. لأنك إله ، مالك عظيم ومقدس . مبارك أنت أيها الرب الاله (فى عشرة أيام التوبة يضاف بعد ذلك كلمة - الملك) المقدس .

- ٤ -

أنت تمد بنى أدم بالمعرفة ، وتعلم الانسان الفهم فتكرم علينا من لدنك بمعرفة وفهم وفطنة . مبارك أنت أيها الرب الواهب المعرفة .

---

(١) نوع من الملائكة ، يحرسون عرش الله فى إعتقادهم ، واستقاق الكلمة من مادة معناها النار .

(٢) كلمة هتاف بالعبرية .

- ٥ -

أرجعنا يا أبانا لتوراتك ، وقربنا يا ملكنا لعبادتك ، وأرددنا بتوبة كاملة إلى وجهك . مبارك أنت أيها الرب القابل التوبة .

- ٦ -

أغفر لنا يا أبانا لأننا قد أخطأنا . إصفح عنا يا ملكنا لأننا قد أذنبنا . فإنك رب طيب غفور . مبارك أنت يارب يارؤوف يا واسع المغفرة .

- ٧ -

أنظر إلى ذلنا ، وأيد دعوانا ، وعجل بخلاصنا خلاصا كاملا من أجل اسمك ، لأنك رب مخلص قوى . مبارك أنت يارب ، يا مخلص إسرائيل .

- ٨ -

دوانا يارب لنشفى . أنقذنا لننجو ، لأنك أنت تسبيحنا (إرميا ١٤/١٧) . وتعطف بدواء وشفاء لكل أمراضنا ولكل آلامنا ولكل مصائبنا ، لأنك رب شاف رحمان وأمين . مبارك أنت يارب شافى مرضى شعبه إسرائيل .

- ٩ -

(وهى بركة لمحصولات السنة ، يقال فيها فى الصيف) باركنا يارب يا إلهنا فى كل عمل أيدينا ، وبارك سنتنا بشآبيب الرضا والبركة والجود ، فيكون آخرها حياة وشبعا وسلاما كالسنين الطيبة المباركة ، لأنك أنت

رب طيب ومحسن وتبارك السنين . مبارك أنت يارب يامن تبارك السنين . (ويقال فى الشتاء) بارك لنا يارب يا إلهنا فى هذه السنة ، وفى كل أنواع غلتنا بالخير . وأنزل ندى ومطراً للبركة على كل وجه الأرض . وأرو وجه الثرى ، وأشبع العالم كله من خيرك ، واملأ أيدينا من بركاتك ومن سخاء عطايا يديك . احفظ هذه السنة ونجها من كل أمر ردىء . ومن كل أنواع الآفات ، ومن كل صنوف الغضب . واجعل لها أملا طيبا ونهاية آمنة . أشفق عليها ، وارأف بها ، وبكل غلتها وثمارها . وباركها بأمطار الرضا والبركة والجود ، فيكون آخرها حياة وشبعا وسلاما كالسنين الطيبة المباركة ، لانك انت رب طيب ومحسن وتبارك السنين . مبارك انت يارب يامن تبارك السنين .

- ١٠ -

انفخ فى بوق كبير لاجل حريتنا ، وارفع علما لجمع مشتتينا ، واجمعنا من اركان الأرض الاربعة معا إلى ارضنا . مبارك انت يارب ، جامع مشردى شعبه إسرائيل .

- ١١ -

اعد قضاتنا كما كان الامر أولا ، وناصحينا كما فى البداية ، وأبعد عنا الضيق والكدر والأنين . واملك علينا عاجلا أنت وحدك يارب برحمة وعدل وحكم . مبارك أنت يارب ، الملك المحب للعدالة والحكم . (ويقال فى عشرة أيام التوبة) ياملك الحكم .

- ١٢ -

(هذه هى الدعوة التاسعة عشر التى أضافها صموئيل الاصغر) لاتكن

رجاء للوشاة ، بحيث يهلك كل البغاة توا ، ويستأصل كل أعـــدائك ومبغضيك عاجلا ، فتقتلع وتحطم وتعدم وتقهر وتدمر ملك الفساد عاجلا فى أيامنا . مبارك أنت يارب كاسر الأعداء وقاهر البغاة .

- ١٣ -

لترفرف مراحمك يارب يا إلهنا على الصالحين والأتقياء ، وعلى بقية شعبك آل إسرائيل ، وعلى شيوخهم ، وعلى الناجين من عشيرة كتبتهم، وعلى دخلاء الصدق وعلينـــا . وأعط أجراً حسنا لكل المتكلين على اسمك بالحق . واجعل نصيبنـا معهم فلا نخزى إلى الابد ، لاننـا بك وثقنا ، وعلى فضلك العظيم بالحق اعتمدنا . مبارك أنت يارب ياسند الصالحين ومعتمدهم .

- ١٤ -

اسكن فى وسط أورشليم مدينتك ، حسب ما قلت . وثبت فيها كرسى عبدك داود عاجلا ، وابنها سريعا فى أيامنا بناء أبدياً . مبارك أنت يارب ، بانى أورشليم .

- ١٥ -

اجعل ذرية عبدك داود تنبت عاجلا ، وارفع قرنـه بفرجك ، لاننا نؤمل فى فرجك كل يوم . مبارك أنت يارب مُنْبِتَ قرن النجاة .

- ١٦ -

إسمع صوتنا يارب يا إلهنا الأب الرحمن . أشفق علينا وارأف بنا واقبل صلاتنا برحمة ورضوان ، لانك رب سميع للصلوات والدعوات.

ولا تردنا عن وجهك يا ملكنا خائبين . تحنن علينا ، واستجب لنا ، واسمع صلاتنا ، لأنك أنت تسمع صلاة كل فم . مبارك أنت يارب ياسمع الصلاة ، (وفى يوم الصيام يقال) استجب لنا يا أبانا . استجب لنا فى يوم صوم هذا الصيام لأننا فى كرب عظيم . لاتلتفت إلى شرنا ولا تتوار يا ملكنا من دعائنا . كن قريبا لصراخنا . بل استجب لنا قبل أن نصرخ إليك . نتكلم وأنت تسمع ، كالكلام الذى قيل : «ويكون أنى قبل أن يدعوا أجيب ، وفيما هم بعد يتكلمون أنا اسمع» (إشعيا ٢٤/٥٦) . لأنك أنت يارب فادٍ ومخلّص ، ومجيب وراحم فى كل وقت كرب وضيق . (يقرأ الحزان [١] وحده) مبارك أنت يارب المستجيب لشعبه إسرائيل فى وقت الكرب .

- ١٧ -

ارض يارب يا إلهنا عن شعبك إسرائيل ، وأنظر إلى صلاتهم ، وأعد العبادة إلى محراب بيتك ، واقبل بمحبة ورضوان قرابين إسرائيل وصلاتهم عاجلا . ولتكن عبادة إسرائيل شعبك دائما مرضية . (فى أوائل الشهور القمرية وفى وسط عيدى الفصح والمظال يقال) إلهنا وإله آبائنا ، ليصعد ويأت ويصل ويظهر ويقبل ويسمع ويفتقد ويذكر أمامك ذكرنا ، وذكر آبائنا ، وذكر أورشليم مدينتك . وذكر المسيح ابن داود عبدك ، وذكر كل شعبك آل إسرائيل ، للنجاة والخير والعطف والإحسان والرحمة ، (فى أول الشهر) فى يوم مستهل الشهر هذا ، (فى الفصح) فى عيد الفصح هذا ، (فى المظال) فى عيد المظال هذا ، فى يوم المحفل المقدس هذا ، لترحمنا فيه وتخلصنا . اذكرنا

---

(١) هو الكاهن الذى يقوم بصلاة الجماعة فى المعبد .

يارب إلهنا فيه للخير ، وافتقدنا فيه للبركة ، وخلصنا فيه لحياة سعيدة ، وحسب الوعد بالفرج والرحمة أشفق علينا ، وحن علينا ، وارأف بنا ، وارحمنا ، وخلصنا ، لان أعيننا نحوك ، لأنك إله ملك رؤوف رحيم .

وأنت بحسب مراحمك الكثيرة تسر بنا وترضى عنا ، فترى أعيننا رجوعك إلى صهيون برحمة . مبارك أنت يارب الذى يعيد سكينته الى صهيون .

- ١٨ -

نشكرك لانك أنت الرب إلهنا وإله آبائنا إلى أبد الآبدين . صخرتنا ، صخرة حياتنا ، ومجن خلاصنا هو أنت . جيلا بعد جيل نشكر لك ونتحدث بحمدك من أجل حياتنا المودعة بيدك وأرواحنا المحفوظة عندك ، ومعجزاتك التى هى معنا كل يوم ، وعجائبك وخيراتك التى هى فى كل وقت مساء وصباحا وظهرا . أيها الطيب الذى لا تنتهى مراحمك ، المشفق الذى لا تنقطع أفضالك ، فإننا منذ الأزل وضعنا أملنا فيك . (ومن مأثورات هذه الفقرة) نشكرك لأنك أنت الرب إلهنا وإله آبائنا وإله كل البشر ، خالقنا المصوّر فى البداية . البركات والتشكرات لاسمك العظيم والمقدس لأنك أحييتنا وأبقيتنا . وكذلك ستحيينا وترأف بنا ويجمع المشتتين منا إلى دور قدسك ، لنحفظ فرائضك ونعمل مايرضيك ونعبدك بقلب سليم ، لهذا نحن نشكرك مبارك رب التشكرات . (وفى عيدى الحانوكة والفور[1] يقال) نشكرك أيضا على المعجزات والخلاص والأعمال العظيمة وعلى الفرج ، وعلى الخوارق وعلى التعزيات التى صنعتها لآبائنا فى غابر الزمان وفى هذا الوقت . (فى

---

(١) سيرد شرح هذه الاعياد وغيرها فيما بعد .

عيد الحانوكة) فى أيام متاتيا بن يوحنا الكاهن الأعظم الحشمونى وأبنائه عندما وقفت مملكة اليونان الفاجرة ضد شعبك إسرائيل، لتنسيهم توراتك ، وتجعلهم يخالفون فرائض إرادتك ، وقفت أنت بمراحمك العظيمة معهم فى وقت شدتهم و وأيدتهم فى خصومتهم، وحكمت حكمهم وثأرت انتقاما لهم. سلمت الجبابرة بيد الضعفاء والكثيرين بيد القليلين، والمجرمين بيد الصديقين ، والأنجاس بيد الأطهار ، والبغاة بيد المشتغلين بشريعتك . فصنعت لك اسما عظيما ومقدسا فى عالمك ، وصنعت لشعبك إسرائيل نجاة عظيمة وخلاصا فى مثل هذا اليوم . وبعد ذلك جاء أبناؤك إلى محراب بيتك فنظفوا هيكلك ، وطهروا مقدسك ، واوقدوا شموعا فى أفنية قدسك ، وأقروا هذه الايام الثمانية للحمد والشكر . إذ أتيت معهم بمعجزات وعجائب فنشكر اسمك العظيم . سلاه . (فى عيد الفور) فى أيام مردخاى واستير ، فى العاصمة شوشن ، عندما قام عليهما هامان المجرم ، وطلب تدمير وقتل وإهلاك كل اليهود من الغلام إلى الشيخ والاطفال والنساء ، فى يوم واحد هو الثالث عشر من الشهر الثانى عشر ، أى شهر آذار ؛ ونهبهم غنيمة (استير ٣/١٣) . وأنت بمراحمك العظيمة أبطلت مشورته ، وخيبت فكرته ، ورددت جزاءه على على رأسه ، فعلقوه هو وأولادة على الخشب . وهكذا صنعت معهم معجزات وعجائب . فنشكر اسمك العظيم سلاه .

وعلى كل هذه ليتبارك ويتعالَ ويرتفعْ اسمك دائما ياملكنا إلى أبد الآبدين وكل الأحياء يشكرونك . سلاه .

(فى عشرة أيام التوبة) واكتب حياة سعيدة لبنى عهدك .

وليمدحوا ويباركوا اسمك العظيم حقا إلى الأبد لأنه طيب إله نجاتنا وعوننا . سلاه . الإله الطيب . مبارك أنت يا رب ، الطيب الاسم ، وبك يليق الشكر . (وعند تكرار العاميدة يقول الحزان) : إلهنا وإله آبائنا باركنا بالبركة المثلثة فى التوراة ، المكتوبة على يدى موسى عبدك المنطوقة من فم هارون وأبنائه كهنة شعبك المقدسين فى قوله « يباركك الرب ويحرسك ، يضىء الرب بوجهه عليك ، ويرأف بك . يرفع الرب وجهه عليك ، ويمنحك سلاما ، فيجعلون اسمى على بنى إسرائيل وأنا أباركهم » (عدد ٦ / ٢٤ - ٢٦) .

- ١٩ -

اجعل علينا سلاما وخيرا وبركة وحياة ونعمة وفضلا وإحسانا ورحمة ، وعلى جميع شعبك إسرائيل . وباركنا يا أبانا جميعنا معا بنور وجهك . لأنه بنور وجهك أعطيتنا يارب إلهنا شريعة وحياة ومحبة وفضلا وإحسانا ورحمة وبركة وسلاما . ليكن حسنا فى عينيك أن تباركنا وتبارك كل شعبك إسرائيل بمزيد عزة وسلام ، (فى عشرة أيام التوبة يقال) : وفى سفر الحياة والبركة والسلام والقوت الجيد والفرج والعزاء والاحكام الحسنة لنذكر ونكتب أمامك نحن وجميع شعبك إسرائيل لحياة سعيدة وسلام .

مبارك أنت يارب يامن يبارك شعبه إسرائيل بالسلام ، آمين.

لتكن أقوال فمى وفكر قلبى مرضية أمام وجهك يارب ياصخرتى وموئلى . (مزامير ١٩ / ١٥) .

ب ـ التقويم العبرى والأعياد اليهودية

التوقيت ، وهو حساب الليل والنهار والايام والاسابيع والشهور والسنين ، من أهم الاشياء التى وجه إليها اليهـــود عنايتهم فى حياتهم الدينية . ولا عجب فى ذلك ، فقد شد انتباههم منذ القدم اهتمام الامم الاخرى المتحضرة التى تقلبـوا بين ظهرانيهـا بحساب الزمن . فالمصريون كانوا يؤلهون الشمس ، ويرصدون حركتها ويجعلون مدار السنة مرتبا مع دورتها . وكانوا يحتفلون بالفصول الاربعة ، ويربطون ذلك بأساطيرهم الدينية من ناحية ، وبحياتهم الزراعية من ناحيـة أخرى . والبابليـون والآشوريون والكلدانيون ، وكـذلك الـكنعانيون والسريان الآراميون ، والعرب ، كانوا يعرفون دقائق حركة الشمس والقمـر كليهما ، ودوران الـكواكب على مر الايام ، ينظمون بذلك نشاطهم فى الزراعة وانتجاع المراعى والسفر للتجارة . فحـذا العبريون حـذوهم ، واهتموا بالتاريخ والتقويم .

والتاريخ اليهودى يجعل نقطة بدايته خلق السموات والارض . وقد أخذ أحبارهم فى حساب أعمار الاسلاف ، وضم بعضها إلى بعض ، منذ آدم ، ملتزمين فى ذلك حرفية نص الـكتاب المقدس . وكانت النتيجة أننا الآن مثلا ، فى وقت كتابة هذه الدراسة ، أى فى السنة الجامعية ١٩٧٠/ ١٩٧١ ميلادية نجد أنفسنا بالتقويم العـــبرى فى سنة ٥٧٣١ من بدء الخليقة ، وهو بالطبع تاريخ خرافى أسطورى متأخر جدا عن بدء الخليقة الذى لايعلم إلا الخالق متى كان . ويـكفى أن نقول إن لدينا آثار من صنع يد البشر ، وحضارات ، وبقايا من أجسام إنسانية فى نواح كثيرة

متفرقة من العالم ترجع إلى ماقبل هذا التاريخ بأزمان طوال جدا . ومهما يكن من شيء فإن بدء التاريخ عند كل ملة من الملل إنما هو مسألة اصطلاحية ، متى ما اتفق عليها الناس فلا مشاحة فيها ، إلا من حيث ارتباطها بحادثة إنسانية عامة ضخمة مثل بدء الخليقة ، الذى يعتبر ، بلا تردد ، أضخم حوادث التاريخ .

وحساب الشهور فى السنة العبرية يتبع دورة القمر ، بينما حساب السنين يتبع دورة الشمس ولذلك فقد كان لزاما على اليهود حتى يتطابق الحسابان ، القمرى للشهور والشمسى للسنين ، أن يكون هناك نسيء يكمل الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية التى تقل بنحو عشرة أيام . هذا النسيء يجرى عند اليهود بإضافة شهر كل ثلاث سنين ، بحيث تكون سنتهم الكبيسة التى تأتى مرة كل ثلاثة أعوام مؤلفة من ثلاثة عشر شهرا . وشهر النسيء يقحم عندهم بعد شهر آذار اليهودى ، الذى يأتى كما سنرى فى فصل الربيع ، جزء منه فى أواخر فبراير ، وبقيته فى شهر مارس . وهكذا يكون فى السنة الكبيسة شهران هما آذار وآذار الثانى .

ولما كانت الشهور اليهودية قمرية كما قلنا فإنها ، كشهور السنة الهجريه ، إما أن تكون ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين يوما فقط . وهناك شهران إثنان فقط فى السنة اليهودية يأتى كل منها كاملا (ثلاثين يوما) أحيانا ، وناقصا (تسعة وعشرين يوما فقط) . أحيانا ، وهذان الشهران هما « حشوان » الذى يقابل نوفمبر ، و « كسليو » الذى يقابل ديسمبر .

وشهور السنة العبرية بحسب ترتيبها هى :

١ - تِشْري - ٣٠ يوما - (أكتوبر)
٢ - حِشْوان - ٢٩ أو ٣٠ يوما (آخر أكتوبر - نوفبر) .
٣ - كِسْلِوْ - ٢٩ أو ٣٠ يوما - آخر نوفبر - ديسمبر)
٤ - طيبِت - ٢٩ يوما - (آخر ديسمبر - يناير)
٥ - شباط - ٣٠ يوما - (آخر يناير - فبراير)
٦ - آذار - ٢٩ يوما - (آخر فبراير - مارس)
٧ - نيسان - ٣٠ يوما - (آخر مارس - ابريل)
٨ - أيار - ٢٩ يوما - (آخر ابريل - مايو)
٩ - سِيوان - ٣٠ يوما - (آخر مايو - يونيه)
١٠ - تموز - ٢٩ يوما - (آخر يونيه - يوليه)
١١ - آب - ٣٠ يوما - (آخر يوليه - أغسطس)
١٢ - إيلول - ٢٩ يوما - (آخر أغسطس - سبتمبر)

وفى السنة الكبيسة التى يقحم فيها شهر آذار الثانى ، يحسب آذار الأول ثلاثين يوما ، والثانى تسعة وعشرين يوما .

وكانت للطريقة القديمة للتقويم العبرى ، فيما يبدو ، تجعل بدء السنة فى فصل الربيع ، بل ربما كان بدء التاريخ إذ ذاك هو قصة خروج موسى من مصر فى الفترة التى يقع فيها عيد الفصح ، وهو شهر نيسان (إبريل) من شهور الربيع . ولذلك جرت عادة اليهود حتى الآن عندما يسردون أسماء شهور السنة أن يبدأوا بنيسان لا بتشرى فيقولون نيسان - أيار - سيوان - تموز - آب - أيلول - تشرى - حشوان - كسلو - طبت - شباط - آذار .

والسنة اليهودية تنقسم إلى أربعة فصول ، كل فصل منها طوله واحد وتسعون يوما وسبع ساعات ونصف ساعة ، وهي :

١ - فصل الخريف ، ويسمى عندهم « تقوفت تشرى » . ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ سبتمبر .

٢ - فصل الشتاء ، ويسمى عندهم « تقوفت طبت » . ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ ديسمبر .

٣ - فصل الربيع ، ويسمى عندهم « تقوفت نيسان » ويبدأ في ٢٥ أو ٢٦ مارس .

٤ - فصل الصيف ، ويسمى عندهم « تقوفت تموز » . ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ يونيه .

وقد حدد الموقتون ، طبقا لحساباتهم الفلكية ، أياما محددة من الاسبوع يبدأ فيها كل شهر من الشهور وهذا بيانها :-

نيسان : الأحد والثلاثاء والخميس والسبت ، ولا يكون أبدا . الإثنين أو الاربعاء أو الجمعة .

أيار : الإثنين والثلاثاء والخميس والسبت ، ولا يكون أبدا : الأحد أو الاربعاء أو الجمعة .

سيوان : الأحد والثلاثاء والاربعاء والجمعة ، ولا يكون أبدا : الإثنين أو الخميس أو السبت .

تموز : الأحد والثلاثاء والخميس الجمعة ، ولا يكون أبدا : الإثنين أو الاربعاء أو السبت .

آب : الإثنين والأربعاء والجمعة والسبت ، ولا يكون أبدا : الأحد أو الثلاثاء أو الخميس.

إيلول : الأحد والإثنين والأربعاء والجمعة ، ولا يكون ابدا : الثلاثاء أو الخميس أو السبت .

تشرى : الإثنين والثلاثاء والخميس والجمعة ، ولا يكون أبدا : الأحد أو الأربعاء أو السبت .

حشوان : الإثنين والأربعاء والخميس والسبت ، ولا يكون أبدا : الأحد أو الثلاثاء أو الجمعة .

كسلو : الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، ولا يكون أبدا يوم السبت .

طبت : الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والجمعة ، ولا يكون أبدا : الخميس أو السبت .

شباط : الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والسبت ولا يكون أبدا : الأحد أو الجمعة.

آذار : السبت والإثنين والأربعاء والجمعة ، ولا يكون أبدا الأحد او الثلاثاء أو الخميس . (وآذار الثانى مثله فى السنة الكبيسة) [1] .

---

(١) كتاب الصلوات ، ترجمة الدكتور هلال يعقوب فارحى ، باب التقويم العبرانى ص ٢٥٠ وما بعدها .

وأهم مواسم اليهود وأعيادهم :

١ ـ السبت ، وهو العيد الأسبوعى عندهم ، ومدته من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت . وأهم شعائره الكف عن أى عمل ، فبذلك جاء الأمر صريحا فى الوصايا العشر ، المنسوبة إلى موسى فى التوراة . وقد سبق أن قلنا أن هذه الوصايا العشر تكررت بألفاظها تقريبا فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج ، والاصحاح الخامس من سفر التثنية . ومن المواضع التى اختلفت فيها الروايتان الموضع الذى تشرح فيه حكمة تعطيل العمل يوم السبت ، فرواية الخروج تجعل ذلك لأن الله نفسه استراح فى هذا اليوم بعد انتهائه من تكوين الخليقة ، وتقول : « واليوم السابع سبت للرب إلهك ، لاتصنع فيه عملا ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى فى داخل أبوابك ، لأن الرب فى ست أيام خلق السموات والأرض والبحر وجميع ما فيها ، وفى اليوم السابع استراح . ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه » . وفى رواية سفر التثنية يبدو أن الحكمة فى تقديس يوم السبت هى بكل بساطة تمكين الانسان والحيوان من الراحة بعد أسبوع من العناء . ولا يرتبط ذلك هنا بأن الله استراح فى اليوم السابع. بل ربما كان المفهوم من السياق هو ربط هذه الراحة بالتحرر من السخرة والعبودية ، عندما كان قوم موسى ما يزالون فى مصر عبيدا لفرعون يعملون بأمره ولا يحق لهم أن يستريحوا يوما واحدا فى الاسبوع ،فهذه الرواية تقول : « احفظ يوم السبت وقدسه كما أمرك الرب إلهك . فى ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك . واليوم السابع سبت للرب إلهك ،

لاتعمل فيه عملا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وسائر بهائمك ونزيلك الذى فى داخل أبوابك ، لكى يستريح عبدك وأمتك مثلك . واذكر أنك كنت عبدا فى أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد قوية وذراع ممدودة ولذلك أمرك الرب إلهك بأن تحفظ يوم السبت » .

وتفنن فقهاء اليهود فى تفسير الكف عن العمل يوم السبت ، فحرموا فيه كل ما من شأنه أن يشعر بالسعى فى الرزق أو الانشغال بحرفة أو صناعة أو إنتاج أو بذل جهد فى تحقيق هدف معين . لذلك حرموا ايقاد نار يوم السبت ، وإن كان أكثرهم قد أباح بقاء النار التى أشعلت قبل الدخول فى السبت والانتفاع بها يوم السبت نفسه ، كأن توقد الأنوار والشموع والقناديل والأفران ونيران المطابخ والمدافىء والمواقد بعد ظهر الجمعة لاستخدامها ليلة السبت . كذلك حرموا السفر فى هذا اليوم ، لتحريم ركوب الدواب قديما ، وتحريم إيقاد النار التى تنطبق الوصية بها على وسائل المواصلات الحديثة ، كالقطار والسيارة والباخرة والطيارة ، التى تعتمد كلها فى سيرها على النار . وجعلوا من السفر عبور الجداول والأنهار أو الانتقال بحرا . كذلك يحرم فى يوم السبت إنفاق النقود أو تسلمها ، فهذا كله عمل أساسه البيع والشراء أو أنواع مشابهة من الاكتساب والأخذ والعطاء بين الناس . ومما يحرم فى يوم السبت الكتابة لأنها فى عرفهم تكون لإبرام العقود وعقد الاتفاقات ونحوها مما يدخل فى مفهوم الشغل ، لذلك جرى العرف على ألا يخرج اليهودى المتمسك بتعاليم السبت من بيته إلا وقد تأكد أن جيوبه ليس

فيها أقلام ولا أوراق ولا نقود ولا كبريت ، وأكثرهم يخرج إلى المعبد وليس معه إلا التوراة أو كتاب الصلوات « السدور » .

وبطبيعة الحال يحرم عقد الزواج يوم السبت ، لاحتياج ذلك إلى الكتابة ودفع الأموال وقبضها والعمل فى إعداد الزفاف ونحو ذلك .

وتحرم الحرب الهجومية يوم السبت ، لكن إذا أعلن الكاهن اليهودى أن العسكر الإسرائيلى ، أو أن أهل هذه الملة ، فى خطر اعتبرت الحرب دفاعية وجاز دوراتها يوم السبت . ولذلك نلاحظ أن قادة إسرائيل فى الوقت الحاضر حريصون جداً على إظهار حروبهم أمام الرأى العام اليهودى والعالمى بشكل حروب دفاعية ، حتى يتخلصوا من مشاكل السبت وغيرها من مشاكل الحرب الهجومية ، كضرورة الحصول ، فى حالة التعبئة للحرب الهجومية ، على إذن باستنفار من يصلحون للقتال من المجلس الدينى الأعلى .

٢ - بداية الشهر القمرى ، وله طقوس وصلوات خاصة تؤدى عند رؤية الهلال كل شهر ، وهم لايعتمدون على الرؤية البصرية ، ويأخذون الآن بالحساب الفلكى . ويسمى عيد الهلال عندهم « رُوشْ حُودِشْ » أى رأس الشهر . والاحتفال به يكون أحيانا يوما واحدا ، وأحيانا يومين .

٣ - رأس السنة العبرية ، ويسمى عندهم « رُوشْ هَشَانَاه » وتستغرق طقوسه ثلاثة أيام ، منها اليوم الأول والثانى من شهر تشرى (فى أوائل أكتوبر) ثم يستمر الاحتفال فى اليوم الثالث بطريقة شعبية . أما اليوم الرابع من تشرى فهو يوم صيام اسمه « صومْ جِدَلْيَا » ، وهو يوم

حزن وحداد ـ كـكل أيام الصوم عند اليهود . ومناسبته هو ذكرى قتل جِدَلْيَا بن أحيقام الذى ولاه بختنصر ملك بابل على البقية الباقية من اليهود فى فلسطين بعد الاستيلاء عليها ، ونقل من يصلـــح للخدمة من اليهود أسرى إلى بابل . وتقول القصة إن أعداء اليهود دبروا مؤامرة لقتل جدليا فى هذا اليوم حتى يتمكنوا من إتمام إبادة هذه البقية الباقية معه من بنى اسرائيل .

٤ ـ يوم الغفران ، أو يوم الـكفارة ، وهو اليوم العاشر من شهـر تشرى . ويبدأ هذا العيد قبيل غروب الشمس من اليوم التاسع من تشرى ، ويستمر إلى ما بعد غروب شمس اليوم التالى ، فمدته حوالى ٢٧ ساعة ، يجب فيها الصيام ليلا ونهاراً وعدم الاشتغال بأى شىء ما خلا العبادة ، واسمه بالعبرية « يوم كِبُّور » .

والظاهرة أن بداية هذه الشعيرة ترجع إلى عصور العبريين الأولى ، بل من الراجح أن الشريعة الموسوية نفسها قد قررت يوما فى السنـــة لحساب النفس ، والندم على ما بدر من المؤمن من الخطايا ، والتـكفير عنها لا بالصوم فقط بل بالذبائح والصلوات والأموال ورد المظـالم إلى أهلها وطلب الصفح من المعتدى عليهم ، وكان اسمه قديما « يوم هكّبوريم » أى يوم الـكفارات . ولـكن حدث صدفة أن بختنصر دمر أورشليم وأشعل فيها النيران ودخلتها جيوشه منتصرة فى هذا اليوم (سنة ٥٨٦ ق.م) ، فاقترن هذا اليوم بتلك الذكرى السياسية الأليمة بالنسبة لليهود ، وأصبح عندهم أكبر أيام الحداد .

ومن الأشياء الهامة التى تجب الإشارة اليها هنا أن اليهود ، على طول

تعرضهم للاضطهاد من الأمم التى عاشوا بين ظهرانيها ، قد جعلوا من يوم الغفران أو التكفير هذا يوما يعلنون فيه نقضهم للعهود والمواثيق التى قطعوها لغير اليهود . وأفتى فقهاؤهم بأن الداعى إلى ذلك كان إكراه اليهود على تغيير دينهم . وشاع بين عوام اليهود أن يوم الغفران هذا يجوز فيه أكل الديون التى على اليهودى وعدم أدائها ، كما يجوز فيه الرجوع فى كل وعد أو تعهد قطعه على نفسه طول السنة معتمدين فى ذلك على نص يتعبدون به - باللغة الآرامية يبدأ بعبارة « كل ندرى وأسارى وشبُوعى ... الخ » التى معناها « كل النذور والتحريمات والأيمان إلى آخره » والنص ينهى ذلك بأنها ملغاة ، وأن النذور ليست نذورا والتحريمات ليست تحريمات والأيمان ليست أيمانا » وبلغ من انتشار ذلك بينهم أن كثيرا من رجال الدين اليهودى المعاصرين قاموا فى وجه هذه البدعة ، فحاخام بروكسل دافيد برمان يقول فى ذلك[1] « إنه يكون من الخطأ الجسيم أن تفهم من هذا النص إمكانية متاحة للإسرائيلى فى عدم التمسك بما قطعه على نفسه من وعود فلا يمكن أن يكون هذا النص التعبدى ملغيا لما جاء فى الشريعة - (التوراة ، سفر التثنية ٢٣/ ٢٤) وأما ما خرج من شفتيك فحافظ عليه ... » .

٥ - عيد الظُلَل ، واسمه بالعبرية « سكّوت » ، والأصل فى هذا العيد أنه عيد زراعى ، كان يحتفل فيه بتخزين المحصولات الزراعية الغذائية للسنة كلها فى هذا الفصل وهو فصل الخريف . فكانوا يكدسون مئونتهم من التمر والتين الجاف والزيتون والزبيب والنبيذ ، ولذلك يسمونه أيضا بالعبرية « حج هاأسيف » أى عيد التخزين .

---

(١) David Bertman ; Initiation au Judaisme ; Paris 1937 — 1938 : p. 148 ss.

ويبدأ هذا العيد فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرى ، ويكون الاحتفال به منذ غروب شمس اليوم الرابع عشر ، بحيث تكون هذه ليلة العيد . ومدته التقليدية تسعة أيام ، منها سبعة أيام هى عيد الظلال بذاته ، ويومان آخران هما الثانى والعشرون والثالث والعشرون من تشرى ، ولهما لون آخر ، فالأول منهما يسمى الثامن الختامى « شميني عصيرت » لأنه يختم عيد الظلال بأيامه السبعة ، بل يختم كل الأعياد المكدسة فى الشهر الأول من السنة العبرية وهو شهر تشرى . وأما اليوم الثانى من هذين اليومين الأخيرين فإنه يفتتح دوره جديدة من قراءة التوراة ، ولذلك يسمى عيد فرحة التوراة « سمحت توراة » .

أما سبعة أيام الظلال ، فاليومان الأولان منها عيد بكامل مظاهر البهجة والاحتفال ، والخمسة الباقية استمرار مخفف لها . والتقليد عند اليهود فى هذا العيد أن يقيموا فى أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر التى لاتحجب عنهم رؤية السماء تماما . وهذه الأكواخ النباتية التى تشبه ما نسميه فى مصر « الخُصّ » ، أو ما يسمى فى الأقطار الشامية « العرزال » أو « العَريشة » لابد أن ترجع إلى أعياد زراعية ورعوية بدائية ، إذ بعد موسم الجفاف الطويل مدة شهور الصيف ، ينتظر الفلاحون والرعاة مع الخريف بواكير المطر ، ويحتفلون بها احتفالا خاصا . ولذلك فإن اليوم السابع والأخير من عيد الظلال يسمى عند اليهود « اليوم الكبير لطالب النجدة » ، وبالعبرية « هوشعنا ربّا » . ويبدو أنها فى الأصل كانت صلاة استسقاء عندما يتأخر المطر . وقد جرى عرف اليهود الآن على أنهم فى هذا اليوم يدخلون المعبد لهذه الصلاة

وفى يد كل واحد منهم غصن من الأغصان التى تستعمل فى تهيئة هذه الظلل ، فيضربون على الكراسى بهذه الأغصان حتى تتساقط أوراقها كلها ، ويعتقدون أنه مع سقوط الأوراق تسقط عنهم ذنوبهم التى ارتكبوها فى السنة .

وبالطبع أصبح اليهود المقيمون فى أوروبا وأمريكا لايحتفلون بعيد الظلل فى الهواء الطلق لشدة البرودة ، واحتمال سقوط الأمطار فى هذه الأيام الأخيرة من تشرى (أواخر اكتوبر) . ولذلك فهم يكتفون بعمل مظـــلة صغيرة من السعف أو أغصان الصفصاف ، ومعها غصن من الأترج ، وهو نوع من الموالح معروف ، بحيث تنصب هذه المظلة فى إحدى الشرفات بالمسكن ، ويتناولون فيها وجبات الطعام فقط ، ثم ينامون فى فراشهم داخل بيوتهم .

٦ ـ الحانوكا ، أو عيد التدشين . وهو عيد له طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية فى الخامس والعشرين من شهر كسلو ، الذى يقابل شهر ديسمبر . وهو بوضعه هذا يمكن أطفال اليهود من الاحتفال بعيد إسرائيلى فى نفس الفترة التى يحتفل فيها المسيحيون بعيد الميلاد .

ومناسبة هذا العيد ترجع إلى سنة ١٦٥ ق م. إذ كانت فلسطين هى وسائر بلاد الشام تحت الحكم اليونانى ، كما كانت مصر أيضا . وكان المتصرف فى الأقطار الشامية هو انتيوخوس إبيفانس ، الذى حاول إرغام اليهود الواقعين تحت حكمه على ترك دينهم ، والدخول فى الوثنية اليونانية . ولكن الكاهن الأكبر متاتيا أعلن المقاومة يعاونه فى ذلك أحد أبنائه واسمه يهوذا المكابى ، وأمكنهما انتزاع المعبد اليهودى من

الجيوش اليونانية السورية التي وجهها انتيوخوس ابيفانس. وفي ٢٥ كسلو من هذه السنة أخرجت التماثيل اليونانية من الهيكل، وزوده متاثيا وأبنه يهوذا المكابي بمذبح طاهر جديد، وأعيد فتحه للشعائر اليهودية. وهذا هو السر في تسمية هذا العيد بعيد التدشين.

والطابع المميز للاحتفال بهذا العيد هو اشعال الشموع الكثيرة والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل، كذلك تدخل في العبادة قصائد وأناشيد كثيرة كلها إشادة بالأعمال الجليلة البطولية التي تمت في هذه الفترة. وبالرغم من أن السفرين الخاصين بتاريخ المكابيين يتعبران من النصوص غير القانونية عند اليهود، فان المثقفين منهم يقرأونهما عادة في هذه المناسبة.

وتجعل الصهيونية من هذا العيد فرصة من الفرص التي تغتنمها للدعاية فالحاخام البلجيكي دافيد برمان يذكر أن الدروس التي يستفيدها اليهودي من العيد هي : (١)

١ - الإيمان، والإمكانيات الخارقة التي يمكن أن يصنعها الإيمان. ويقول في هذا الصدد ماخلاصته أن أمراء الحشمونيين اليهود (المكابيين) لم يكونوا شديدي التمسك بالدين اليهودي أو التعصب له. ولكن إيمانهم قوي إزاء رؤيتهم أصنام اليونان في داخل معبدهم. وإلى هذا التاريخ يرجع تحليل القتال عند اليهود يوم السبت.

٢ - الشجاعة والبسالة ؛ ويقول نفس المؤلف إن هؤلاء الحشمونيين

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٩ وما بعدها.

لم يكونوا فى الأصل من المحاربين المغاوير . ولكنهم أكتشفوا ذلك عندما تعرضوا للخطر ، كما أنهم قرنوا الشجاعة بالبراعة السياسية والدبلوماسية .

٣ - صعوبة اندماج اليهود . ويقول الحاخام برمان إنه طالما كانت الحضارة اليونانيه قائمة على التسامح والحرية الدينية والاعتراف بالشخصية اليهودية المتميزه عن غيرها ، ساير اليهود التيار وأخذوا مايفيدهم من هذه الحضارة اليونانية محتفظين بمميزاتهم الخاصة . ولكن عندما أراد أنتيوخوس إبيفانس حملهم على ترك يهوديتهم نهائيا وبالقوة ، هبوا هبتهم هذه من جديد .

ويطول بنا القول لو أننا تتبعنا كل ماكتب شعرا ونثرا من أدب قصصى ومسرحى وغنائى ودينى حول الحانوكة بأقلام اليهود المنتشرين فى العالم ، وما حظيت به شموع الحانوكة وقناديلها من أعمال فنيـــة تشكيلية ، وإنما أردنا أن نلفت نظر القارىء العربى إلى أن بعض القيم الروحية فى اليهودية قد تحولت مع الصهيونية المعاصرة إلى قيم تعصبية سياسية وعسكرية .

٧ - البُوريم ، أو عيـــد الفُور أو عيد النصيب . وكان الكتّاب العرب يسمونه « عيد المسخرة » أو « عيد المساخر » والسبب فى ذلك ما جرت به بعض تقاليد يهودية شعبية فى هذا العيد من إسراف فى شرب الخمر والسُكْر ، ولبس الاقنعة والملابس والتنكرية على طريقة المهرجان الكرنفال .

وهذا العيد أيضا لايمت بصلة الى رسول الله موسى عليه السلام ،

ولا إلى شريعته ، بل هو احتفال تذكارى متصل بملابسات عهدة العودة من السبي البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بناء على وعد صدر من ملك الفرس إلى ممثلى الجالية اليهودية المقيمه عند الكلدانين بالعراق ، بأنه إذ تم له - بمساعدتهم طبعا - دخول العـــراق وتدمير الدولة الكلدانية سيعيدهم إلى فلسطين . وبطبيعة الحال كان تقرير الاحتفال بتلك الذكرى وما علق بها من حكايات متأخراً بالنسبة لتلك الحوادث . وهو احتفـال أشد التصاقا بالسياسة منه بالدين ، ولذلك فانه يحظى فى ظل الصهيونية الحديثة باهتمام خاص ، ويدور حول قصة اليهوديه إستير .

ويبدأ هذا العيـــد من ليلة الثالث عشر من شهر آذار من السنة اليهودية ، ويكون يوم ١٣ آذار نفسه صوما يسمى عندهم « صيـــام إستير » ، أما اليوم الرابع عشر فهو العيد الذى يستمر طيلة هذا اليوم ويطلق عليه « يوم بوريم » ، ثم يكون اليوم الذى يليه ، وهو الخامس عشر من آذار ، اليوم الصاخب ، يوم الكرنفال ، ويسمونه « بوريم شوشان » نسبة إلى مدينة « شوشان » أو « سوزة » الإيرانية .

وبالرغم من وضوح مناسبة هذا العيد من الناحية السياسية والتاريخية ، فان التلمود يزعم أنه كان معروفـا محتفلا به منذ أيام يوشع بن نون لأسباب - مماثلة كما يقول للاحداث التى وقعت لليهود فى السبي البابلى .

وخلاصة هذه الأحداث هى أن ملك الفرس « أحشويروش » — إكسركسيس عند المؤرخين — كان قـد اتخذ له وزيرا اسمـه هامان . وكان هذا الوزير يكره رجلا من حكام اليهود ، اسمه « مردخاى » ، كراهية شديدة تحدث شخصه إلى الجنس اليهودى كله ، بحيث أقسم هامان

أن يقطع دابرهم جميعا من بلاده . وأجرى هامان القرعة لاختيار يوم مذبحة اليهود . وكلمة القرعة فى اللغة الفارسية إذ ذاك كانت « بور » أو « فور » ، وجمعها بالعبرية « بوريم » . وأسفرت هذه القرعة عن تحديد الثالث عشر من آذار موعدا لتنفيذ عملية الإبادة فى اليهود ، وأعدت مشنقة فى الساحة العامة حتى يعلق فيها مردخاى . وكان مردخاى هذا وصيًّا ووليًّا على قريبته « إستير » التى كان جمالها مضرب الأمثال . وكان «أحشويروش» عاشقا لها مغرما بها ، بحيث أفسح لها مكانا فى قاعدة ملكه ، وأبدى فى مناسبات كثيرة الطاعة لأمرها لدرجة أنها كانت تسمى « الملكة إستير » .

فذهب إليها قريبها اليهودى مردخاى مستنجدا ، وتقول القصة (سفر إستير ١٦/٤) أنها قالت لمردخاى « اذهب واجمع كل اليهود الذين فى شوشان (عاصمة المملكة التى تسمى سوزه أيضا) وصوموا لأجلى ، ولاتأكلوا ولاتشربوا ثلاثة أيام ليلا ونهارا ، وأنا ووصيفاتى نصوم كذلك ، ثم أدخل على الملك ، على خلاف العادة ، فإن هلكتُ هلكتُ» . وتستمر القصة فى الفصل الخامس من سفر إستير فتقول :

« وكان فى اليوم الثالث أن لبست إستير ثياب المُلك ، ووقفت فى ساحة دار الملك الداخلية ، قبالة دار الملك ... فكان لما رأى الملك إستير الملكة واقفة فى الساحة ، أنها نالت حظوة فى عينيه ، فمد الملك لإستير صولجان الذهب الذى بيده ، فتقدمت إستير ولمست رأس الصولجان وقال لها الملك مالك يا إستير الملكة ، وما بغيتك ؟ ولو كانت نصف المملكة فإنها تعطى لك . فأجابت إستير : إن حسن عند الملك ، فليأت

الملك وهامان هذا اليوم إلى الوليمة التى أعددتها له . فقال الملك استعجلوا هامان ليفعل كما قالت إستير . ثم جاء الملك وهامان إلى الوليمة التى صنعتها إستير . فقال الملك لإستير ، عند الشرب ، مابغيتك فتعطى لك وما سؤالك ولو كان نصف المملكة فيقضى . فأجابت إستير وقالت بغيتى وسؤلى ، إن حظيت فى عينى الملك ، وإن حسن عند الملك أن يعطينى بغيتى ويقضى سؤلى ، فليأت الملك وهامان إلى الوليمة التى أصنعها لهما ، وغدا أفعل أنهما كمشيئة الملك . فخرج هامان ذلك اليوم فرحا طيب القلب .

ولما رأى هامان مردخاى بباب الملك ، وأنه لم يقم له ولم يتحرك ، امتلأ هامان غيظا على مردخاى . ولكن هامان ضبط نفسه ، وجاء إلى بيته وأرسل فأحضر أصدقاءه وزوجته زارش . وحدثهم هامان بعظمة ثروته وكثرة بنيه وكل ما كرمه به الملك وكيف رفعه على الرؤساء وعبيد الملك . وقال هامان : وفوق ذلك فإن إستير الملكة لم تُدخل أحدا إلى الوليمة التى صنعتها إلا إياى مع الملك ، وأنا غدا مدعو أيضا إليها مع الملك ، إلا أن هذا كله عندى كلا شىء ، مادمت أرى مردخاى اليهودى جالسا بباب . فقالت له زراش زوجته وجميع أصدقائه ، لتصنع خشبة بعلو خمسين ذراعا ، وغدا كلم الملك ليعلق عليها مردخاى ، ثم أدخل مع الملك إلى الوليمة مسرورا . فحسن الأمر عند هامان وصنع الخشبة » .

وتستمر إستير هى ومردخاى فى حبك المؤامرة ، والملك يسكر معها حتى ينتهى الأمر بشنق هامان على الخشبة التى كان قد أعدها لمردخاى .

وسلم الملك بيت هامان لإستير التى عينت فيه مردخاى وكيلا . ويقول سفر إستير ، فى الإصحاح التاسع ، إنه فى اليوم الثالث عشر من آذار الذى كان فيه أعداء اليهود يرتجون التسلط عليهم ، « انقلب ذلك فكان لليهود التسلط على مبغضيهم . إذ اجتمع اليهود فى مدائنهم ، فى جميع أقاليم أحشويروش الملك ، لكى يلقوا أيديهم على جميع طالبى مساءتهم ، فلم يقف أحد فى وجوههم ، لأن خوفهم وقع على جميع الشعوب . وكان جميع رؤساء الأقاليم والأقطاب والولاة ووكلاء عمل الملك يساعدون اليهود ، لأن خوف مردخاى وقع عليهم . إذ كان مردخاى عظيما فى بيت الملك ، وقد سار ذكره فى جميع الأقاليم ، لأن مردخاى كان آخذا فى العظمة فضرب اليهود جميع أعدائهم ضرب السيف والقتل والإهلاك ، وفعلوا بمبغضيهم كما شاءوا . وفى شوشان العاصمة قتلت اليهود وأهلكت خمسمائة رجل ... وعشرة أبناء هامان بن همداثا عدوّ اليهود قتلوهم ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى غنيمة .

فى ذلك اليوم رفع عدد المقتولين فى شوشان العاصمة إلى الملك . فقال الملك لإستير الملكة قد قتل اليهود وأهلكوا فى شوشان العاصمة خمسمائة رجل مع بنى هامان العشرة ، فما يكونون فعلوا فى باقى أقاليم الملك . والآن فما بغيتك فتعطى لك ، وما سؤلك بعد فيقضى . فقالت إستير إن حسن عند الملك ، فليبح لليهود الذين فى شوشان أن يفعلوا غدا أيضا كما فعلوا فى هذا اليوم ، ويعلقوا بنى هامان العشرة على خشبات . فأمر الملك بأن يفعل هكذا ، وأبرز الحكم فى شوشان ، فعلقوا بنى هامان العشرة . واجتمع أيضا اليهود الذين فى شوشان فى اليوم الرابع عشر من شهر آذار وقتلوا ثلاثمائة رجل فى شوشان ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى غنيمة . واجتمع سائر اليهود الذين فى أقاليم

الملك ونهضوا لأنفسهم ، واستراحوا من أعدائهم ، وقتلوا من أعدائهم خمسة وسبعين ألفا ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى غنيمة . فعلوا ذلك فى اليوم الثالث عشر من شهر آذار ، واستراحوا فى اليوم الرابع عشر منه ، وجعلوه يوم وليمة وفرح . وأما اليهود الذين فى شوشان فانهم اجتمعوا فى الثالث عشر منه وفى الرابع عشر ، واستراحوا فى الخامس عشر منه ، وجعلوه يوم وليمة وفرح . ولذلك جعل اليهود الذين فى القرى ، الساكنون مدائن غير محصنة ، اليوم الرابع عشر من شهر آذار يوم فرح ووليمة ، ويوم خير وتوجيه « أنصبة » من بعضهم إلى بعض ... لذلك دعوا هذين اليومين ُبوريم أخذا من اسم البوُر . ولذلك من أجل جميع كلمات هذه الرسالة وما رأوا من ذلك وما حل بهم ، سن اليهود وأوجبوا على أنفسهم وعلى نسائهم وعلى كل من يتصل بهم ، ألا يبطل تعييدهم لهذين اليومين بحسب كتابتهما وأوقاتهما كل سنة » .

وسفر إستير المتضمن لهذه القصة فى العهد القديم ، والمؤلف من عشرة إصحاحات ، يكتب بخط اليد على جلد أو رقّ ، ويحفظ مع التوراة فى المعبد اليهودى ، لقراءته فى هذا العيد .

وقد لاحظ نقاد الكتاب المقدس منذ عهد بعيد نواحى غريبة فى هذا السفر . منها أن الله غير مذكور فيه على الإطلاق ، لا على لسان اليهود ولا على لسان الفرس . ويقول بعض المحققين إن طابع هذا العيد ، الصاخب الذى يكثر فيه شرب الخمر والتهريج والكرنفال ، قد أدى إلى احتياط فى تسجيل النص بعدم ذكر اسم الله فيه . إذ يقول الآباء اليسوعيون فى طبعتهم العربية للكتاب المقدس ببيروت ، عند تقديمهم لسفر إستير : « لقد حفظ هذا السفر فى التوراة العبرية . وهو يقرأ كل سنة فى عيد

الفوريم الصاخب ، الذى يعتبر بمثابة ذكرى لهذه الحوادث . وقد يشرح طابع هذا العيد هذا الحدث الفريد الذى مفاده أن نص السفر كما جاء فى التوراة العبرية لايذكر اسم الله . ولربما كان ذلك خشيه أن ترافق ذكر اسم الله هتافات وتظاهرات غير لائقة من قبل سامعين ، فى نشوة من الأفراح . وهذا أمر مضر بالاحترام الواجب لاسم الله .

« واستدراكا لهذا النقص فقد ذيل السفر فى النص اليونانى وسائر الترجمات بصلوات جميلة يرفعها مردخاى وإستير . فلا نعلم [illegible] تاريخ فى هذا الجزء الدينى . لكن حتى فى القسم الخالى من ذكر اسم الله ، فالنص العبرانى يتكلم ضمنيا عن الله بسبب مجرى الأمور التى كما يرويها السفر .

« أما تاريخية التفاصيل وجوهر السفر أيضا فتعترضها صعوبات جمة على الرغم مما جاء من ملاحظات شديدة عن الأخلاق الفارسية وطوبوغرافية صحيحة عن مدينة شوشان . من الممكن أن يكون اليهود قد تعرضوا لتعنيفات من هذا النوع فى أثناء الحكم الفارسى . وقد حاك المؤلف حول ذكرها قصة خيالية .

« أما تاريخه ، وهو حديث دون شك ، فقد يرجع إلى الجيل الثانى قبل المسيح » .

والصلوات المضافة إلى الإصحاحات العشرة ، والتى يشير إليها الآباء اليسوعيون ، تبدأ بتذييل طويل للاصحاح العاشر والأخير فى النسخة العبرية ، ثم تشغل ستة إصحاحات كاملة ، لايعترف بها اليهود ، ويرد فيها ذكر البطالسة وغيرهم من أعلام العصور اليونانية التالية للاسكندر .

وبالرغم من أن البينة ، أو الملـكة إستير فيما يبدو لم تكن غير شخصية قصصية من نسج الخيال اليهودى الخصب ، لم يقم دليل واحد على وجودها تاريخيا ، أو على ممارستهـا هى وقريبها مردخاى ، هذا النفوذ الواسع النطاق فى القصر الإمبراطورى الفارسى ، فان النزعة الصهيونية التى تصيب نفوس اليهود بين الفينة والفينة ، منذ السبى البابلى ، قد شاءت أن يجعل هؤلاء اليهود من إستير وقصتها ، لا رمزا للدهاء اليهودى ، ومايزعمونه من عناية الله عناية خاصة بهم وحدهم ، بل جعلوا هناك ارتباطا بين إستير وما كان من غرام الإمبراطور أحشويروش بها ، وبين موضوع العودة من السبى البابلى ، وانتشر ذلك فى تراثهم الشعبى ، وفى الكرنفال الذى يقيمونه احتفالا بعيد « بوريم » .

وواقع الأمر هو أن عودتهم من السبى قد ارتبطت بالصراع بين الفرس والكلدانيين عندما كان الإمبراطور كورش الإيرانى يتحفز لاحتلال العراق . وقد تعاون اليهود معه ، انتقاما من حادثة السبى ، ورغبة فى الحصول على تصريح منه بالعودة إلى فلسطين . ويبدو أن وعد كورش قديما ووعد بلفور حديثا يتشابهان فى أن كلا منهما يكرس بصورة قاطعة تعاون الصهيونية مع الاستعمار فى منطقة الشرق الأوسط . ومع ذلك فهناك فرق بين الحالتين جدير بالاهتمام ؛ ففى الحالة الأولى ـ تحت حكم الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ـ ربما كانت الرغبة فى العودة نابعة من الإيمان الدينى ، تكتفى بإعادة بناء الهيكل وإقامة الشعائر الخاصة فيه ، دون إجلاء سكان فلسطين من غير اليهود ـ وقد كانوا دائما وعلى مر العصور كلها كثيرين جدا ـ عن هذه الأرض . كذلك لم يفكر اليهود طيلة الحكم الفارسى وحكم الإسكندر من بعده فى تحويل هذا الوجود الدينى

إلى وجود سياسى أو عسكرى ، حتى عهد المكابيين فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد . بل إن وعد كورش لليهود بالعودة ، وتأمين إقامتهم فى فلسطين تحت أسنة الحراب الفارسية ، لم يشجع على الهجرة إلى فلسطين إلا عددا قليلا جدا منهم ، ذهبوا مع زعيمهم الدينى عزرا . ولم تتحول الهجرة اليهودية إلى شىء يستحق الذكر إلا بعد ذلك بمائتى عشرة سنة . ولكن الصهيونية الحديثة تضلل وتخلط وتستغل ، حتى الأساطير فى إشعال نار العصبية ، والاقتناع العاطفى الأهوج الذى لا يقوم على دليل صلب من التاريخ ، بقضية خلقوها من العدم ، وأرادوا أن يوهموا الناس جميعا أنها صورة مكررة من قضايا قديمة مماثلة . ومهما يكن من شىء فحكاية إستير لا تتصل بالعودة القديمة لليهود إلى فلسطين إلا فى الخيال الشعبى لتلك المجموعة البشرية المريضة .

والذى يقوله العهد القديم فى ذلك هو ما جاء فى الإصحاح الأول من سفر عزرا : « فى السنة الأولى لكورش ملك فارس ، لكى يتم ما تكلم به الرب بفم إرميا ، نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى مملكته كلها وكتابات أيضا ، قائلا : هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض قد أعطانيها الرب إله السموات ، وأوصانى بأن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا . فمن كان منكم من شعبه أجمع فإلهه يكون معه ، وليصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا ليبنى بيت الرب إله إسرائيل ، وهو الإله الذى فى أورشليم . وكل من بقى فى أحد المواضع حيث هو متغرب فلينجده أهل موضعه بالفضة والذهب والمال والبهائم فضلا عما

يتطوعون به لبيت الله الذى فى أورشليم . فقـــام رؤساء آباء يهوذا وبنيامين ، والكهنة واللاويون ، مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا لبناء بيت الرب الذى فى أورشليم » . فهى كما قلنا عودة دينية ، لتجديد حرم مقدس ، وتدشينه للعبـــادة والحج من جديد ، وليكون قبلة اليهود جميعا .

ويقول الحاخام البلجيكى دافيد برمان(١) ، إن هناك دروسا تستفاد من ذكرى عيد « بوريم » منها :

١ ـ أنه يجب على اليهود أن يتجنبوا إشعال نيران العداوة ضدهم ، أو ما يسميه معاداة السامية ، عند الأمم الأخرى ، إلا إذا كان ذلك أمراً لا يمكن تفاديه ، كما حدث مع مردخاى قريب إستير .

٢ ـ إذا حدث واشتعل عداء السامية ضد اليهود فمن الواجب على اليهود أن يواجهوه ويناضلوا ضده بشجاعة ، كما فعل مردخاى .

٣ ـ أن الارتباط القائم بين أى يهودى وبنى ملته لا يمنعه من الإخلاص والولاء العميق للحاكم الذى يعيش تحت سلطته ولو لم يكن يهوديا كما كان مسلك مردخاى إزاء أحشويروش . [هذا الحاخام يكتب بالفرنسية ، وهذه العبارة مجرد دبلوماسية] .

٤ ـ أنه مهما كان اليهودى مندمجاً فى الأمة التى يعيش فيها ، فعليه ألا ينسى ارتبـــاطه بملته ، فإن الظروف لن تتركه يعيش دون هذا

---

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٢٩ وما بعدها.

الارتباط ، كما كان من أمر إستير . [هذه هى أقصى ما يتصوره هذا الحاخام من وطنية اليهودى] .

٥ - إذا أحدق خطر باليهود ، وجب على كل واحد منهم أن يتدخل فى الوقت المناسب .

٦ - أن أعداء اليهود يستندون إلى خلاف بينهم وبين أفراد من اليهود لكى ينادوا بإبادة اليهود جميعاً ، فإن هامان وزير أحشويروش لم يكن يكره إلا مردخاى ولكنه جعل من ذلك ذريعة لمحاولة إهلاك كل بنى ملته .

٧ - أن معاداة السامية لاتكف أذاها عن اليهود مهما عظمت درجتهم فى المجتمع .

٨ - أن الدفاع الباسل من جانب اليهود هو أقوى سلاح لتصفية معاداة السامية .

٩ - أن الصراع ، والانتصار ، والثأر الذى يناله اليهود من أعدائهم يجب ألا يكون مقترنا بسلب أو نهب أو رغبة فى الغنيمة .

١٠ - أنه فى كل مناسبة مفرحة يجب على اليهودى أن يفكر فيما سبقها من آلام ، وبالتالى يفكر فى بؤساء ملته كلما أسعدته الظروف .

هذه الوصايا العشر الجديدة التى ينادى بها حاخام فى أوربا الغربية فى القرن العشرين تبين أبعاد التعقيد الروحى والاجتماعى الذى تمتلىء به نفوس اليهود حيال الإنسانية كلها ، رغم ما يبدو من رفع شعارات

المسالمة ، وهو أمر أصبح تقليداً فى تاريخ التآمر اليهودى على الأمم الأخرى .

٨ - عيد الفصح ، وأول أيامه الخامس عشر من شهر نيسان من السنة اليهودية . ويسميه بعض المستعربين من علماء اليهود « الفَسْح » ومن هؤلاء سعديا الفيومى [١] .

والفصح هو عيد الربيع عند اليهود ، فهم على غرار الأمم الأخرى فى العالم ، قد حرصوا على أن يكون لهم عيد كبير فى الربيع . وأعياد الربيع عند شتى الأمم تتقارب بالطبع فى زمانها ، وتختلف فى مناسبتها التاريخية . إلا أن اليهود يذكرون أن هذا العيد كان للاحتفال بالربيع خاصة ، وكان الشهر الذى يقع فيه يسمى فى التوراة شهر « أبيب » وهى كلمة عبرية معناها الربيع [٢] . ثم حدث أن تحددت هجرة بنى إسرائيل من مصر مع موسى فى هذا الوقت ، فأصبح هذا العيد إحياء لذكرى نجـــاة بنى إسرائيل من فرعون ، وخلاصهم من العبودية فى مصر . ومن هنا جاء اختيار أمثال سعديا من علماء اليهود أن يسموه «الفَسْح» أى الفرج بعد الضيق

وقد اكتسب هذا العيد على مر العصور أكثر من اسم ، لكل منها معناه ومغزاه ، وأشهر هذه الأسماء :-

---

(١) فى ترجمته العربية للتوراة .

(٢) وهى غير شهر أبيب من شهور السنة القبطية ، والفرعونية ، ويقع فى فصل الصيف ، فى يوليه — أغسطس.

١ ـ الفصح ، أو الفَسْح كما قلنا ، وأصل معناها القديم الخطو والمرور والعبور ، وهذا الاسم يذكر اليهودى بأكثر من شىء .
(أ) مرور ملك العذاب فوق أرض المصريين دون المساس باليهود
(ب) مرور الشتاء ليفسح المجال للربيع .
(جـ) عبور اليهودية من العبودية إلى الحرية .
(د) عبور البحر مع موسى .
٢ ـ عيد الفطير ، وبالعبرية «حج همَّصوت» ، لأن طقوسه توجب على اليهود أن يأكلوا فيه الخبز من عجين فطرى ، لا يدخله الملح ولا الخميرة تذكيراً بأنهم عند فرارهم مع موسى من وجه فرعون لم يكن لديهم الوقت ولا فراغ البال للتأنق فى الخبز والانتظار على العجين حتى يختمر . وإن كان فطير الفصح قد أصبح فى المجتمعات اليهودية أكثر أناقة بكثير من الخبز العادى . ويضيف بعض شراح الدين اليهودى مع ذلك أن خبز الفطير هذا فيه تذكير لليهود بمعيشة البداوة ، وبالبؤس وشظف العيش .
٣ ـ موسم الحرية ، بسبب الخلاص من نير الفراعنة ، ويلفظ بالعبرية «زَمن حيرُوتينُو» أو زمن حريتنا .
٤ ـ عيد الربيع ، وبالعبرية «حج هاآبيب» وأبيب هنا ليس هو الشهر المعروف فى التقويم المصرى القديم ، ولكنها كما قلنا كلمة عبرية معناها الربيع ، ولذلك وقع هذا العيد عندهم فى شهر نيسان اليهودى (مارس ـ إبريل) .

ومدة هذا العيد ثمانية أيام ، إلا أن فقهاء اليهود جعلوها تنقص يوما لمن يحتفلون به فى فلسطين ، ويقولون إن السبب فى هذا هو أن التقويم اليهودى لم يتم تحديده إلا فى زمن متأخر جدا بالنسبة لموسى ،

وخشى المشرعون اليهود من وقوع غلط أو اختلاف عند بعد مكان إقامة اليهود بالنسبة لفلسطين ، فكانوا يزيدون فى الأعياد الكبيرة يوما من باب الاحتياط ، ولكى يتسنى للحجاج المسافرين أن يصلوا إلى الأراضى المقدسة فى الموعد المحدد ، وكذلك لعدم التمكن من إبلاغ ظهور الهلال - لأن الشهور اليهودية شهور قمرية كما سبق .

وتبدأ طقوس هذا العيد منذ الرابع عشر من نيسان وهو الذى يسمونه ليلة التفتيش عن الخميرة ، ويجب فيه على اليهودى أن يتأكد من أن أية خميرة تصلح للخبز قد أبعدت عن البيت تماما . أما أهم أيام هذا العيد فهى أول يومين وآخر يومين فيه ، بينما الأيام الأربعة الوسطى تعتبر بين بين ، إذ يلتزم فيها أكل الخبز الفطير ، ولكن لا تقترن بطقوس احتفالية كبيرة. ومن الجائز قطع العطلة فى هذه الأيام الأربعة عند الضرورة . ولذلك جرى العرف عند اليهود على تسمية هذه الأيام الأربعة الوسطى «حُول" هَمّوعيد» ومعناها تحليل العيد ، أو فك الإحرام عنه ، أو وصفه بأنه «عيد صغير» ، بينما اليومان الأولان واليومان الأخيران تؤلف «العيد الكبير» .

وفى مساء كل يوم من اليومين الأوليين تكون طقوس الاحتفال قائمة بصورة أساسية حول أمرين : (أ) مائدة الفصح (ب) حكاية الفصح .

أما مائدة الفصح فانها تحتاج إلى منضدة ، يوضع أمامها مقعد مستطيل مثل «الدكة» أو «الكنبة» يسمح بالاضطجاع ، وهذا المكان مخصص لرئيس العائلة يضطجع عليه معتمدا على ذراعه الايسر الذى يستند إلى بعض الوسائد . وتوضع أمامه ثلاثة أرغفة من خبز الفطير على طبق ، وبجانبها قطعة من العظم الذى يحيط به بعض اللحم مأخوذة

من الغنم ومشوية ، وحزمة من بعض النباتات المرة كالخس أو الشيكوريا أو الكبر أو الكرفس ، وبجانب ذلك شيء من الفاكهة المهروسة أو المدقوقة فى الهاون والمنقوعة فى النبيذ . وتوضع فى نفس الطبق بيضة ، وشيء من الخضر كالفجل أو الجزر ، وكأس من الماء المالح أو المخلوط بالخل . ويفسر علماؤهم كل هذا بأنه من أنواع المأكولات الكريهة على النفس التى كان أسلافهم يأكلونها أثناء فرارهم فى الصحراء . وتقتضى الطقوس أن يبدأ رئيس العائلة بتذوق طرف من كل صنف ثم يشترك معه بقية أفراد العائلة فى ذلك . ويجب مع تلك الوجبة شرب أربعة أقداح من النبيذ ، ويوضع قدح خامس فيه نصيب من النبيذ ، معد لأجل النبى إيليا عندما ينزل من السماء ، معلنا اقتراب مجيء المسيح المخلص .

وعلى هذه المائدة يبدأ رئيس العائلة فيقص حكاية الفصح ، وهى أسطورة تحكى ماحدث لبنى إسرائيل مع موسى إبان خروجهم من مصر وهروبهم من عسف فرعون . وتقضى التقاليد بأن يعرفها رب الأسرة للجميع ، ولذلك فلها ثلاث صيغ ، صيغة للكبار العقلاء المدركين ، وهى طويلة مستفيضة . وصيغة للصغار الذين تبدو عليهم سمات حب الاطلاع وهى أقصر من سابقتها . والصيغة الأخيرة صيغة مسلية جدا ، وقصيرة جدا أيضا ؛ تقال للاطفال والأولاد الذين لاصبر لهم على الاستماع إلى حكاية طويلة . كذلك تكثر فى هذا العيد القصص حول النبى إيليا والمسيح المنتظر كما تشيع الأغانى والأناشيد الجدية والهزلية ، ومن أشهر هذه الأخيرة قطعة مكتوبة باللغة الآرامية عنوانها وأول مقطع فيها هو « حد جديا ، حد جديا » أى جدى واحد ، جدى واحد .

وقد جرى اليهود على اتخاذ هذا العيد ذريعة لنشر المطامع الصهيونية فى مجتمعاتهم ، فتبادل التهنئة بهذا العيد بين اليهود يكون بقولهم « السنة القادمة فى أورشليم » . ومهما يكن من أمر هذه المعايدة فإنها بدون شك لم تكن تطوى فى الأصل إلا على معنى دينى بحت ، نظرا لأن عيد الفصح هو الوقت المختار للقيام بالحج إلى مدينة القدس عند اليهود ، فقولهم قديما « السنة القادمة فى أورشليم » لم يكن يعنى أكثر من قول المسلمين فى عيد الأضحى « السنة القادمة على عرفات » ، ولكن الصهيونية الحديثة استغلت ذلك كعادتها لتركز الأطماع على مدينة القدس الشريف ، وأن تحول المعنى الروحى والدينى إلى هدف سياسى وعسكرى ، وهو أمر من السهل على دعاة الحرب فى كل زمان ومكان أن يتذرعوا به ، كما حدث بالنسبة لتلك المدينة من جانب الصليبيين فى العصور الوسطى ، على الرغم من أن السيد المسيح عليه السلام كان من أعظم دعاة السلام ، وكان أشد الداعين إلى الله كراهية للحرب وسفك الدماء .

وعيد الفصح اليهودى هو عندهم عيد الضحية ، كما أنه عيد خبز الفطير وموسم الحج . ويضحى فيه بحمل أو شاة أو جدى من الماعز أو نحوها.

وهناك ظروف معينة تبيح تأجيل شعائر الفصح شهرا كاملا لبعض الأفراد لا لمجموع الملة اليهودية كلها ، بحيث تمكن الضحية وعجينة الفطير ورحلة الحج فى الرابع عشر من أيار من السنة اليهودية ، ويسمونه فى عرفهم « الفصح الثانى » .

ولا يستطيع باحث فى الفكر الإسرائيلى أن يذكر عجينة الفطير المفروضة فى عيد الفصح دون أن يقف عند تهمة توجه إلى اليهود من

كثير من أعدائهم فى هذا العيد بالذات ، هى التى اشتهرت فى العالم باسم تهمة الدم . وخلاصتها أن خبز الفطير المفروض على اليهود فى فصحهم قد جرت العادة أن يدخلوا فى عجينته دما بشريا يأخذونه من ضحية يقتلونها من أمة أخرى غير اليهود ، ويستحسن أن تكون الضحية من المسيحيين أو المسلمين . والظاهر أن هذه التهمة التى يوصم بها اليهود بدأت من عهد مبكر فى التاريخ ، ويبدو أنها جلبت على أماكن التجمع اليهودى فى الشرق والغرب مشاكل كثيرة ، فقد كان الحى الذى يسكنون فيه يهاجم ، وينتشر فيه القتل والتنكيل بمجرد اختفاء طفل أو شخص من مجتمع غير يهودى مجاور فى فترة عيد الفصح . ونحس بذلك فى المرسوم البابوى الذى أصدره من الفاتيكان فى الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٥٣ البابا إنوسنت الرابع ، ويقول فيه : « إننا نحرم أيضا إتهام اليهود باستعمال الدم البشرى فى طقوسهم ، لأنهم مأمورون فى العهد القديم بألا ينجسوا أنفسهم بأى دم على وجه العموم ، فضلا عن الدم البشرى » . (١)

ومع ذلك فان هذه التهمة بقيت تلاحق اليهود فى كل زمان ومكان ، فمن ذلك مايقال من اختفاء طفلة عمرها سنتان يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٤٧ وذلك فى فالرياس فى منطقة « فوكلوز » بجنوب فرنسا ، واسمها « ميّا » . وقد عثر عليها فى اليوم التالى قتيلة ، ومسحوب دمها من جروح عملت فى الجبهة واليدين والرجلين .

---

(١) Albert Monnio; Le Crime Rituel chez les Juifs; Pierre Téqui, Libraire - Editeur ; Paris - 1914 ; p 7.

ومن ذلك مايروى من قتل اليهود للطفل المسيحى « هيوج » من مدينة لنكولن بانجلترا فى موسم الفصح سنة ١٢٥٥ .

وسجل هذه التهم يطول تتبعه ، كالذى قيل إنه حدث فى لندن سنة ١٢٥٧ وفى « بفورتسهايم » بألمانيا سنة ١٢٦١ ، وفى نورثامبتون سنة ١٢٧٩ ، وفى ميونخ بألمانيا سنة ١٢٨٥ ، وأوبرفيتسل سنة ١٢٨٧ ، وفى برن بسويسرا سنة ١٢٨٧ ، وفى كولمار سنة ١٢٩٢ ، وفى كريمس سنة ١٢٩٣ ... الخ .[1]

ويتساءل الإنسان إزاء سيل مثل هذه التهم يغطى كل العصور الوسطى والجزء الأكبر من العصر الحديث ، أهذه كلها إشاعات ؟ وهل من الممكن أن تنشأ إشاعة وتهمة ووصمة عار لها كل هذه الضخامة ، فتغطى رقعة العالم كله ، على مدى عشرات من الأجيال ، دون أن يكون لها أدنى نصيب من الواقع ؟

أما ما أشار اليه البابا إنوسنت الرابع من تحريم الدم عموما - فضلا عن الدم البشرى - على اليهود فهو حق من وجهة النظر الشرعية البحتة . لكن يحدث كثيرا بسبب الجهل ، وبسبب الحقد ، وبسبب الرغبة العارمة فى الاسراف فى الثأر والانتقام ، أن يخرق أى إنسان حدود القانون والشرع يهوديا كان أم غير غير يهوذى . كم من مرة إلى هذا العصر الحديث دخلت قوات عسكرية أرضا مغلوبة على أمرها فراح جنود هذه القوة يقتلون السكان العزّل الضعفاء الخائفين ، ويسلبون مايقع تحت أيديهم ، وينتهكون

(١) نفس المرجع ، ص ١٣٧ إلى ٣٢٤ ، حيث ترد أهم الحوادث التى من هذا النوع وتواريخها .

الأعراض ، مع أن التوراة تقول فى الوصايا العشر : لا تقتل ، لاتسرق ، لاتزن . والمسيحيون والمسلمون يؤمنون بمثل هذا تماما فى شرائعهم . لكن جوهر الشريعة شىء ، واحترام أهلها لها شىء آخر . ومن المحتمل جداً أن يكون جهلة اليهود فى « الجتو » فى جهات متفرقة من العالم ، بتأثير قرون طويلة من الاضطهاد ، والاحتقار ، والفقر ، والجهل ، والمرض ، والخوف ، وبتوجيه خاطىء من بعض القادة الروحيين ، الذين برعوا فى التأويلات والاستنباطات الغريبة ، من التوراة والتلمود والقبالة وغيرها من الكتابات الصوفية الباطنية .. من المحتمل جدا أن يكون هـــؤلاء الجهلة من اليهود قد استحدثوا هذه البدعة الوحشية ، إشبـــاعا لما فى نفوسهم من حقد على أبناء الملل الأخرى ، والمسيحيين بوجه خاص .

ولعل أعمق تهم الدم المنسوبة إلى اليهود أثرا فى مجرى التاريخ هى حادثة دمشق سنة ١٨٤٠ . يقول المحضر الذى حرر رسميا بهذه الحادثة[١] :

« إنه فى يوم الجمعة ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ (فبراير ١٨٤٠) حضر المسيو بودان ، مترجم وسكرتير قنصلية فرنسا بدمشق ، إلى ديوان الحاكم العام ، وأبلغ أنه فى يوم الأربعاء الثانى من نفس هذا الشهر من سنة ١٢٥٥ ، خرج الراهب الأب توماس حسب عادته بعد العصر ، واتجه نحو حى اليهود ، ليضع على باب المعبد اليهودى إعلانا عن مزاد علنى فى منزل المرحوم « تيرانرفا » . وعند المغرب لاحظ خادم الأب

---

(١) المصدر السابق ، وأنظر أيضا .

Graetz ; Histoire des Juifs ; Tome 5, Chapitre 17 — pp. 361 — 389.

المذكور أنه تأخر في العودة إلى الدير ، فذهب للبحث عنه في الحى اليهودى ولم يعد هو أيضا .

«وقد تم استجواب الحلاق اليهودى سليمان ، الذى عثر فى حانوته على صورة من إعلان المزاد المشار اليه ، ولكنه أنكر ، حتى صدر الأمر بجلده بالسياط فاعترف بأن الحاخام بوخور يهودا ، والحاخام أبو العافية ، وداود هرارى وأخويه اسحق وهارون ، وكذلك يوسف هرارى ويوسف لنيادو ، دخلوا معا شارع التلاج بين الظهر والعصر (ولم يحدد المتهم بدقة) يوم الأربعاء ، وهو يوم اختفاء الأب توماس، وكان الأب فى صحبتهم » .

من هنا بدأ التحقيق فى الحادثة بأمر من شريف باشا والى سوريا وبلاد الشام من قبل محمد باشا حاكم مصر . وفى هذا الوقت كان المحامى اليهودى الفرنسى أدولف كريميه يقود حملة سياسية عدائية ضد العرب والمسلمين ، بسبب حوادث دمشق . فى كل أنحاء أوربا . واشترك معه مروجو الاشاعات . فبالغوا فى وصف الفظائع التى حلت باليهـــود فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى دمشق على الخصوص ، فقالوا إن شريف باشا أمر بالجلد بالكرباج لسبعه من الحاخامين ووجهاء الطائفة ، مات أحدهم من العذاب ، وأسلم آخر . وأنه بالغ فى اضطهاد اليهود حـــتى قبض على ستين من أطفالهم تتراوح سنهم بين الثالثة والعاشرة ووضعهم فى السجن ، بل ادعى اليهود فى أوربا ومن يصدقهم من اليهود الحاقدين على الشرق ، أن حملات شعبية انطلقت فى دمشق وغـــيرها من بلاد الشرق الأوسط لإبادة اليهود والتنكيل بهم . ويقول الكاتب الصهيونى

ميخائيل آساف فى الحديث عن استغلال اليهود لهذا الظرف : «فنشأ عن تلك الحادثة المؤلمة فى دمشق تجديد التضامن بين يهود فرنسا وانجلترا والنمسا ومصر وسوريا أى أن تلك الحادثة عادت باليهود المدمجين الذين ابتعدوا عن حظيرة أمتهم شوطا بعيدا - قد عادت بهم الى أحضان أمتهم ، فنشأ تضامن لم يكن يعرفه اليهود منذ أجيال . أما ذلك التضامن فقد ارتكز على شعور جديد عند اليهود فى مهاجرهم . حتى أن الطائفة اليهودية فى الاسكندرية لما توجهت الى محمد على باشا بالشفاعة لضحايا دمشق ، قالت له : اننا لانطلب الرحمة لأبناء طائفتنا فى الشام ، بل نطلب العدل .

«ولما وصل الى مصر وفد من يهود أوروبا برئاسة المثرى الإنجليزى الطيب الذكر ، موشى مونتيفيورى ، والمحامى الفرنسى المشهور ، كريمييه لم يستطع محمد على باشا معارضة رغبة ذلك الوفد ، نظرا لما كان للوفد لدى قناصل دول أوروبا فى مصر من النفوذ العظيم . فعرض الباشا منح معتقلى دمشق العفو ، ولكن كريمييه رفض قبول العفو عنهم ، وطلب إعلان براءتهم وإطلاق سراحهم بلا قيد ولا شرط ، وهكذا كان .

«وإننا نكرر القول بأنه كان لهذه الحادثة تأثير عظيم فى تكوين تاريخ اليهود فيما بعد» [1] .

من هذه الحادثة فعلا كان منطلق الصهيونية التى ظلت تعمل دائبة فى فلسطين والشرق الأوسط ، وفى أوربا وأمريكا ، حتى إذا نضجت

---

(١) ميخائيل أساف ، مائة سنة من تاريخ اليهود (١٨٤٠ — ١٩٣٩) — مطبعة سيناي — القدس ؛ ص : ١٢ — ١٣ .

مخططاتها الجهنمية على مدى نصف قرن من الزمان ، اتخذت لنفسها صورة التنظيم السياسى العلنى فى المؤتمر الصهيونى الاول المنعقد فى بال سنة ١٨٩٧ .

وعيد الفصح اليهودى يحدد بداية فترة خاصة عند اليهود مدتها خمسون يوما يسمونها « عُومِر » تبدأ بعيد الفصح ، وتنتهى بعيد الحصاد أو ما يسمونه عيد الاسابيع . وهذه الفترة من المواسم الزراعية القديمة ، وهى الايام التى تبدأ فيها سنابل القمح بالامتلاء بالحب إلى أن تنتهى بالحصاد . وكانت العادة الشعبية فى هذه الفترة أن يخرج المعلمون بتلاميذهم إلى الحقول ، حيث تلقى الدروس فى الهواء الطلق . ولعل سبب ذلك هو رغبتهم فى حراسة محصول القمح ضد الجراد والعصافير ، والدفاع عنه إذا حدث هجوم من الاعداء بقصد تدمير المحصول أو إحراقه . واستمرت هذه العادة متبعة على عهد المسيح نفسه .

٩ ـ الثالث والثلاثون فى العُومِر . وهو أهم أعياد فترة العومر هذه ، ويسميه اليهود « ليج بعومر » لأن اللام فى حساب الحروف عندهم بثلاثين والجيم بثلاثة . وهذا العيد يقع فى الثامن عشر من أيار .

١٠ ـ عيد الحصاد أو عيد الأسابيع ، وبالعبرية « شبوعُوت » ويبدأ فى اليوم الخمسين من العومر ، الموافق السادس من شهر سيوان (آخر مايو ـ أول يونيه) ومدة هذا العيد يومان أى السادس والسابع من شهر سيوان ، ويقابله فى الأعياد « عيد العنصرة » .

وأهم ما يتميز به عند اليهود أنهم يحتفلون نزول الوصايا العشر على موسى فى هذا التاريخ ، ومن ثم يقومون بحفلة زفاف للتوراة فى داخل المعبد ، كأنها « عروس » ويبالغ بعضهم فيتمون قراءتها فى يوم ، هذا

العيد . وله فى التراث الشعبى اليهودى خمسة أسماء هى :

أ) شبوعوت ، أى الأسابيع ، ومفهوم ذلك عندهم : « أسبوع الأسابيع » ، أو الأسبوع الفضيل الممتاز على كل أسابيع السنة .

ب) حج هقاصير ، أى عيد الحصاد .

ج) حج هبكوريم ، أى عيد البواكير أو أوائل الثمار .

د) حج هتوراه ، أى عيد التوراه ، ويسميه بعضهم « زمن متن توراتينو » أى زمن منح شريعتنا .

هـ) عصيرت ، وهى كلمة عبرية معناها الإغلاق ، لأنه كما قلنا العيد الذى يغلق الفترة المسماة بالعومر والواقعة بعد الفصح ، وزعم بعضهم أن الإغلاق هنا مقصود به إقفال المخازن على محصول القمح أو الشعير .

١١ ـ صوم تموز ، وهو يوم واحد يصومه اليهود فى الثامن عشر من شهر تموز اليهودى (يوليه) ، ويجعلون هذا الصيام حداداً من أجل حوادث مختلفة أهمها : تحطيم ألواح التوراة ، إبطال القربان اليومى صباحا ومساءً ، إحراق التوراة فى أورشليم على يد القائد الرومانى المدعو بوستهوموس ، كما ورد ذلك فى التلمود ـ كتاب الصيام « تعانيت » ٦/٨٤ ، وينسب إلى هذا الرومانى أيضا إقامة تمثاله فى هيكل اليهود مع علمه بأن ذلك محرم عندهم . كذلك يجعلون هذا الصوم ذكرى بداية مهاجمة « تيتوس » الرومانى لأورشليم بقصد إبادة اليهود من فلسطين سنة ٧٠ ميلادية .

١٢ ـ صيام التاسع من آب ، وهو ذكرى سقوط أورشليم فى يد

تيتوس ، وتخريب الهيكل الثانى الذى كان قد أقيم بعد العودة من السبي البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، على يد نحميا وعزراو زروبابل .

وكان هناك عيد فى الخامس عشر من آب أيضا ، يحـــدد اقتراب الخريف ، وتقدم فيه قرابين من الحطب إلى كهنة الهيكل ، ولكنه تضاءل الاحتفال به بعد تخريب تيتوس للهيكل ، وإن كانت بعض طوائف اليهود تحتفل به إلى الآن ، فهو مثلا ما يزال مثبتا فى التقويم اليهودى لحاخامية اليهود المصريين .

ومما سبق يتبين أن أعياد اليهود معظمها لا يرجع إلى عهد موسى ، بل هو أحدث من ذلك بكثير . وربما كانت أعياد الحج ترجـــع إلى أشياء تماثلها فى الشريعة الموسوية القديمة . وأعياد الحج عندهم هى الفصح والحصاد والظلل .

الفصل الخامس

بعض الاحكام التى تميز شريعة اليهود

بعد هذه الجولة فى أهم أركان العقائد الدينية والطقوس التعبدية عند اليهود ، لا بأس أن يقف القارىء العربى على طرف من أحكام الفقه المطبقة فى المجتمع اليهودى والتى تميز شريعتهم بوضوح عن غيرها من الشرائع .

ففى الزواج مثلا يعتبر بقاء اليهودى أو اليهودية فى العزوبة أمرا منافيا للدين . ذكر « جان دى بولى » فى ترجمته لمواد التشريع المدنى والجنائى فى الفقه اليهودى [1] ، فى المادة ٣٩٣ ، أن كل يهودى يجب عليه أن يتزوج . وأن الذين يبقون عزابا يتسببون فى أن يتخلى الله عن شعبه إسرائيل . وجاء فى « كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للاسرائيليين » ، تأليف ، « م . حاى بن شمعون » [2] ، المادة ١٦ : الزواج فرض على كل إسرائيلى »

يحرم الزواج بين اليهود وغيرهم . ويسمى غير اليهود فى كتب الشريعة الإسرائيلية « كُفّاراً » يستوى فى ذلك المسلمون والمسيحيون والوثنيون

---

(١) Jean de Pauly ; Code Civil et Pénal du Judaïsme ; Paris, 1896.

(٢) كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للاسرائيليين . تأليف : م. حاى بن شمعون ، مطبعة كوهين وروزنتال بمصر ـ سنة ١٩١٢ ، ص : ٧ .

والزنادقة . (١) ويقول دى برلى فى المادة ٣٩٦ إن الزواج المعقود بين يهودى وكافرة أو العكس باطل ، والحياة الزوجية القائمة بينهما تعتبر فجورا وزنا مستمرين ، والأولاد الذين يولدون من هذه المباشرة المرزولة يعتبرون أبناء زنا . ونجد بن شمعون لايكتفى بوحدة الدين بين الزوجين بل ينص أيضا على وحدة المذهب فيقول فى المادة ١٧ : « الدين والمذهب شرط لصحة العقد ، فاذا كان أحد الاثنين من غير الدين أو من مذهب آخر فلا يجوز العقد بينهما وإلا كان باطلا . » ويضيف فى المادة ١٨ أنه « يصح أن يعقد بين إثنين كان أحدهما أجنبيا ثم اعتنق الدين أو المذهب اعتناقا شرعيا » . ويزيد معظم الشراح على ذلك أن الأولاد الذين يولدون من زواج اثنين أحدهما يهودى والثانى أجنبى لصيق باليهود عن طريق اعتناق دينهم ، لايصح أن يكون منهم كهنة فى إسرائيل ، تأكيدا للنزعة العنصرية التى تصبغ أكثر الشرائع الفقهية عند اليهود ، ولاسيما ما اتصل منها بالأحوال الشخصية . ومن أوضح الأدلة على ذلك ماجاء فى المادة ١٩ من كتاب بن شمعون فى الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للاسرائيليين ، حيث يقول : « إذا ارتد الإسرائيلى ثم تزوج شرعا بإسرائيلية صح العقد ، كذلك إذا ارتدت الإسرائيلية ثم تزوجت بإسرائيلى » . ومعنى ذلك أن الزواج عندهم ليس فرعا من الإيمان كما هو عند المسلمين أو المسيحيين ، بل هو فرع من العصبية العنصرية ، فالإسرائيلى يبقى كذلك حتى ولو كفر وكذلك الإسرائيلية .

يجوز للاسرائيلى الزواج ببنت أخيه أو بنت أخته ، ولكن العكس

---

(١) كلهم يسمون « جوييم » .

محرم فلا تزوج المرأة بابن أخيها أو ابن اختها .

تعدد الزوجات جائز شرعا عند اليهود ، ولم يرد بتحريمه نص واحد ، لا فى الكتاب المقدس ولا فى التلمود ، وكانت العادة جارية بين اليهود ، على اتخاذ أكثر من زوجة . وليس فى الدين أيضا حد أقصى لتعدد الزوجات ، فقد كان مباحا لليهودى أن يتخذ من النساء ماطاب له بلا قيد أو شرط . ولكن ظهر فى العصور الوسطى الحاخام الفقيه المفسر، « جرشوم بن يهودا » المولود فى مدينة « متس » بأقليم اللورين بشمال شرق فرنسا سنة ٩٦٠ ميلادية والمتوفى فى مدينة « مايتس » بألمانيا سنة ١٠٤٠ ميلادية ، فأفتى بوجوب تحريم تعدد الزوجات بين اليهود .

وكانت هذه الفتوى مبنية فى الأساس على ما كانت تلاقية الجاليات اليهودية فى أوروبا فى العصور الوسطى من احتقار واضطهاد بسبب تعدد الزوجات فيها ، وهو أمر حرمته الديانة المسيحية تحريما قاطعا ، وجعلت تعدد الزوجات جريمة تجمع بين الكفر والزنا . فأراد الحاخام جرشوم أن يضع حدا لهذا المظهر المثير من مظاهر تكوين المجتمع اليهودى . ولكن اجتهـــاده لم يحظ بالتطبيق القانونى المتفق عليه فى المجالس الملية ومحاكم الأحوال الشخصية لليهود فى أوروبا إلا حوالى سنة ١٢٤٠ ميلادية ، إذ اتفقت كلمة كهنة اليهود وقضاتهم على هذا التحريم ، وإن كان تعدد الزوجات بين اليهود قد ظل منتشرا : سرا أو علنا ، قرونا طويلة بعد هذا التاريخ ، وبخاصة فى بلدان إفريقية وآسيا وهكذا نجد دى بولى يذكر فى المادة ٢٩٥ أنه « بالرغم من كون تعدد الزوجات حلالا فى الدين ، فانه قد صدرت الفتوى بتحريمه من الحـــاخام جرشوم بسبب المطالب

الباهظة للحياة الحاضرة التى تجعل القيام بأمر زوجة واحدة ، فضلا عن زوجات عدة ، أمرا صعبا . وكل يهودى يخالف فتوى الحاخام جرشوم فإنه يقع تحت عقوبة التكفير والخلع والطرد من المجتمع الإسرائيلى » . وفى ذلك تقول المادة ٤٧ من كتاب بن شمعون : « لاينبغى للرجل أن يكون له أكثر من زوجة ، وعليه أن يحلف يمينا على هذا حين العقد ، وإن كان لاحجر ولا حصر فى متن التوراة . » ونلاحظ أن هذا الأخير أقل تشددا فى هذا الباب ، فهو مثلا يغفل عقوبة التكفير والطرد ، بل إنه يضيف فى المادة ٥٥ أنه « إذا كان الرجل فى سعة من العيش ، ويقدر أن يعدل ، أو كان له مسوغ شرعى ، جاز له أن يتزوج بأخرى » . وواضح أن الشريعة اليهودية هنا تتأثر بالشرائع التى تجاورها ، فالحاخام جرشوم يبدو مسيحيا فى اتجاهه نحو التحريم البات للتعدد ، بحكم معيشته فى أوروبا الكاثوليكية ، بينما بن شمعون يتأثر بالشريعة الإسلامية ، بحكم معيشته فى القاهرة ، فلايتشدد فى المسألة بنفس الطريقة ، حتى بعد تسعة قرون من فتوى الحاخام جرشوم .

ويؤكد تأثر هذا الحاخام الأوروبى بالمسيحية ماوضعه من قيود على الطلاق أيضا . فالطلاق فى التوراة كان حقا موضوعا بيد الرجل وحده ، يستعمله بلا قيد أو شرط . وكان الاستعمال اللغوى نفسه لايعرف كلمة الطلاق ، وإنما يستعمل عادة كلمة « طرد الزوجة من البيت » . فأفتى الحاخام جرشوم بتحريم طرد المرأة من بيت الزوجية إلا إذا أفتى القاضى بطلاقها ، أو اتفقت مع زوجها بالتراضى على الطلاق .

والمرأة التى ثبتت عليها تهمة الزنا يحرم عليها الزواج بالرجل الذى

اتصل بها . ولو حدث زواج بينهما ، مع جهل موثق العقود بذلك ، يعتبر هذا الزواج لاغيا ، وينفذ الطلاق بينهما بالقوة . يقول بن شمعون فى المادة ١٩ : « تحرم المختلية على من اختلت به ، وإذا عقد عليها كلف شرعا بطلاقها . »

ومن طرائف الشريعة الخاصة بالأحوال الشخصية ، أن أرملة اليهودى الذى مات ولم ينجب منها ، يجب تزويجها لأخيه الأعزب على وجه الإجبار فإذا أنجب منها فإن المولود لايحمل إسمه وإنما يحمل اسم أخيه الميت وينسب اليه . وإذا امتنع أخو المتوفى عن هذا الزواج فإنه يشهّر به ويخلع من المجتمع الإسرائيلى . وتسمى الشريعة الإسرائيلية المرأة التى تؤول إلى أخى زوجها الميت « يبامة » . جاء فى التوراة : « إذا أقام أخوان معـــا ، ثم مات أحدهما وليس له عقب ، فإن زوجة الميت لاتصير إلى الخارج لرجل أجنبى ، بل أخوه يدخل عليها ، ويتخذها زوجة له ، ويقيم عقبا لأخيه . ويكون البكر الذى تلده منه هو الذى يخلف اسم أخيه الميت فلا يندرس اسمه من إسرائيل . فإن لم يرض الرجل أن يتزوج امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه إلى الباب ، إلى الشيوخ [1] ، وتقول قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما فى إسرائيل ، ولم يرض زوجة . فيستدعيه شيوخ مدينته ويكلمونه فى ذلك ، فيقف ويقول إنى لا أرضى أن أتخذها . فتتقدم اليه امرأة أخيه ، بحضرة الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، وتجيب قائلة هكذا يصنع بالرجل الذى

---

(١) كانت إجراءات التقاضى تتم قديما عند بوابات المدينة ، وهناك كان القضاة يجلسون للنظر فى الخصومات .

لايبنى بيت أخيه . فيدعى فى آل إسرائيل بيت المخلوع النعل » . (سفر التثنية ٢٥/٥ - ١٠) . والمعمول به الآن هو ماورد فى المادة ٢٦ عند بن شمعون فى قوله : « المتوفى زوجها إذا لم يترك أولادا ، وكان له شقيق أو أخ لأبيه ، عدّت له زوجة شرعا ، ولا تحل لغيره مادام حيا ، إلا إذا تبرأ منها كنص المادة ٤٣ » . وهذه المادة المشار اليها أخيرا تقول « تبرّؤ سلف الزوجة المتوفى زوجها عن غير عقب ، التزوج بها ، منصوص على طريقته فى سفر التثنية ، بالإصحاح ٢٥ » .

كذلك تهتم الشريعة اليهودية بالابن البكر . وكانت فى بداوة العبريين القديمة تجعله خليفة لأبيه فى كل شىء . يستولى على السلطة من بعده ، ويكون هو المتصرف فى كل ثروته ، وكثيرا ما كانت المنافسات تشتعل بين الإخوة الصغار وأخيهم الأكبر البكر بسبب هذا . كذلك كانت تحدث مؤامرات ، ومغالطات حول انتزاع هذا الحق والاستيلاء عليه . وقصة يعقوب وتآمره مع أمه رفقة على انتزاع هذا الحق الذى كان لأخيه عيسو من أبيهما إسحق عندما شاخ وفقد بصره مشهورة ، مذكورة بتفاصيلها فى الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين فى التوراة . وفى الفقه اليهودى المعمول به الآن يكون « للولد البكر من الأب مثل حظ الولدين ، فهو مميز بسهم بعلة البكورة . » - (بن شمعون ، مادة ٤٩١).

وتتجلى العصبية العنصرية من جديد فى التشريعات الخاصة بالابن البكر ، فإن « البكر المولود وأبوه أجنبى عن الملة لايعد بكرا ، وإذا عاد إلى الملة وولد فلا بكورة أيضا . » - (بن شمعون ، مادة ٥٠١) . وتتأكد هذه العصبية العنصرية أكثر وأكثر فى المادة التالية (٥٠٢) عندما ينص

على أن « البكر من الجارية أو الأجنبية لايمنع البكورة من الإسرائيلية بعدها » . وهذا الاجتهاد من فقهاء التلمود مقصود به تزييف حق العرب وجدهم سيدنا إسماعيل فى النسبة والميراث والبكورة من سيدنا إبراهيم . فإسماعيل ولد قبل أن يولد إسحق ، فهو ابن إبراهيم البكر ، ولكنه مولود من هاجر الجارية المصرية ، فأفتى التلموديون بثبوت البكورة للابن الأصغر ، إسحق ، لأنه ، وإن تأخر فى الولادة ، سليل الزوجة التى توصف بأنها عبرية ، سارة . وكان لابد من هذا الاجتهاد حتى تستقيم نظريتهم فى شعب الله المختار .

ومما يستوقف الباحث فى باب الأموال والممتلكات فى الفقه اليهودى ، أن الربا محرم بين اليهود بعضهم وبعض فقط ، وعقوبة المخالف لذلك التكفير والخلع ، بينما يباح الربا إذا أقرض اليهودى لغير اليهودى مالا . ولكن نظرا لما جبل عليه هؤلاء الناس من حب المال فانهم تحايلوا ، حتى على تحريم الربا فيما بينهم ، فبعد أن جاء فى المادة ٥٨٤ من المجموعة القانونية التى ترجمها دى بولى أنه « محرم على اليهودى أن يقرض اليهودى مالا أو غيره من الأشياء التى يحتاج إليها كالقمح أو الدقيق مثلا بالربا . وأن المقرض بالربا يتعرض تلقائيا للخلع والطرد » ، تعود المادة التالية ٥٨٥ فتقيد تحريم الربا بما يعطيه اليهودى من قرض لأخيه اليهودى ليواجه به ضرورات ملحة لاقبل له باحتمالها . « أما إذا اقترض اليهودى نقوداً من يهودى آخر ، بقصد الاستثمار ، أو التوسع فى التجارة ، أو تنفيذ بعض المشروعات التى تدر ربحا ، فإن الذى يقرضه المال يمكنه أن يفرض عليه نصيبا فى الأرباح يتفق عليه » ، ويبدو من التطبيق العملى لهذه الفقرة أن المقصود هو

هو الأرباح فقط دون الخسائر ، بحيث لو ضاع المال فى هذه المشاريع كان على المقترض أن يؤدى دينه كما أخذه . فالتطبيق أشبه هنا فى عالم الأوراق المالية بالسندات منه بالأسهم .

ونختم هذه المختارات الفقهية المميزة للشريعة اليهودية بالكلام عن تقاليدهم فى الطعام الشراب مايحل منه ومايحرم .

يحل من الحيوانات ذوات الاربع كل ماله ظلف مشقوق وليست له أنياب . ويأكل العشب ويجتر . فالخيل والبغال والحمير تحرم لحومها لأنها ليست ذات أظلاف مشقوقة . وكذلك الجمل لأنه ذو خف لا ظلف . ويحرم الخنزير بالرغم من أظـــلافه المشقوقة لأنه ذو ناب . وتحرم السباع كلها لأنها ذات مخالب وأنياب . ولحم الأرانب ومايتصل بها من القوارض آكلة العشب حرام لأنها ذات أظافر لا أظلاف مشقوقة .

ويحرم من الطيور كل ما له منسر ، أى منقار معقوف ، أو مخلب أو كان من أوابد الطير التى تأكل الجيف والرمم . فيحرم أكل الصقر والنسر والبومة والحدأة والببغاء لكونها ذات منسر أو مخلب أو كليهما معا . ويحرم أكل الغراب والهدهد ونحوها خوفا من الخطر ، لأنها من أوابد الطير التى لايُعْرَفُ ماذا تأكل . ويحل أكل الدجاج والأوز والبط ونحوها من الطيور الأليفة التى يمكن تربيتها فى البيوت والحقول. كما تحل السمانى والعصافير وبعض الطيور البرية آكلة العشب والحب .

ويشترط فى الحيوانات والطيور الأليفة التى تذبح للأكل ، أن تكون سليمة من العطب ومن الجروح والكسور والأمراض ، وأن تذبح من منحرها بالطريقة الشرعية بعــــد تلاوة بركة تتضمن اسم الله ، بشكل يقارب القواعد الإسلامية .

أما الأحياء المائية فيحل منها السمك الذى له زعانف وعليه قشور ، وفيما عدا ذلك فكل صيد البحر حرام . فممنوع على اليهـــودى أكل الأسماك الملساء ، وأنواع الأخطبوط والجمبرى (القريدس) والسرطان (الكابوريا) والمحار .

والدم محرم على اليهود كتحريمه على المسلمين .

ولا يجوز لهم الجمع بين اللحم واللبن الحليب ، أو أى شىء يمت إليه بصلة فى طعام واحد ، فحرام طبخ اللحوم فى السمن أو الزبد ، بل يجب أن تطبخ فى زيوت نباتية . وحرام أن يتناول اليهودى اللحم والجبن أو الزبد أو اللبن أو نحوها فى وجبة واحدة . بل حرام أن يوضع اللحم فى إناء كان قد وضع فيه لبن أو جبن من قبل ، أو أن تستعمل سكين واحدة فى تقطيع اللحوم والجبن أو ما إليه . ولذلك يتعين على كل يهودى متمسك بشريعته ، وعلى كل مطعم يهودى يهتم بأن يكون ما يقدمه « كاشير » ، أى حلالا ، أن يتوفر له مجموع من الآنية والصحون وأدوات الطبخ تخصص للحوم فقط ، وتوضع فى مكان محـــدد ، ومجموع آخر يخصص للألبان ومستخرجاتها ، وله مكان منعزل أيضا .

كذلك يحرم على اليهود خلط الأنبذة أو الخمور ، أو خلط الألبان.

كل هذه الأحكام الفقهية وكثير غيرها ، بخيرها وشرها ، كانت لغرابتها وطرافتها ، سببا فى اجتذاب الأنظار نحو هذه الملة التى لا تريد أن تعيش كما يعيش غيرها من عباد الله ، فجر عليها ذلك الاضطهاد والتعصب ، الذى كان يتبلور فى نواح كثيرة من العالم ، وفى أوروبا

على وجه الخصوص ، فى تنظيمات وفلسفات وعقائد تدور كلها حول « عداء السامية » أو « مناهضة اليهود » أو « اللاسامية » ، كما يتساهل بعض الباحثين فيسمونها بهذا الاسم الأخير .

وهذه اللاسامية كانت من أهم البواعث على قيام الصهيونيات المختلفة المتعاقبة عبر التاريخ . فنحن هنا نجد اليهود قد جعلوا الإنسانية تدور فى حلقة مفرغـــة كلها خطأ فى خطأ . هم يكرهون البشر ويحتقرونهم وينعزلون عنهم ويعتبرون أنفسهم الشعب الممتاز المختـار بإرادة إلهية ، والبشر جميعاً ينكرون عليهم هذا ويصمونهم بالكفر والتدجيل والوحشية والنصب والاحتيال وانعدام الوطنية والخسة والجبن والقذارة ، وما لا يحصى من ذميم الصفات ، ومن هذا الصراع العقيم الخاطىء من الجانبين، كان كثير من اليهود ينـادون بالوطن اليهودى الخاص الذى يستطيع فيه كل واحد من أبنـاء هذه الملة أن يمارس حريته الدينية دون أن يجر ذلك عليه المقت والبغض من غير اليهود .

كانت هذه الفـكرة الأخيرة هى الشعار الذى رفعته الصهيونية لجذب الأنصار ، وهى المحتوى الذى ضمنه زعيم هـــذه الصهيونية « تيودور هرتسل » كتابه المشهور « دولة اليهود » . وكان على الوطن العربى أن يدفع ثمن هذه النزوة اليهودية من صميم أرضه وكيانه ومستقبله ، بالرغم من أن العرب لم يكونوا فى يوم ما متهمين بمناهضة السامية أو اضطهاد اليهود ؛ إذ العـرب أنفسهم ساميون ، والمسيحيون منهم لا ينسون أن سيدنا عيسى نفسه ينحدر من أصل يهودى ، والمسلمون لا ينسون أن اليهود أهل كتـاب ، وأهل توحيد ، وأنهم ـ ولو نظريا ـ ينحدرون من سيدنا إبراهيم أبى العرب كذلك .

وإذا كانت الشعارات الاستجدائية قد ارتفعت بذلك ، فإن النفاق اليهودى رفع شعارات أخرى لدى غير اليهود من الأمم التى خدعت فى المشروع الصهيونى . فزعم قادة الصهيونية أن الدولة اليهودية التى يعملون على إقامتها فى فلسطين ، ستكون الدولة العصرية فى وسط المتخلفين ، والدولة الديمقراطية بين الإقطاعيين ، وكل هذا لم يكن إلا كلاما معسولا الغرض منه جمع أكبر ما يمكن من المال والأنصار .

ولكن اللعبة كانت خطيرة بالنسبة لليهود أنفسهم تكاد تنـــذر بشر مستطير . ذلك أن التجمعات الدينية اليهودية أحست بأن ملك الله على الأرض ، كما عرفوه فى كتب الدين والتصوف ، لا يشبه فى شيء هذا هذا التنظيم السياسى والعسكرى والاقتصادى الذى صممه « هرتسل » ونفذه من بعده « حاييم وايزمان » ، ومن هنا نشب هذا الصراع بين « دولة اليهود » ممثلة فى الدينيين ، و « الدولة العصرية الديمقراطية » التى يقف من ورائها الاستعماريون ، والرأسماليون ، والاشتراكيون ، والإصلاحيون التطوريون الجدد من اليهود . ولا شك فى أن هذا التمزق الذى سببته فى البداية صور التناقض الرهيب بين الشعارات التى خصصتها الصهيونية لشعب الله المختار ، والشعارات الأخرى التى رفعتها أمام أعين « الجوييم » ، كانت من أهم الأسباب فى انبثاق يهودية روحية اندماجية غير صهيونية ، ينادى دعاتها بأن ممارسة شريعة من الشرائع لاتحتاج إلى امبراطورية حتى تتصل بالله . هذا بالطبع إلى جانب الوحشية الخسيسة الظالمة التى انتهجتها العسكرية الصهيونية فى فرض إرادتها فى منطقة الشرق الأوسط .

وخلاصة القول أن الفكر الدينى الإسرائيلى يرتطم الآن بصخرة هذه الصهيونية ، التى قد يتحطم عليها كما لم يتحطم من قبل ، لا على يد بختنصر ولا تيتوس ولا هتلر .

ولا نريد أن نضع نقطة النهاية فى هذه الجولة حول الشريعة اليهودية دون أن نشير إلى أن الأحكام الفقهية التى يتدارسها المتدينون من اليهود تستقى من مدرستين ترجعان إلى القرن الأول الميلادى ، مدرسة هليل المشهورة بالتساهل والتسامح ، ومدرسة شماى المعروفة بالتزمت والتشدد والتدقيق ، والأولى أكثرهما رواجا بالطبع .

الفصل السادس

المذاهب والفرق

يعتبر ما ذكرناه حتى الآن هو خلاصة الفكر الدينى عند السواد الأعظم من اليهود، وهم اليهود الربيون أو الربانيون، نسبة إلى «رب» التى تعنى فى اللغة العبرية «الكبير» أو «الرئيس». والمقصود بذلك أنهم اليهود الذين أبقوا باب المقدسات مفتوحا على مصراعيه بعد وفاة موسى بل بعد السبى البابلى، بحيث دخلت منه المرويات الشفوية، والاجتهادات. والفتاوى، وغيرها من النصوص الدينية المحتواة فى المشنا والتلمود والمدراش، والمروية عن هؤلاء «الكبار» أو «الرؤساء» أو «الأحبار»، من طبقات «السوفريم» أى الكتبة، و «التنائيم» أى رواة المشنا، و «الأموارائيم» أى أحبار التلمود، و «الدرشانيم» أى المفسرين للكتاب المقدس أصحاب المدراش الذى هو التفسير، «الجاءونيم» أى الفقهاء العظام الذين ظهر الاسلام أثناء وجودهم، و «الموسيفيم» أى أصحاب الحواشى والتعليقات والفتاوى، الذين استمروا على طول العصور الوسطى حتى العصر الحديث.

وجمهور اليهود هذا ينقسم إلى طائفتين كبيرتين جداً:

(أ) الاشكناز:

وهم اليهود الذين استقروا فى شمال أوروبا وشرقها. وكلمة إشكناز

كانت تدل فى الفكر اليهودى فى العصور الوسطى على الأراضى الأوروبية التى يسكنها الجنس الجرمانى ، ثم أصبحت تعنى « ألمانيا » باختصار . ومع ذلك فإن جزءا كبيرا من اليهود الإشكناز سكنوا ، لا فى ألمانيا ، ولكن فى شمال فرنسا وشرقها ، وفى ألمانيا بطبيعة الحال ، والنمسا وبولونيا وسائر دول أوروبا الشرقية ، وكذلك فى الاتحاد السوفيتى . وكان هؤلاء اليهود الإشكناز قد فقدوا القدرة على استعمال اللغة العبرية نهائيا ، وحلت محلها فى مجتمعاتهم رطانة خاصة بحارات اليهود فقط فى تلك الأقاليم ، أساسها لهجة ألمانية قديمة محرفة مكسرة امتزجت بألفاظ وعبارات كثيرة من اللغات السلافية وببعض الكلمات العبرية الشديدة التحريف ، المستقاة من المصطلح الدينى والأخلاقى والاجتماعى عند اليهود . فلما عاد هؤلاء الإشكناز إلى الاهتمام باللغة العبرية ، كانت لهم فيها لهجة خاصة محرفة أيضا خارجة على القواعد التى أقرها القدامى من العلماء . وهم فى صلواتهم ينطقون بالعبرية هذا النطق المميز لهم ، كما أنهم يختلفون اختلافا طفيفا عن غيرهم من حيث بعض النصوص التى توجد فى كتاب صلواتهم ولا توجد عند الآخرين ، أو العكس . كما أنهم يختلفون أيضا فى بعض طقوس الأعياد وبعض التقاليد فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، بفعل المناخ البارد الذى عاشوا فيه قرونا طويلة ، وبتأثير الأمم التى جاوروها أيضا . ومن الجدير بالذكر الاشارة إلى أن الإشكناز هم أقطاب الصهيونية الحديثة .

(ب) السفرد .

وهؤلاء هم اليهود الذين استقروا فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وكلمة « سفرد » كانت تدل فى الفكر اليهودى فى العصور الوسطى على شبه جزيرة إيبيريا ، التى تضم إسبانيا والبرتغال . ثم أصبحت تعنى « إسبانيا » باختصار . وهؤلاء اليهود ، كانوا أيضا قد فقدوا اللغة العبرية بعد « الدياسبورا » ، أى التشتيت الذى أوقعه بهم الرومان على يد تيتوس سنة ٧٠ ميلادية ، وهدريان سنة ١٣٥ ميلادية ، وأصبحوا يتكلمون لهجة إسبانية قديمة ركيكة مكسرة محرفة ، كانت تسمى « لادينو » أى « لاتينى » . لاعتمادها على أصول لاتينية إسبانية عامية ممزوجة ببعض المصطلحات الدينية العبرية . إلا أن هؤلاء السفرد كانوا من الناحية اللغوية أسعد حظا من الإشكناز ، فعندما ظهر الإسلام ، ودخل العرب الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، منح اليهود حرية دينية وثقافية واجتماعية لم يعرفوها فى أى عهد من عهودهم ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن اليهودى البسيط لم يعرف هذا الأمن ولا هذه الكرامة حتى فى فلسطين تحت حكم سيدنا سليمان ، إذ من الثابت تاريخيا أن رعية سليمان تمردت عليه أكثر من مرة بسبب ثقل الضرائب ونقص الحريات .

وفى إسبانيا الإسلامية ازدهرت اللغة العبرية مع ازدهار اللغة العربية، وكثرت المدارس والجامعات والمعاهد والمعابد اليهودية فى قرطبة وأليسنة (لوسينا) وطليطلة وأشبيلية وسرقسطة وتطيلة وبرشلونة وغيرها . وأنبثقت حركة أدبية قوية باللغة العبرية اقترنت بعناية فائقة بضبط اللغة وتقييد ألفاظها وقواعدها ، بحيث أصبح استعمال السفرد لهذه اللغة هو أنقى وأفصح صورها المعروفة وقد ازدادت فصاحة بمجاورتها للغة العربية التى تعد أرقى لغات المجموعة

السامية كلها . وتأثر اليهود السفرد فى عبـــاداتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربى فى الأذكار والأناشيد والموسيقى ، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية فى أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يماثلها عند المسلمين . وقد ترتب على ذلك أن دولة إسرائيل عنـــدما قامت على أكتاف الإشكناز وجدت نفسها ، بالرغم من كل شىء ، مضطرة إلى اعتبـــار عبرية السفرد هى اللغة الرسمية للمسرح والاذاعة والتعليم فى الجامعات والمدارس . بل إن المؤلفين فى الأدب العبرى الحديث ، أو فى الدراسات اللغوية ، حتى ولو كانوا من الإشكناز ، قد اضطروا إلى الخضوع المطلق للسان السفرد .

وما دمنا بصدد الحديث عن الطائفية اللغوية بين اليهود الربانيين ، فإنه ينبغى أن ننبه إلى أنه بعد خروج العرب من الأندلس ، وتضييق محاكم التفتيش الكاثوليكية بعد ذلك على بقـــايا المسلمين واليهود فى إسبانيا ، هاجر عدد كبير من هؤلاء السفرد إلى فرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا ، فضلا عمن استقر منهم فى العـــالم العربى ، كما ذهبت أعداد كبيرة منهم أيضا إلى انجلترا وأقام بعضهم كذلك فى هولندا .

ويهود العالم العربى هم بطبيعة الحال من السفرد . إلا أن فروقا محلية فى النطق أصبحت تميز اليهودى العراقى من اليهودى اليمنى أو المغربى أو المصرى . ويهود إيران هم كذلك من السفرد ، منذ استقرار العرب واللغة العربية فى تلك البلاد على عهد عمر بن الخطاب ، وإن كانت لهجتهم متأثرة أيضا بنطق اللغة الفارسية .

إلى جانب هذه اليهودية العامة التى تتبعها الكثرة الغالبة من أهل هذه

الملة ، وجدت فرق ومذاهب أخرى كثيرة تنبثق من التطور المستمر فى الفكر الدينى الإسرائيلى ثم تعيش مدة تطول أو تقصر بحسب الأحوال والملابسات ، بحيث اندثر أكثرها وبقى بعضها قائما حتى الآن وأهم هذه الفرق وأشهرها هى التى سنتحدث عنها بإيجاز الآن .

١ - السامريون

هذه الفرقة الصغيرة الفقيرة التى لا يزيد أبناؤها على وجه هذه الأرض عن بعض مئات من الأنفس ، تعيش بجوار مدينة نابلس العربية بفلسطين تثير خلافا وجدلا شديدا حول أصلها وتاريخها . والذى زاد من حدة هذا الجدل هو أن هؤلاء السامريين بحكم طبيعة دينهم ليسو صهيونيين ، ولا يمكن أن يكونوا كذلك ، لسبب بسيط جدا هو أن جبل صهيون اكتسب قدسيته من كونه القلعة التى اختارها داود للدفاع عن مملكته ، والقصة التى جعلها سليمان امتدادا ومقدمة لقصبة ملكه فى أورشليم ، وهؤلاء السامرة يكفرون بداود وسليمان . وبناء على ذلك فإن جبل صهيون بالنسبة لهم يمثل قاعدة الكفر ، والصهيونية تمثل محاولة خطيرة لتجديد هذا الكفر وتقويته وبسط سيادته على كل صور الفكر الإسرائيلى .

وهم ينتسبون إلى مدينة السامرة القديمة التى يعيشون حولها ، والتى قامت على أنقاضها مدينة نابلس . وكانت السامرة عاصمة مملكة إسرائيل المنشقة على عرش سليمان بعد وفاته . ونابلس أو السامرة هى التى كانت تسمى قبل أن تطرق اقدام العبريين أو اليهود فلسطين مدينة « شكيم » ويشرف عليها جبل مقدس اسمه جبل « جرزيم » . وتقول التوراة إن يعقوب ، الجد الأدنى للعبريين ، قد بنى معبده المكرس للرب فى هذا

المكان وسماه « بيت إل » أى بيت الله . وهكذا يزعم السامريون أنهم البقية الباقية على الدين الصحيح . وأن موسى كان يجعل قبلته نحو « بيت إل » . أما داود وسليمان فقد غيرا من شكل المجتمع الدينى بحسب هواهما، حتى تحول إلى مملكة تشبه مملكة فرعون أو بختنصر ، وأنهما غيرا القبلة القديمة ، كما غير الأنبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وشوهوه وحرفوه ولذلك فإن عقيدة السامريين تتلخص فى النقط الآتية (١) :

(ا) الإيمان بإله واحد ، وبأن هذا الإله روحانى بحت .

(ب) الإيمان بأن موسى رسول الله ، وأنه خاتم رسله ،

(ج) الإيمان بتوراة موسى وتقديسها وبأنها كلام الله .

(د) الإيمان جبل جرزيم المجاور لنابلس هو المكان المقدس الحقيق وهو القبلة الحقيقية الوحيدة لبنى إسرائيل .

وقد ترتب على أركان الايمان هذه أنهم لايؤمنون كما قلنا بنبوة الأنبياء الذين جاءت أسفارهم بعد توراة موسى فى العهد القديم . ويعتبرون كل هذه النصوص من صنع البشر وأنها من عمل قوم ضالين مضللين ، ولا يستثنون من ذلك إلا يوشع بن نون الذى يأتى سفره بعد توراة موسى مباشرة ، لأن التوراة نفسها تشير إلى أن يوشع كان صاحب موسى وخادمه ، وأن موسى عهد إليه بالخلافة من بعده ، وأنه هو الذى عبر الأردن بأول موجة من بنى إسرائيل تدخل فلسطين . وبطبيعة الحال هم يرفضون بقية النصوص المقدسة اليهودية ، كالمشنا

(١) السامريون : تأليف الأب مرمورة ، طبع نابلس .

J, Rosenerg; Lehrbuch der Samaritanischen Sprache und Literatur; Hartleben, Leipzig-Pest—Wien; p 4—5

والتلمود والمدراش ونحوها ، يعتبرونها من الأعماق البعدة فى الكفر .

والنص المقدس الذى يتعبدون به هو توراة موسى ويضاف إليها أحيانا سفر يوشع بن نون ، وبذلك يتألف كتابهم المقدس من ستة أسفار فقط . وهم لايستعملون النسخة الموجودة من ذلك عند باقى اليهود بل لهم نسخة برواية خاصة تختلف اختلافا محسوسا عن التوراة الشائعة ، كما أن لهم لهجة عبرية ، وكتابة خطية ، مختلفة يزعمون أنهما جاءتا إليهم صحيحتين دقيقتين من عهد موسى .

أما المعتدلون من اليهود الربانيين فإنهم يقولون إن أصل هؤلاء السامريين يرجع إلى من بقى من اليهود الجهلة الضعفاء فى فلسطين بعد السبى البابلى[1] . ويبالغ غيرهم فيقول إن منشأ السامريين واضح مشروح فى سفر الملوك الثانى الإصحاح السابع عشر إذ يقول : « وجرى بنو إسرائيل على جميع خطايا يربعام التى صنعها ولم يحولوا عنها . حتى نفى الرب إسرائيل من وجهه ، كما قال الرب على ألسنة جميع عبيده الأنبياء: وجلا إسرائيل عن أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم . وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروايم ، وأسكنهم فى مدن السامرة مكان بنى إسرائيل ، فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها » . والذين يعتمدون على هذا النص من اليهود يريدون أن يستشهدوا به على أن هؤلاء السامريين لا يمتون إلى العبريين ، ولا إلى موسى أو يعقوب بصلة . فهم جماعة من أخلاط الناس ، ومن « الجوييم » المتعاونين مع أعداء اليهود ، إذ أحضرهم الأشوريون إلى هذا المكان وأحلوهم محل بنى إسرائيل

(١) دائرة المعارف العبرية التى سبقت الاشارة اليها — المجلد العاشر ، المقال الخاص بالسامرة .

تنفيذ للعنة إلهية حلت على بنى إسرائيل لاجرامهم وإغضابهم الرب .
والذين يقولون بذلك لا يسمون السامريين بهذا الاسم بل يسمونهم « الكوتيين » ، اى الذين جاءوا مع الاشوريين من « كوت » المذكورة بعد بابل فى الآيات السابقة .

فإذا استمر القارىء بعد ذلك فى سياق هذه الحكاية فى هذا الإصحاح فإنه يجد فيه قوله : « وكان فى مبدأ إقامتهم هناك أنهم لم يتقوا الرب ، فبعث الرب عليهم أسوداً تقتلهم لأنهم لايعرفون حكم إله الارض . فأمر ملك آشور وقال ابعثوا إليهم واحدا من الكهنة الذين جلوتهم من هناك فيذهب ويقيم هناك ، ويعلمهم حكم إله الأرض . فأتى واحد من الكهنة الذين جلاهم من السامرة وأقام فى « بيت إل » وأخذ يعلمهم كيف يتقون الرب . وأخذت كل أمة تعمل آلهتها وتضعها فى بيوت المشارف التى عملها السامريون ، كل أمة فى مدنها التى سكنتها » . ويتأكد عن طريق هذا النص أن السامريين الذين كانوا أخلاطا من الامم الاخرى لم ينفعهم تعليم الكاهن الذى أرسل إليهم فقد انزلقوا إلى عبادة الاصنام . وتتأكد هذه الحملة ضد السامريين وتزداد وضوحا عندما يذكر النص أسماء الأصنام التى صنعتها كل جماعة من السامريين فيقول : « فعمل أهل بابل سُكوت بَنُوت وأهل كوت عملوا نِرجَال ، وأهل حماة عملوا أشيمَا ، والعَوّيُّون عملوا نِبْحَاز وتَرْتَاق ، والسفروائيميون كانوا يحرقون أولادهم بالنار لادْرَمّلك وعَنَمّلك إلهَيْ سفروائيم . فكانوا يتقون الرب ويقيمون له من قومهم كهنة مشارف يقربون لهم فى بيوت المشارف . وكانوا يتقون الرب ويعبدون

آلهتهم كعادة الأمم الذين جلوهم من بينهم . وهم إلى هذا اليوم يعملون كعاداتهم الأولى ؛ لا يتقون الرب ، ولا يعملون بحسب سننهم وعوائدهم ، ولا بحسب الشريعة والوصية التى أمـــر الرب بها بنى يعقوب الذى سماه إسرائيل .

وخلاصة القول أن كثيرا من اليهود ينفون عن السامريين الانتساب إلى إسرائيل أو الإيمان بإله إسرائيل . وقد وصل ذلك إلى حد أن أحبار اليهود كانوا اعتمادا على النص السابق يسمونهم «جيران السباع»(١).

أما السامريون أنفسهم فانهم ينتسبون إلى هـــارون أخى موسى وينتخبون كاهنا أعظم يسمونه « الكاهن اللاوى » أى المنحدر من سبط لاوى أو ليفى الذى انحدر منه موسى وهارون ، وكثيرا مايكتفون فى تسميته بلقب « الحبر الكبير » .

ونظرا للعزلة التى عاشوا فيها فقد انتشر فيهم الجهل بحيث قل عدد من يعرفون القراءة والكتابة بينهم ، وأكثرهم الآن يحفظون صلواتهم بعبريتهم بدون فهم لأنهم يتخاطبون فى الأغلب باللغة العربية .

وكان آخر كهنتهم الذين يدعون الانتساب إلى هـــارون يعيش فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وبعد وفاته عام ١٦٢٣ أصبح كهنتهم حتى الآن ينتسبون إلى فرع من اللاويين اسمهم بنو « عزيئيل بن لهات » ، وهم يعظمون كاهنهم تعظيما كبيرا .

---

(١) دائرة المعارف العبرية .

والسامريون - كاليهود الربانيين - يؤمنون بيوم القيامة ، ويسمونه يوم البعث ، أو يوم الموقف العظيم . كما يؤمنون بمجيء المسيح الخاص .

وكما تسمي هذه الطائفة نفسها « السامرة » ، تتخذ لنفسها أسماء أخرى أشهرها « بنو إسرائيل » ، وكذلك « بنو يوسف » .

٢ — الفريزيون

وهم طائفة علماء الشريعة من الربانيين قديما ، وكانت لهم الكلمة العليا في توجيه المجتمع اليهودي على عهد المسيح ، كما كانوا من أشد خصوم المسيح خطرا عليه ، لتبحرهم في العلم ، وزعامتهم بين الناس ومنزلتهم عند الولاة الرومان التي اكتسبوها من تعاونهم مع الظلم والطغيان والاستعمار ، ربما لتحقيق مخطط أزلي مرسوم لتدعيم الكيان اليهودي ، مهما كانت وسائل ذلك منافية للدين الأخلاق .

وبعض الذين ترجموا الإنجيل ، أو الذين يكتبون عن علاقة المسيحية باليهودية يسمون هذه الجماعة « الفريسيين » واسمهم بالعبرية « فروشيم » يعني « المفروزين » أي الذين امتازوا عن الجمهور ، وعزلوا عنه ، وأصبحوا لعلمهم وورعهم واتصالهم بأسرار الشريعة من الصفوة المختارة. فالعامة من اليهود الربانيين كانوا يوصفون على ألسنة زعمائهم الروحيين بالصفة العبرية « عام ها آرص » ، « أي عوام الأرض ، وهي صفة ذم ، تتضمن الجهل والبهيمية . والحاجة المستمرة إلى رقابة المتشددين والمتزمتين من رجال الدين وهم « الفريزيون » .

وكانوا يلقبون أنفسهم فيما بينهم بلقب « حسيديم » أي الأتقياء ،

وكذلك « حبيريم » أى الرفاق والزملاء ، ولعلها أصل استعمال العرب لكلمة « الاحبار » أى علماء اليهود ، ومفردها فى اللغة العربية « حَبْر » بفتح الحاء .

ونحن نرى من ذلك أنهم لم يكونوا « طائفة» أو فرقة دينية منفصلة ، بل كما يقول الباحث الفرنسى شارل جنيبير متفقا فى ذلك مع الآب لاجرانج (١) إنهم جمعية تدعى لنفسها معرفة أدق من أى إنسان آخر بشريعة الله فى نصوصها المقدسة ومأثوراتها . وهى بهذه الصفة تنظم نفسها بما يتفق مع تطبيق فى منتهى الدقة الأحكام الشرعية يسمح لها بأن تفرض كلمتها فى ذلك على الآخرين .

والفريزيون بمسلكهم هذا يعتبرون الشريعة اليهودية المنبع الذى لاينضب للسعادة فى الدنيا والآخرة ، ويقولون أن التوراة هى التعبير الكامل عما كان يمكن للانسان أن يختاره لنفسه لو أنه أوتى علما كاملا . أما نظرتهم إلى مايكمل - فى رأيهم - التوراة من شرائع وحكايات وأساطير وأمثال فى المشنا والتلمود والمدراش بكل ماتحتوى من «هلاخا» ، أى تشريع ، و« هجادا » أى قصص ، فنظرة خاصة يعتبرون بها كل ذلك مندمج اندماجا عضويا فى التوراة ، بحيث لايمكن الايمان بهذه التوراة مع الشك فى مكملاتها السالفة الذكر .

وتاريخ الفريزيين فى شكله الذى نعرفه من المراجع الأوروبية يميل إلى كثير من التنديد بهؤلاء الناس ، والتشنيع عليهم ، بسبب الأوصاف

---

(١) Ch Guignebert; Le Monde Juif au Temps Jésus ; Paris 1935 - p. 213.

Le p. M. - J. Lagrange; Le Judaïsme avent Jésus - Christ; Paris 1931, p. 267 ss.

التى وصفوا بها فى الإنجيل ، نتيجة لما أشرنا إليه من مناهضتهم للمسيح ووقوفهم فى وجهه بصلابة وعناد . لقد وصفوا بأنهم متزمتون عن جهل وتنطع فى الدين ، وبأنهم يغرقون من النصوص فى تفاصيل تافهة ، ويخرجون منها بنتائج جافة وتافهة أيضا ، وبأنهم حرفيون شكليون ، وبأنهم جدليون كذابون منافقون ، وبأنهم يمثلون انحطاطا بالنسبة لأسلافهم ، ومسخا وتشويها لما كان لهؤلاء الأسلاف من فضائل .

ومثل هذا الصراع يكاد يكون ظاهرة شائعة فى التطور التاريخى لمعظم الأديان . فبمجرد ظهور نزعة ترتكز على الروحانية ، وتعنى بجوهر الدعوة دون شكلها وتتصل وجدانيا بالله غير حافلة تماما بما يقوله الكهنة وما يأمرون به من شعائر وطقوس ، يبدأ أولئك الكهنة بالتصدى للدعاة الروحيين الجدد ، وهكذا ينشب الصراع بكل حدته وحرارته بين المعسكر الدينى التقليدى المحافظ ممثلا فى الفقهاء والكهنة ورجال الشريعة ، والمعسكر الوجدانى الروحانى الثائر ممثلا فى الزهاد والنساك والقديسين والمتصوفين . ونحن نعرف أن الفقهاء من رجال الشريعة الإسلامية حكموا على متصوفين من أمثال الحلاج بالكفر والإعدام فى جولة من الصراع بين الفقه والتصوف ، كما نعلم أن الكنيسة المسيحية الكاثوليكية قد حكمت على قديسة مثل جان دارك بالكفر والاعدام عندما نشب مثل هذا الصراع ، ومن ورائه صراع سياسى هو ليس عنه بغريب ، كان موجودا أيضا فى الأعماق لما الخلفية لما وقع للحلاج من فقهاء المسلمين وما وقع للمسيح من الفريزيين . ومهما يكن من شىء فنحن لا نريد هنا أن ندافع عن الفريزيين بقدر ما نريد أن نشير إلى ضرورة التدقيق فيما يقع تحت أيدينا عنهم من أخبار ومعلومات .

وهناك ملاحظة قيمة يلاحظها شارل جنيبير[1] عندما يقول إن الفريزيين الذين آمنوا بالتوراة ثم بكل الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى ، وبجميع الأسفار اليهودية المقدسة ثم بالمشنا والتلمود والمدراش ، كانوا عن غير عمد وربما عن غير معرفة أيضا يؤكدون بمسلكهم هذا يقينا عفويا عميقا بضرورة الاستمرار مع التطور ، إذ بذلك ، وبذلك فقط تستطيع الأديان أن تعيش وأن تستمر .

لكن يبدو من جهة أخرى أن هذه التطورية التى يؤمن بها الفريزيون كانت فى حسبانهم أيضا محدودة بسياج من التقاليد والمقدسات التى لا يسمحون باقتحامها لأحد ، حتى ولو كان السيد المسيح نفسه . فمن مظاهر تطور الفكر الدينى عندهم بروز فكرة الايمان بالله مع الاعتقاد الواضح فى وجود الشيطان ، وهى عقيدة لم يكن العبريون القدماء قد أدخلوها فى نصوص التوراة . وتبعا لذلك توسع الفريزيون فى الكلام عن الملائكة على أنهم المؤتمرون بأمر الله القائمون فى خدمته ، كما توسعوا فى الكلام عن الأبالسة والجن والعفاريت على أنهم المؤتمرون بأمر الشيطان القائمون فى خدمته . وكان هذا أمراً جديدا يضاف إلى الوضوح والبروز فى الاعتقاد فى مجىء المسيح وإقامته مملكة الله على الأرض ، وفى اليوم الآخر .

وبحكم القيادة الدينية التى حرص الفريزيون على أن تبقى فى أيديهم ، فإنهم تعرضوا لكثير من المواقف التى اختلفت فيها تصرفاتهم بحسب الظروف . فهم مثلا كانوا دائما حريصين على غرس بذور الصهيونية فى نفوس عوام الأرض ، وتوجيههم إلى إحتقار الأمم والأجناس والأديان

---

(١) المرجع السابق ، نفس الموضع .

الأخرى ، وحضهم ، جهارا أحيانا وسرا أحيانا ، على رفض أية حكومة أجنبية غير يهودية تهيمن عليهم ، ومن هنا كانوا دائما وراء القلاقل والاضطرابات والثورات وأعمال التخريب والمؤامرات التى ظل اليهود يقومون بها فى منطقة الشرق الأوسط - وكانوا إذ ذاك قلة قليلة جدا وسط ملايين كثيرة من السكان الآخرين ، فى كل هذه المنطقة بما فيها فلسطين - طوال العهدين اليونانى والرومانى حتى انتهت بتشريدهم نهائيا على يد تيتوس ثم هدريان كما قلنا .

فالفريزيون بتعصبهم وتشددهم مسئولون عن « الدياسبورا » ، وهى التشريد الرومانى لليهود الذى استمر إلى ما بعد وعد بلفور ، وهم أيضا مسئولون أيضا أمام الرأى العام العالمى عن كل التفاسير التى وجهوا بها النصوص المقدسة وجهة الصهيونية السياسية ، ولعلهم فى ذلك لم يكونوا أقل خطراً على الإنسانية من تآمرهم لصلب المسيح عليه السلام . وهذه المسئولية القيادية التى آلت إلى الفريزيين فوضعتهم فى مواقف معينة فى قمة البسالة والشجاعة هى أيضا التى أعطيتهم القدرة على المناورة ، وتخطيط المكايد ، وإظهار ما يخالف الباطن فى انتظار الفرصة السانحة للانقضاض. ومن هنا جاء حكم الانجيل عليهم بالتزمت الأحمق ، والتناقض فى الأقوال والأفعال ، والتآمر والنفاق .

٣ - الصدوقيون

إذا كان الفريزيون قد استمروا إلى يومنا هذا تحت أسماء أخرى هى التى تميز الجماعات والأحزاب الدينية الصهيونية فى إسرائيل وباقى أنحاء العالم ؛ فإن هناك فرقة دينية يهودية عاصرت الفريزيين ، بل ربما كانت

أقدم منهم ، ولكنها لم تساير تطور الفكر الديني اليهودي حتى النهاية فأنطفأت مع الزمن ، هذه الفرقة هي فرقة الصدوقيين .

وبالرغم من شهرة هذه الفرقة فإن أمرها لايخلو من غموض ، حتى فى أصل اسمها . فالروايات الفريزية القديمة تقول إن «انتيجنوس السوخى» الذى كان من كبار كهنة الهيكل الثانى ، وعاش حوالى سنة ٢٠٠ ق م . كان له تلميذان أحدهما اسمه « صدوق » والآخر اسمه « بيتوس » ، وإلى الأول منهما تنسب هذه الفرقة ، ولما كان قد ورد ذكر « البيتدسيين » فى بعض النصوص القديمة أيضا ، فقد جرى اليهـــود على اعتبار أن الصدوقيين والبيتوسيين فرقة واحدة لها اسمان مختلفان ، وإن كان بعضهم قد تلمس فرقا جعله يعتقد ـ وسط هذا الغموض ـ أنهما فرقتـــان مختلفتان[1] . والصدوقيون أنفسهم لم يكونوا يوافقون على ذلك ، فهم يدعون أنهم ينتسبون إلى « صدوق » أقدم من هذا بكثير هو ـ فيما يقال ـ الكاهن الأعظم لداود ، الذى تولى أخذ البيعة لابنـــه سليمان ، وتنصيبه على العرش ، فعينه سليمان كاهنا أعظم لهيكله . جاء فى سفر الملوك الأول : ٣٢/١ - ٣٥ : « وقال الملك داود على بصدوق الكاهن وناثان النبى وبنايا بن يوياداع ، فدخلوا بين يدى الملك . فقـــال لهم الملك خذوا معكم عبيد سيدكم ، وأركبوا سليمان ابنى على بغلتى وانزلوا به إلى جيحون . وليمسحه هناك صدوق الكاهن وناثان النبى ملكا على إسرائيل ، واهتفوا بالبوق وقولوا : ليحى الملك سليمان . واصعدوا

---

(١) جريتس ، حنيبير ، لاجرانج ، دائرة المعارف العبرية

وراءه فيجيء ويجلس على عرشى ، وهو يملك مكانى ، فإنه هو الذى أوصيت أن يكون قائدا على إسرائيل ويهوذا » . ويقول فى الإصحاح الثانى ، آية ٣٥ : « وأقام الملك بنايا بن يوياداع مكانه على الجيش ، وأقام صدوق الكاهن مكان أبيثار » . ويبدو أن الايام دارت ، وأحفاد صدوق هذا يرثون الكهانة عن جدهم ، ففى حزقيال ٤٠/٤٦ نقرأ : «والغرف التى تتجه نحو طريق الشمال هى للكهنة المتولين حراسة المذبح، وهم بنو صدوق المقربون إلى الرب ، من بين أبناء لاوى ليخدموه » . ويقول الفرنسى جنيبير[1] ، إن إنتساب الصدوقيين الأول إلى الكاهن الأكبر لسليمان صدوق يبدو مستبعدا ، إذ لو كانت هناك أدنى مناسبة لحرص أبناء هذه الطائفة ، لا على تسمية أنفسهم الصدوقيين ، ولكن (بنى صدوق) على نحو ما جاء فى آية حزقيال مثلا .

وإزاء هذا الغموض قال بعضهم إن الصدوقيين الذين يسمون بالعبرية (صدوقيم) ربما كانوا يسمون فى الأصل (صديقيم) أى الصديقون بمعنى العادلين والأبرار ، ثم غيروها من الياء إلى الواو تواضعا ، بحيث يصبح معناها (أهل العدل) أو نحو ذلك[2] : المسألة ما تزال مفتقرة إلى وثائق حتى يتم شرحها بشكل حاسم ، خصوصا أن الصدوقيين ، لعداوتهم العقائدية المرة للفريزيين والمسيحيين ، قد نعتـــوا بأوصاف كثيرة تحول دون الرؤية الواضحة فى هذه التسمية ، لدرجة أن التلمود لم يقنع بوصفهم بأقبح الصفات ، بل أضرب عن تسميتهم بالصدوقيين

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، فى مادة «صدوقيم» ، المجلد التاسع .

(٢) كتابه السابق ذكره ، ص ٢١٠ وما بعدها .

وسماهم (الأبيقوريين) ، لأن مفهوم هذه الصفة عند اليهود التلموديين ينطبق على من يصاب بالشك فى الحقائق ، وعدم تصـــديق الروايات الشفوية ؛ مع الانفكاك من قيود الدين والأخلاق . ومهما يكن من شىء فهذه الطائفة تمتاز بما يلى :

(أ) أنها لا تؤمن بقيامه الأموات من القبور .

(ب) ولا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا فى الدنيا .

(جـ) وترفض بالتالى الثواب والعقاب فى الآخرة .

(د) تنكر وجود الملائكة والشياطين .

(هـ) تنكر القضاء والقدر وما كتب للإنسان أو عليه فى اللوح المحفوظ.

(و) تقول تبعا لذلك بأن الإنسان خالق أفعال نفسه ، حر التصرف وبذلك فهو مسئول .

(ز) تؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود ونحوه .

كانت هذه الفرقة تشبه فرقة المعتزلة المسلمين من وجوه كثيرة كما رأينا ، وكانت تشبههم أيضا فى أنها عقيدة الخاصة والمثقفين والطبقة الأرستقراطية . ولذلك فإنهم على الرغم من عدم وضوح فكرة المسيح المنتظر فى عقائدهم ، ربما كانوا يؤمنون بها من خلال تأويلهم لنصوص معينة معروفه من العهد القديم ، وبخاصة سفر إشعيا . ولكنهم لم يبرزوا هذه الفكرة ، ولم يلحوا عليها ، لما رأوه من تحولها إلى نوع من الدروشة والتهريج الدينى بين الجهلة والعوام . ولعل ذلك هو الذى حدد موقفهم العدائى المعروف من المسيح ، فاشتركوا مع الفريزيين فى مقاومته ومعاداته.

وسنرى فيما بعد كيف أثر الفكر الدينى الصدوقى على طوائف أخرى متأخرة من أشهرها طائفة اليهود القرائين .

٤ ـ القنــاءون

وهم فى الواقع ليسوا فرقة بمفهوم هذه الكلمة فى تاريخ الأديان ، وإنما هم شعبة من الفريزيين يمتازون بالتطرف الشديد ، والعنف ، بحيث يمكن وصفهم بأنهم سياسيا ودينيا «غلاة» اليهود . وكلمة «قنّاء» التى يتسمى بها كل فرد من هذه الجماعة الدينية معناها فى استعمال العبريين « الغيور » أو « صاحب الحمية » . وهى الكلمة التى وصف الله بها نفسه فى الوصايا العشر عند النهى عن اتخاذ آلهة أخرى . وكان الاستعمال القديم لهذه المادة فى اللغة العبرية قد اصطبغ بمعنى الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقسوة وجرأة ، وأن يقف المرء فى المجتمع مناضلا لاتأخذه فى الله لومة لائم . فعندما ذهب النبى إيلياهو الذى أجملنا أهم أخباره فيما سبق من هذا الكتاب إلى جبل الله حوريب ، حيث كان الله قد كلم موسى تكليما ، دخل إلياهو المغارة وبات فيها . « وكان كلام الرب إليه ، يقول : مالك ها هنا يا إلياهو ؟ فقال : قد غِرتُ غيرة للرب إله الجنود ، لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهــدك ، ونقضوا مذابحك ، وقتلوا أنبياءك بالسيف ... » فهذه الغيرة للرب يعبر عنها فى العبرية بمشتقات من نفس مادة « قنّاء » .

ويقول المفسرون اليهود أصحاب المدراش إن من أشهر القنائين القدماء الذين أخذتهم الغيرة لله ، من عهد موسى ، فنحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن ، الذى أثر عنه فى سفر العدد هذا الخبر (عدد ٢٥/٦ - ١٣) :

وإذا رجل من بنى إسرائيل قد جاء وقدّم إلى إخوانه (زوجته) المدينية أمام عينى موسى ، وأعين كل جماعة بنى إسرائيل ، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع . فلما رأى ذلك فنحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلى إلى القبة ، وطعن الرجل الإسرائيلى كما طعن المرأة فى بطنها كليهما ، فامتنع الوباء عن بنى إسرائيل . وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا فكلم الرب موسى قائلا : « فنحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن قد رد سخطى عن بنى إسرائيل ، بكونه غار غيرتى فى وسطهم ، حتى لا أفنى بنى إسرائيل بغيرتى . لذلك قل إنى أعطيه ميثاقى ، ميثاق السلام ، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدى ، لأجل أنه غار لله ، وكفر عن بنى إسرائيل » . وواضح من هذه القصة أن ذلك « القنّاء » القديم المعاصر لموسى ، فنحاس ، كانت غيرته للرب دموية جدا لم يتحرج فيها عن القتل ، بل عن قتل اثنين أحدهما من إخوانه بنى إسرائيل ، وامرأة غريبة ضعيفة هى الزوجة المدينية . أما مبرر هذا القتل فالعصبية العنصرية التى جعلت فنحاس الكاهن يرى فى الزواج بأجنبية جريمة مابعدها جريمة ، بل جعل معاصريه من بنى إسرائيل ، حسب هذه القصة ، يسندون الأوبئة والطواعين التى تفتك بعشرات الآلاف من أبناء شعب الله المختار إلى الزواج بالأجنبيات .

والذى يعنينا هنا هو أن فرقة القنّائين التى تكونت فى الفترة المحيطة بمولد المسيح كانت تستوحى من أمثال هــذه الحكايات دستورا للعنف والتطرف والمغالاة . وكانت بوادر هذا الاتجاه قد ظهرت فى عهد أحبار

المشنا ، فقد جاء فى باب القضاء (السنهدرين ٨١) أن من يسرق أدوات الخدمة الدينية ، ومن يعمل عملا سحريا للإضرار ، ومن يتزوج بامرأة آرامية ، فان القنائين كانوا يقتلونه ، وأما الكاهن الذى قام بالخدمة الدينية وهو فى حالة نجاسة فإن إخوانه الكهنة لايحضرونه ويقدمونه إلى المحكمة بل يأتى صغارهم ويخرجونه ويهشمون رأسه .

وقد أصبح « قضاء القنّائين » مضرب الأمثال فى القسوة ، مما جعلهم فى أيام هيرودس ، حوالى ميلاد المسيح ، يعتبرون فرقة قائمة بذاتها ، وجعل الفريقين الذين لايختلفون عنهم من الناحية الاعتقادية أو التشريعية يعادونهم بسبب هذا الغلو والإرهاب الذى اشتهروا به لدرجة أنهم كانوا يسمون « سيقّارين » أو « سيقاريقين » وهى كلمة يهودية من ألفاظ التلمود معناها « الإرهابيون » أو « السفاحون » أو « قطاع الطرق » ، كما أنهم سموا فى بعض الوثائق « بريوناى » أى « الخارجون على القانون » أو « المتمردون » .

ويقول المؤرخ اليهودى المعاصر لهم يوسيفوس [1] إن هذه الجماعة كانت تمتاز بتمسكها بفكرة الوطن اليهودى الحر المستقل ، وكانوا لايعترفون برئيس أو سيد إلا الله . وكانوا يفضلون الخروج على القانون ، بل يفضلون الموت لهم ولذويهم على أن يبايعوا حاكما أجنبيا . وينقل شارل

---

(١) فى كتابه المشهور «تواريخ اليهود» وكذلك فى كتابه الاخر « حرب اليهود » الذى خصصه لتدمير تيتوس للوجود اليهودى بفلسطين سنة ٧٠ ميلادية . وهذه النقول موجودة فى دائرة المعارف العبرية ، المجلد التاسع ، وهذه الطائفة تسمى فى الكتب الأوروبية الحديثة :ـ
Zelots, Les Zélotes

جنيبير (٢) عن يوسيفوس أنه يعزو نشـــأة حزب القنائين فى صورته الرهيبة المعروفة إلى الحوادث التى وقعت فى السنة السادسة أو السابعة من ميلاد المسيح ، والتى انتهت بعزل أرخيلاوس عن الإمارة على اليهود وهو ابن هيرودس وخليفته وصدور مرسوم رومانى باعتبار فلسطين رومانية ليس لها أى كيان ذاتى .

وقد بدأت هذه الحوادث بأمر من السلطات الرومانية بعمل تعداد إحصائى لليهود الموجودين فى فلسطين إذ ذاك ، فقام أحد القنائين واسمه « يهوذا دى جملا » المعروف بيهوذا الجليلى ، نسبة إلى مقاطعة الجليل بشمال فلسطين ، واتفق سرا مع أحد الفريسيين واسمه « صدوق » على إشعال نار الثورة ، ولكنه لم ينجح هو وصاحبه إلا فى استقطاب بعض المتطرفين وتكوين عدد محدود من العصابات وبمجرد علم الرومان بذلك هبوا لقمع هذا التمرد ونجحوا فى إبادة هذه العصابات والقضاء على الرجلين المتزعمين لها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت حركة القنائين حركة سرية تعتمد على الاغتيال ، وكانت ضحاياها من بين اليهود المتعاونيين مع الرومان ، وخصوصا الفريسيين . كان الواحد من القنائين يمر أحيانا بسرعة البرق وخنجره فى يده ، فيقتل الشخص المتفق عليه بطعنة واحدة ثم يختفى . وكان زعيمهم قبيل نزول تيتوس بجيشه لإبادة فلول اليهود فى فلسطين سنة ٧٠ ميلادية هو مناحم بن يهوذا الجليلى الذى قاد الحركة بعد أبيه ، وراح ينشر الاضطرابات فى أرجاء فلسطين سنة ٦٦ ميلادية ، مـــا أدى إلى هذا التدخل الرومانى الحاسم سنة ٧٠ ، وانتهى فيه أمر القنائين مع انتهاء أمر اليهود جميعا .

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٢٢٠ وما بعدها .

وخلاصة القول هي ماقدمناه من أن هذه الجماعة لم تكن تؤمن فى الدين بما يخالف إيمان الربانيين والفريزيين على وجه الخصوص ، وإنما كانت تنظيما صهيونيا سياسيا وعسكريا ، يرى استعمال القوة والالتجاء إلى الإرهاب والقتل والاغتيال لتحقيق الأغراض السياسية البحتة التى رسمتها لجماعة لنفسها ، وهى انتزاع فلسطين من الرومان ، وبسط السيطرة اليهودية بصورة دكتاتورية عليها .

ونلاحظ أيضا أن اشتعال حركتهم على أثر الأمر بالقيـــام بتعداد وإحصاء لليهود فى فلسطين يشعر بصورة واضحة بأن اليهود كانوا أقلية وأن القنـاثين كانوا على يقين من أن عمليـة التعداد لم تكن فى مصلحة هذه الفئة من النـــاس ، ولذلك لم يجدوا حلا للموقف إلا فى العنف والتخريب والاغتيـال وبث القلاقل والاضطرابات ، آملين أن يصلوا بذلك إلى أن تتحكم الأقلية فى الأكثرية ، وأن يقيموا حكومة تستمد هيبتها من التهديد بالخناجر .

وإذا كانت جماعة القناثين قد اندثرت كتنظيم ومذهب فى هذا الوقت المتقدم ، فإن منهاجها ووسائلها ماتزال توحى للفكر الصهيونى الحديث بكثير من التفاصيل التعسفية التى يعتمدها المتطرفون من أصحابنا حتى اليوم فى فرض كلمتهم بالقوة ، وإهدار كل الحقوق المنبثقة عما هو تشريع أو قانون أو سلوك إنسانى .

٥ - الأسيين أو الأسينيين

كانت هذه الفرقة على أيام ظهور المسيح من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطا وأشدها احتراما . لدرجة أنه جرت عادة من يكتبون عن الفكر

الديني الإسرائيلي إبان ظهور المسيحية على الاكتفاء غالبا بذكر أربع فرق هم الفريسيون والصدوقيون والغلاة والأسينيون . وإذا كانت معلوماتنا عن الفرق الثلاث الأولى قد سمحت لنــا بالكلام عنهم بشيء من الدقة لكثرة ماوصلنا حولهم من معلومات ، فإن فرقة الأسينيين ليست كذلك ، إذ أحاط بها الغموض الشديد منذ البداية ، مما جعل كل شيء يتصل بها يمثل مشكلة كبيرة أمام الباحثين .

وأول تلك المشاكل هي ندرة من كتبوا عنهم من القدماء . إذ تكاد هذه الكتابات تنحصر في فقرات قصيرة لاتتجاوز العشرين فقرة لدى المؤرخ اليهودي يوسيفوس في كتابيه المشهورين : حرب اليهود ، وتواريخ اليهود . يضاف إلى ذلك تعريف مختصر بهؤلاء الناس جاء تحت قلم العالم الطبيعي الروماني بلينوس الأكبر ، الذي عاش في القرن الأول الميلادي (٢٣ - ٧٩) ، في كتابه المشهور « التاريخ الطبيعي » ، وبضعة معلومات تنسب إلى الفيلسوف اليهودي السكندري فيلون .

أما الكتابات اليهودية - العبرية أو الآرامية - المنبثقة عن رواة ومؤلفين مختلفين عاشوا في تلك الأزمان ، وكتبوا في أمور بعضها أقل أهمية بكثير من الأسينيين ، فإنها لاتتحدث عن هؤلاء بشكل يقيني يمكن تشخيصهم من خلاله . وكذلك الأمر في الكتابات المسيحية القديمة .

وكان أكثر المؤلفين يعجبون أيضا وحتى عهد قريب ، من أن هذه الفرقة - على ما اشتهرت به من العلم والثقافة - لم تترك مؤلفات أو كتبا يعتمد عليها . وظل ذلك هو اعتقاد العلماء إلى أواخر صيف سنة ١٩٤٧ ، عندما أميط اللثام عن مجموعة من الكتابات العبرية ، في مغارة بالقرب من

« عين فشخة » ، فى منطقة أريحا بفلسطين على الجانب الغربى للبحر الميت . وهذه الكتابات بغرابتها وغزارتها والموضع التى خبأها أصحابها فيه تنطق بدون أدنى شك عن فرقة دينية يهودية ، ولكن اسم الإسينيين لم يرد بكل أسف ولو مرة واحدة فى كل هذه النصوص . ومع ذلك فقد ذهب كثير من الباحثين ، فى مقدمتهم أستاذنا ديبون سومير الأستاذ بالسربون إلى أن الكتابات المذكورة هى تراث من ثقافة الاسينيين ، بينما احتاط بعض آخر من العلماء فاكتفوا بنسبة هذه النصوص إلى المكان الذى وجدت فيه وقالوا «كتابات البحر الميت » أو « مخطوطات قمران » لأن المغارة التى كانت مستودعا لهذه المخطوطات توجد فى بقعة من الأرض بقرب عين فشخة تسمى « خربة قمران » . ولما كان هذا التراث يشبه من كثير من النواحى مايمكن تصوره عن الاسينيين من كتابات يوسيفوس وبلينوس الأكبر وفيلون السكندرى ، فإننا لن نترك الحديث عن الأسينيين إلا وقد أعطينا فكرة موجزة عن وثائق البحر الميت هذه أيضا .

وإذا كانت مشكلة المراجع ومصادر المعلومات عن هذه الفرقة تمثل عقبة كبيرة أمام الباحث فى تاريخها عقائدها ، فإن اسم هذه الفرقة أيضا يثير مشاكل كثيرة . فهو لم يرد مكتوبا بالعبرية قط ، ولكنه رسم هكذا باليونانية واللاتينية . ومن حق الباحث أن يسأل : ماأصله ؟ مامعناه ؟ وحول ذلك تكثر الأقوال وتتضارب . والشائع الآن بين العلماء هو أن الكلمة معناها « الأطباء » ، وأن أصلها آرامى هو كلمة « آسيا » بمعنى الطبيب والمداوى ، أو كما تقول العرب « الآسى » . وعلى هذا الرأى يمكن تسمية هذه الفرقة « الأُساة » . والذين خرجوا الاسم هذا التخريج يعتمدون على ماسماهم به الفيلسوف اليهودى فيلون السكندرى وهو يكتب

عنهم باليونانية إذ دعاهم « ثيرا بوتى ثيو » ، التى تعنى لأول وهلة « أطباء الله » . ومع ذلك يبقى إشكال حول هذا التخريج وهو أن كلمة « ثيرابوتى » لها فى اللغة اليونانية معنيان ، أولها « الأطباء » والثانى « الخدم » أو « الوصفاء » .

ومال بعض الباحثين إلى اشتقاق اسم هذه الفرقة من اللفظ اليونانى « أوسيوى » التى تستعمل بمعنى « القديسين » أو « الابرار » ، كما ربطها غيرهم باللفظة اليهودية القديمة « حسّيا » أو « حسّين » بمعنى « الاتقياء » وإن كان هذا التخريج الأخير مشكوكا فيه لإنعدام الوثائق الصريحة التى ترد فيها الكلمة بالمعنى المذكور فى التراث اليهودى . وهناك من يقول بإرجاعها إلى اللفظ اليهودى « حاشيا » أى الصامت الذى لايتكلم ، بل تكلف آخرون فأرادوا جعلها صيغة محرفة من « ساحيا » التى معناها نزل إلى الماء وسبح فيه ، وبنوا على ذلك أن هذه الطائفة ربما كانت تعتقد دينيا فى المعمودية أو الغطاس أو الطهارة بالاغتسال الكامل فى الماء [١] .

ومن الصعب جدا أن يتخير الباحث رأيا من هذه الآراء الكثيرة ويرجحه ، فإن أقربها إلى التصديق من أول وهلة ، وهو الدلالة على « الأطباء » يدعمه ماوصفهم به يوسيفوس من أنهم يلتزمون لبس الثياب البيضاء النظيفة ، ويظهرون فى المجتمع بصورة مهيبة محترمة تدعوا الناس إلى الثقة بهم والإقبال عليهم . ومع ذلك فلم يرد إلينا من خبرهم شىء أكثر من هذا يتصل بالطب أو الصيدلة أو علاج المرضى ، حتى فى

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد الثانى - فى مادة « آسيبيم » ؛ جهلبير — المرجع السابق ، ص : ٢٢٣ — ٢٤٦ .

الكتابات الكثيرة التي عثر عليها في منطقة البحر الميت . ويرد المتحمسون لهذا التخريج بأن سيدنا عيسى المسيح لم يكن قبل بعثته فريزيا ولا صدوقيا ، فقد هاجم هاتين الطائفتين بصراحة في تعاليمه ؛ كما أنه لا يمكن أن يكون من أولئك المتطرفين الإرهابيين السفاحين « القنائين » ، فقد ظل حياته كلها ينهى عن العنف ، حتى دفاعا عن النفس ، ويحاول غرس بذور المحبة والتسامح في القلوب . وعلى ذلك فإن الاحتمال الباقي هو أن يكون متعاطفا مع فرقة الأسينيين التي لم يندد بها ولم يهاجمها قط في تعاليمه . ولما كان هو نفسه قد اشتهر بمعجزاته المذهلة في الطب ، من إعادة البصر إلى العميان ، وإقامة المصابين بالشلل أو الكساح يتحركون ويمشون بين الناس ، وإبراء المرضى بالبرص ، بل إحياء الموتى ، فقد مال أكثر الباحثين الذين يتجهون نحو جعل الإسينيين « أطباء » إلى الربط بينهم وبين السيد المسيح بمعجزاته الطبية هذه .

وكان يمكن الرضا بهذا الشرح ، لولا أن البر والقداسة والاتجاه إلى الصمت والغطاس في الماء وهي من المعاني المعطاة لكلمة الإسينين كما قلنا كانت أيضا من تعاليم المسيح ، ومن الرياضات الدينية الشائعة عند كثير من النساك والأتقياء من اليهود في عصره . وربما يكون الأمر الوحيد الذي يقوى فكرة أنهم « أطباء » هو الاعتبار اللغوى البحت ، واقتراب اسمهم من كلمة الآسى السامية القديمة الموجودة في الآرامية والعربية بمعنى الطبيب ، وما جاء من وصف الإسينيين في اللغة اليونانية بأنهم « ثيرابوتى » أى أطباء ، على الأرجح .

وهذه الفرقة الغامضة في اسمها وكنهها غامضة في تاريخها أيضا . فأقدم

حديث عنها يرجع إلى أسرة المكابيين الحشمونيين إذ يذكر يوسيفوس فى « تاريخ اليهود » أنهم كانوا موجودين على عهد الأمير الحشمونى يوناثان (١٦١-١٤٨ ق م) ، ولكن يبدو من مسلكهم نفسه أنهم ماكانوا يتيحون للعالم الخارجى أن يعرف عنهم الكثير ، والظاهر أنه كانت لهم فلسفة دينية وأخلاقية عملت فيها تيارات أجنبية غير يهودية ، منها الفلسفة الفيثاغورية اليونانية ، ومنها التنظيم الدينى المجوسى الفارسى القائم على تقديس النور وربطه بالخير ، ومنها رواسب وبقايا من العقائد المصرية الفرعونية لاسيما مايتصل منها بتقديس الشمس ، إلى جانب المعتقدات النابعة من كتب اليهود المقدسة بطبيعة الحال . ويمكن تلخيص معتقدهم ومظهرهم العام على النحو التالى :

١ ـ الاعتزال عن الناس ، والارتباط القائم بين أعضاء الفرقة بعهد مقدس ، ويمين يحلفونه عند الدخول فى الفرقة ثم لايحلفون بعده يمينا أبدا . وقد لاحظ الباحثون التشابه القائم من هذه الناحية بينهم وبين المسيح والحواريين ، الذين كانوا مرتبطين فى هيئة جماعة تعتزل الناس ، وكذلك فى النهى عن التأكيد باليمين اكتفاء عند الإجابة بلفظتى « نعم » أو « لا »

٢ ـ كانوا يلبسون الثياب البيضاء ، ويحرصون على نظافتها ونظافة أجسامهم والظهور بمظهر طيب وقور . وهم فى ذلك يشبهون المسيح والحواريين أيضا ، فنحن نعلم أن كلمة حوارى معناها لابس الثياب البيضاء .

٣ ـ المعيشة الجماعية فى دار عامة للطائفة بعيدة عن الناس ، يتولى كل واحد منهم فيها مهمة من مهام الحياة اليومية من زراعة أو صناعة

أو طبخ أو تنظيف تعليم أو تأليف . وكانوا فى هــذه الدار يعيشون حياة شبيهة بحياة الأديرة المسيحية .

٤ - الاهتمام بتهذيب شعر الرأس واللحية ، والتطهير بالاغتسال والغطاس فى الماء .

٥ - الاهتمام بشروق الشمس ، فقد كانوا يقومون من نومهم قبل الفجر فيقفون جماعة فى انتظار لحظة الشروق حيث يؤدون صلاة معينة يسمونها « صلاة الأسلاف » ، وقد لمس الباحثون فى هذه النقطة (١) اقترابا من الشرائع القديمة المصرية والمجوسية .

٦ - كانوا يحرمون فى عبادتهم الذبيحة ، ويرون فيها لونا قاسيا من سفك الدماء ، مخالفين فى ذلك أكثر فرق اليهود ، ومقتربين من المجوسية من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى ، بل لقد رأى بعض العلماء أنهم لابد أن يكونوا قد تأثروا فى ذلك بشىء من الفلسفات الدينية الهندية .

٧ - كان لهم تنظيم داخلى دقيق فى فرقتهم ، ففى كل دار من دورهم التى يعيشون فيها هذه الحياة الجماعية رئيس لهم يعظمونه ويطيعونه ، ومن تحته كــان كل فرد من أفراد الطائفة له مكان فى الترتيب الهرمى لمجتمعهم لايجوز له أن يتعداه ، وحتى بالكلام ، فعند المحادثات والمناقشات تعطى الأولوية لكل فرد منهم بحسب منزلته فى هذا الترتيب .

٨ - كانوا يأخذون أنفسهم بالتقشف والقناعة ، فلا يقبلون هدية أو زكاة أو راتبا من أحد ، وكان على كل منهم أن يعيش من عمل يديه ، وربما كان علماؤهم يحترفون الطب حتى تجتمع لهم فضيلة علاج الأجسام والأرواح

(١) جنيبير فى الموضع السابق .

٩ - يذكر عنهم كذلك حسب رواية فيلون أنهم كانوا يحرمون على أنفسهم الزواج ، وقد حار الباحثون إزاء هــذا التأكيد الذى يسجله بلينوس وفيلون ، وأرجعوه إلى تأثير الفلسفة الفيثاغورية ولكن شارل جنيبير[1] يقول إن هذه الفيثاغورية التى تمثل تناقضا صارخا مع ماجرى عليه العرف الدينى اليهودى من ضرورة الزواج ، ربما أتت إلى الإسينيين من إرتباطها بفكرة أخرى خاصة بالطهارة . فالشريعة اليهودية ترى فى الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأه عملا يدنس جسميهما ، ويبعدهما عن هذه الطهارة . ويبدو ذلك واضحا فى توصية موسى لقومه فى التوراة (خروج ١٩/١٥) بأن يكونوا مستعدين فى ظرف ثلاثة أيام فيقول لهم « لاتقتربوا من أية إمرأة » . وفى سفر صمويل الأول ٢١/٤ - ٥ نجد داود وهو يتساءل عن إمكان أكله من الخبز المقدس يقول « ألم نتجنب النساء منذ ثلاثة أيام ... فكل رجالى طاهرون » .

١٠ - كانوا يحرمون الاستعباد والرق ويقولون بالحرية للناس جميعا .

١١ - ذهب جنيبير إلى أن الاسينيين لم يكونوا يحرمون ذبيحة القربان فقط ، بل كانوا يمتنعون بتاتا عن أكل اللحم وعن إسالة الدماء وكانوا نباتيين ملتزمين بذلك فى حياتهم اليومية .

١٢ - كانوا يؤمنون بضرورة التمسك بالتوراة وأحكامها ولو جر ذلك عليهم القتل .

١٣ - يبدو من خلال ما نقل عنهم أنهم يؤمنون بمجىء المسيح ، لكن

---

(١) نفس المرجع .

ذلك يلفه غموض كبير إلا فى كتابات البحر الميت . وأوضح من ذلك إيمانهم باليوم الآخر ، وقد رأينـــا أن اليوم الآخر والمسيحانية ركنان من الاعتقـــاد اليهودى لايكاد أحدهما ينفصل عن الآخر .

١٤ - كانت هذه الفرقة هى أكثر الفرق إيمانا بالقضاء والقدر .

١٥ - نظراً لانتشار تعاطى الطب بينهم فقد قوى فيهم الإيمان بالأعمال السحرية ، وتأثير البروج والأفلاك على صحـــة الانسان ، ثم على مقدراته .

١٦ - انطلاقا من النقطـــة السابقة كانوا يؤمنون بالأرواح والملائكة ويعطونها أسماء ، ويحاولون بطقوس معينة أن يوجهـــوها إلى تحقيق ما يريدون .

١٧ - كانوا يؤمنون ، تبعا لإيمانهم بالقضاء والقدر ، بأن الله هو المتصرف فى كل شىء ، وليس من الضرورى أن تتفـــق تصرفاته مع اجتهادات عقولنا .

١٨ - كانوا يلتزمون بالفضيلة ، ويبتعدون عن الشر ، ولا يلجأون إلى العنف أبدا ، ولعل ذلك هو السبب فى نظرة الاحترام التى كانوا يتمتعون بها بين الناس البسطاء ، وبين المخالفين لهم من أتباع الفرق الأخرى ، كما كان ذلك بلا شك من عوامل فنائهم واندثارهم .

كان هؤلاء الأسينيون من الفرق الى اصطبغت بالتصرف ، وكادت تبتعد بموقفها السلبى عن السياسة ، وعن الصهيونية .

فرقة الاسينيين ومخطوطات البحر الميت :

تعتبر مخطوطات البحر الميت ، التى بدأ العالم يعرفها منذ أواخر صيف سنة ١٩٤٧ ، من أهم الكشوف الحديثة فى ميدان الفكر الدينى الإسرائيلى، من حيث كميتها أولا وأهمية المحتوى الذى تتضمنه هذه الكتابات العبرية ثانيا . ومع ذلك فقد كان أمر هذه المخطوطات محفوفا بصعوبات جمة ، سواء أكان ذلك فى تجميعها ، أم فى الإدلاء بحكم أثرى وتاريخى رصين حول أصلها مصدرها وسبب كتابتها ، أم فى تحديد الاتجاهات المذهبية التى تسودها . وليس عجيبا والحالة هذه أن تتناولها أقـــلام الباحثين والمعلقين والمترجمين منذ ذاك الوقت حتى الآن ، دون أن ينقطع من حولها الشك باليقين . فلا نكاد نعرف نصوصا أثرية ظفرت بهذا القدر الكبير من المؤلفات التى تبحث فيها ، والتى أصبحت تعد بآلاف يصعب حصرها ما بين كتب مطولة ودراسات مختصرة ومقالات فى المجلات المتخصصة وتقارير فنية من لجان شكلت لأجل ذلك ومن سجلات لمناقشات دارت فى مؤتمرات دولية حول هذا الموضوع . وبعد كل هذا ما تزال أكثر من علامة استفهام قائمة حول هذه المخطوطات . ولهذا فنحن لا نطمع بهذه السطور فى أكثر من إعطاء فكرة معتدلة للبـاحث العربى عن مشكلة تتجاوز بدون أدنى شك أبعاد هذا الكتاب ، وتحتاج إلى أكثر من باحث ومتخصص يركز إهتمامه عليها ، فى أعمال علمية مكرسة من أجلها من البداية إلى النهاية .

وتبدأ قصة إكتشاف هذه المخطوطـات بشخص لا علاقـة له بهـذا النوع من النشاط الإنسانى ، فهو راع عربى فلسطينى من قبيلة من أنصاف

البدو تسمى « التعامرة » ، تقوم بتربية قطعان الغنم والماعز فى جنوب فلسطين ، وفى المنطقة الممتدة من مرتفعات بيت لحم إلى أريحا على البحر الميت بالتحديد . وجد هذا الراعى ، واسمه محمد الديب ، مخطوطات من هذه المجموعة فى مغارة واقعة فى صخور « خربة قمران » بقرب « عين فشخة » فى منطقة أريحا على البحر الميت ، وكان عثوره عليها وهو يبحث عن حيوان شارد من القطيع الذى كان يرعاه فى تلك الجهة ، كان المخطوط الذى معه عبارة عن طومار من الجلد ملفوف وعليه كتابة عبرية مخطوطة بعناية . وهذا الطومار مقسم إلى أعمدة ، وكل عمود قد جرت فيه خطوط متوازية بطريقة الحز بآلة حادة ، بحيث يكتب الكاتب على السطر فلا ينزل عنه ولا يرتفع . وكانت الكتابة بالحبر الأسود ، وبخط مربع سهل القراءة .

أخذ محمد الديب مخطوطا من هذه المخطوطات وذهب إلى تاجر للسلع السياحية والآثار فى بيت لحم ، اسمه خليل اسكندر شاهين ويعرف فى فى المنطقة باسم « كندو » وهى عندهم تدليل لاسم اسكندر ، وسأله عن قيمتها من الناحية التجارية . وكان الرجل جاهلا بمثل هذه الأشياء ، فأعطاها إلى قس فى كنيسة القديس مرقس للسريان فى مدينة القدس العربية ليعطيه رأيه فيها . ولما كان هذا القس لايعرف عنها أكثر من معرفة التاجر خليل اسكندر شاهين فإنه راح يطوف بالمخطوط على العلماء ، حتى انتهى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٤٨ إلى المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية بالقدس ، وهناك أطلع عليها المستشرق الدكتور جون تريفر ، الذى كان يقوم بمهام المدير نيابة عنه أثناء غيابه فى بعض الحفائر بالعراق

وفوجىء بالحقيقة المذهلة عندما بدأ يقرأ بعض أعمدة هذا المخطوط العبرى فوجد أنه أمام نص من سفر إشعيا ، من أسفار أنبياء العهد القديم ، وأنه أقدم مخطوط من حيث التاريخ يحتوى على نص من الكتاب المقدس .

فى هذه الأثناء اندلعت الحرب بين العرب والصهيونية على أثر إعلان اليهود لقيام دولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وتولى الأثرى البريطانى لانكستر هاردنج ، مدير الآثار الاردنية ، أمر المحافظة على الآثار الفلسطينية فى كل الأراضى التى منعت الجيوش العربية اليهود من احتلالها . وكانت منطقة أريحا من بين هذه المناطق . ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء والأثريون فى العالم أجمع يهتمون بأمر هذه الحفائر والآثار ، وبخاصة بعد أن ظهرت مجلة المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ (وهو عدد إبريل من هذه السنة ، ولكن تأخر ظهوره بسبب الأحداث السياسية والحربية فى فلسطين) ، وكان هذا العدد يتضمن الاكتشافات والآراء الأولى حول هذه المخطوطات .

ومنذ ذلك الحين عرف العلماء مكان مغارة قمران ، لكن بعد أن كان البدو قد أخذوا كل محتوياتها من المخطوطات ، وراحوا يبيعونها سرا بأثمان مرتفعة وصلت فى النهاية إلى أكثر من جنيه استرلينى للسنتيمتر المربع من المخطوطات . ومع ذلك فقد تسابقت الجهات العلمية المهتمة بالموضوع فى اقتنائها . وكان لأمريكا منها نصيب الأسد ، كما آل جزء قليل منها إلى الاردن ، وتمكنت الجامعة العبرية بإسرائيل بوسائلهـا السرية من الحصول على كمية لابأس بها ، وكذلك نالت إنجلترا نصيبا منها ، كما كان لفرنسا جانب أيضا . ويقال إن أمر هذه المخطوطات

ما يزال قابلا لمفاجآت جديدة ، فقـد تظهر فى الأسواق نصوص أخرى منها .

لم يكن أمام العلماء إذن إلا إستقصاء أدق التفاصيل حول أصحاب هذه المخطوطات من الموقع التى وجدت فيه . وهكذا توالت الحفائر فى منطقة قمران وكان من نتيجتها التفاصيل التالية :

١ - أن المغارة التى وجدت فيها المخطوطات لايسهل تصور أنها كانت مكتبة ، أو دارا للمخطوطات (أرشيف) ، أو مدرسة لضيقها وظلامها وصعوبة الوصول اليها ، ولأنها لم تكن واقعة فى منطقة آهلة بالسكان تدعو إلى التفكير فى مكتبة عامة أو مدرسة أو دار للمحفوظات .

٢ - لوحظ مع ذلك أن معظم هذه المخطوطات قد نسخ فى فترة معينة وقصيرة من الزمن ، على ملفات أو طوامير جديدة من الجلد عولجت وهذبت لهذا الغرض . وأن هذه الطوامير كانت ملفوفة فى لفات من الكتان المدهون بالقار لمنع الرطوبة والحشرات وبالتالى وضح للعلماء أن الناسخين كانوا يريدون الاحتفاظ بتراث معين يخافون عليه من الضياع ، وفى صورة موحدة .

٣ - عثر فى المغارة على قدور أسطوانية من الفخار موحدة الصنع ، وتنقسم من حيث أبعادها إلى صنفين إثنين أحدهما أطول من الآخر قليلا ، وعملت لها أغطية من الفخار مفصلة من أجلها ، وكل هذا يتبين أنه قد صنع خصيصا لحفظ المخطوطات فيه ، فإرتفاع الصنفين من القدور يتفق مع عرض الطوامير التى كانت أيضا من قياسين ، بحيث توضع فى كل قدر ثلاثة طوامير ملفوفة فتملؤها.

٤ - وجدت فى المغارة أدوات للكتابة والنسخ كقناديل من الفخار ودوايات للحبر ولوحات يستعملها الكاتب مثل المنضدة عند الكتابة.

٥ - وجدت فى المغارة آثار أخرى وبعض نصوص أقدم عهدا من هذه النصوص العبرية .

٦ - وتوالت الحفائر فكشف بالقرب من المغارة عن بقايا دير أو مستعمرة كاملة تعيش فيها الطائفة التى تركت هذه المخطوطات .

وكان الخلاف أولا على تاريخ هذه الكتابة التى لم يُذكر التاريخ على واحد منها . فبعض العلماء ، كالأمريكى ألبرايت قالوا لأول وهلة إنها ترجع إلى حوالى سنة ٢٠٠ ق.م. بينما زعم آخرون أنها ربما كانت من بعد الفتح الإسلامى ، كالبريطانى درايفر . وبين هذين الطرفين تعددت الأقوال وتشعبت . وفى هذه الأثناء وقع فى أيدى العلماء مخطوط من تلك المخطوطات عنوانه « حرب أبناء النور مع أبناء الظلام » ، وهو كتاب صوفى يدور حول الأمرين الأساسيين فى الاعتقاد اليهودى العام، وهما كما سبق أن ذكرنا ، المسيحانية من ناحية ونهاية العالم من ناحية أخرى . وهذه الحرب الخيالية التى يصفها المؤلف ، هى حرب الفناء الأخير ، وأبناء الظلام هم جميع البشر من يهود وغيرهم ماعدا أبناء الطائفة الذين هم أبناء النور بطبيعة الحال . وهو فى وصف الصراع بين المعسكرين يعتنى باعطاء تفاصيل دقيقة عن تنظيم جيش أبناء النور . وقد قام باحثون متخصصون فى التاريخ العسكرى المقارن بمنطقة الشرق الأوسط ببحث تنظيم هذا الجيش الخيالى ، فتبين بما لايدع مجالا للشك

أنه يشبه الكتائب العسكرية الرومانية فى نفس هذه المنطقة فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد . ثم دخلت إعتبارات أخرى أيدت هذه النتيجة، واصبح الإجماع الآن يكاد يكون منعقداً على أن هذه الطائفة كانت موجودة فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد فى هذا المكان ، وأنها ربما اضطرت تحت تهديد القتل والإبادة إلى الهرب من المعقل الذى كانت تعيش فيه ، وفى الفترة القصيرة التى كانت تنظم فيها أمورها نسخت كل تراثها بهذا الشكل الموحد ، وخبأته فى تلك المغارة البعيدة عن الأنظار الوعرة المسالك ، على أمل العثور عليه عند العودة بعد نهاية الخطر الذى كان يهدد كيانها إذ ذاك ، ولكن يبدو أنها ذهبت إلى غير عودة .

من أهم النصوص التى طالعتنا بها هذه المخطوطات :

١ - مجموعة القوانين التنظيمية المطبقة فى الطائفة ، وهى اللائحة الداخلية للجماعة .

٢ - مجموعة من الصلوات والاناشيد والابتهالات وأدعية الحمد والشكر .

٣ - تفاسير على بعض النصوص المقدسة ، منها مختصر لشرائع توراة موسى وتفسير على أسفار صغيرة قصيرة للأنبياء « ميخا » و « ناحوم » و « حبقوق » والمزمور ٣٧ .

٤ - نصوص خاصة بنهاية العالم ، ومجىء المسيح المخلص ، وأهمها كتاب الحرب الذى أشرنا اليه ، ثم كتاب فيه أصول السلوك فى المجتمع الإسرائيلى بعد أن يظهر فيه المسيح ، وكذلك نص يسمى العهد الجديد (ليس على صلة فى شىء بما يسمى بهذا الاسم عند المسيحيين)،

وأخيراً نص عنوانه « الشر القادم » وهو موعظة تتعلق أيضا بيوم القصاص والجزاء (١) .

ويبدو من خلال النصوص المختلفة الواردة من قمران أن هناك تشابها لايمكن نكرانه بينهم وبين الأسينيين ، من حيث الإقامة فى دار خاصة بالجماعة ومنعزلة عن الجمهور ، ومن حيث النظام الذى يخضع له أبناء الطائفة حسب ما يبدو بتفاصيله فى مجموعة القوانين التنظيمية الداخلية ، ومن حيث الإيمان باليوم الآخر وإرتقاب المسيح ، وضرورة الإشتغال بالعلم ، والتقشف ، ولبس البياض ونحو ذلك .

ونحب أن نشير هنا إلى أن الرئيس الأعلى للطائفة كان مقدسا عندها

---

(١) -- J.M. Allegro ; The Dead Sea Scrolls; Pelican 1956.

— R K. Harlson ; ,, ,, ,, ; London, 1961

— W. F. Albright ; The Archaeology of Palestine ; Pelican, 1963

— Theodor H. Gaster ; The Dead Sea Scripture ; New-York, 1956

— A. Dupont-Sommer ; Aperçus préliminaires sur les Manuscrits de la Mer Morte ; Paris, 1950

— A. Dupont-Sommer ; Nouveaux Aperçus sur les Manuscrits de la Mer Morte ; Paris, 1953

ولم نذكر هنا إلا الكتب العامة ، التى يمكن للمبتدىء أن يأخذ منها فكرة ما عن هذا الكشف الاثرى العظيم .

يطيعونه طاعة عمياء ، ويسمونه « معلم الحق » أو « المعلم الحق » [1] وبالعبرية « مُوريه صِدق » ، ويبدو من بعض إشارات وردت فى التفسير الرمزى على سفر حبقوق الذى وصلنا من هذه الطائفة أن أحد رؤسائها المقدسين كان قد قبض عليه وعذب وأهين وجرد من ملابسه البيضاء ثم قتل على الصليب . لدرجة أن الأستاذ الفرنسى ديبون سومير [2] قال أن « معلم الحق » هذا هو مسيح من المسحاء الذين كانوا لا يكفون عن الظهور فى المجتمع اليهودى إبان ظهور المسيح عيسى بن مريم ، أو قبله بقليل .

والذى يبدو لنا بالرغم من هذا التشابه بين فرقة الأسينيين وجماعة « العهد الجديد » فى قمران أن هناك خلافا لا يمكن تجاهله بينهما :

ففرقة قمران حريصة على النقاء الثقافى التام من ناحية الارتباط بالعبرية ، سواء أكان ذلك فى اللغة أو فى الخط ، وقد عرفنا أن أرجح الأقوال فى اسم طائفة الأسينيين يجعل هذا الإسم أجنبيا ، مما لا يسهل قبوله من طائفة شديدة التزمت فى نقائها اللغوى وارتباطها بالعبرية الفصحى . وإن لم يستبعد أن يكون لهم فيما بينهم اسم آخر عبرى .

كذلك عرفنا أن الأسينيين كانوا طائفة مسالمة ، بينما تدل كل

---

(١) الرأى الاخير من استدراكات ثيودور جاستر فى كتابه المذكور فى القائمة الصغيرة السابقة .

(٢) فى بحث له عن المخطوط المشتمل على تفسير سفر حبقوق ، طبع فى باريس سنة ١٩٥١ .

الامارات ، وفى مقدمتها تعرض طائفة قمران للإبادة ، وهجرتها العاجلة الجماعية من مكانها ، على أنها طائفة أشد عنفا ، تشبه فى ذلك القنائين.

يتأكد تعلق هذه الطائفة بالعنف فى كتابها الذى عنوانه حرب أبناء النور مع أبناء الظلام ، وهى حرب فناء نهائى يهلك فيه أبناء البشرية جميعا ما عدا أعضاء هذه الطائفة .

وليس لدينا ما يمنع من الاعتقاد بأن طائفة قمران كانت طرازاً خاصاً يجمع بين الآسينية فى التدين ، والقنائية فى إقرار العنف والإرهاب وسيلة لتحقيق مآرب الطائفة ، وإن كانت مآربها لاتبدو مرتبطة إرتباطا سياسيا بفلسطين على النهج الصهيونى ، بل ربما كانت صهيونية متصوفة لاتقنع بفلسطين دون السيطرة على العالم أجمع ، وهذا النوع من الدروشة الحالمة كثير فى المجتمع الإسرائيلى قديمة وحديثة .

وهكذا نرى من تلك العجالة أن نصوص البحر الميت بالرغم من أنها ظفرت حتى الآن بالآلاف من المؤلفات والمقالات ما تزال فى حاجة إلى مزيد من البحث ، لاسيما من حيث نوع علاقتها بالإسينية ، إذ يميل الكثيرون إلى وضعها فى نفس معسكرهم دون تصنيف أو إدراك للظلال الجزئية التى تجعل منها فكراً إسرائيليا له كيان ذاتى يميزه .

كذلك نشعر بأننا - مع فرقة العهد الإلهى الجديد فى قمران ، ومع الإسينيين نقترب جدا من الدعوة المسيحية . والواقع أن الفكر الدينى الإسرائيلى فى عبوره من المسيحانية إلى المسيحية ممثلة فى عيسى بن مريم كان يخطو فى الطريق المنطقية الطبيعية فى تطوره . ولم يكن يبدو فى هذا الخضم المتلاطم من المذاهب والفرق والآراء والاتجاهات السياسية منها

والصوفية والشرعية ، أن المسيح ظاهرة شاذة أو داعية غريب ، وكادت اليهودية بعد إنتهاء أمره من هذه الدنيا أن تبتلعه وتتمثله وتخفى عبقريته مع كل مختزناتها ، ونفاياتها ، ومهملاتها ، وعجائب مقتنياتها ، على المدى الطويل من أفكار ودعوات . ولولا اليهودى القديم المحنك شاؤل ، الذى عرف فى المسيحية باسم القديس بولس ، لتغير الوضع . فهو الذى جاهر مؤكدا بأن دعوة المسيح عيسى بن مريم ليست مذهبا يهوديا . بل دين جديد بوحى جديد وعهد جديد .

ومع ذلك فقد ظهر بين العلماء الذين اشتغلوا بمخطوطات البحر الميت من يعلن ـ كما قلنا ـ أن « معلم الحق » أو « المعلم الحق » ، رئيس طائفة قمران ، يعتبر صورة طليعية للمسيح الذى ظهر بعد ذلك بأقل من نصف قرن من الزمان .

ونجد أنفسنا هنا مشدودين ، مرة أخرى ، إلى الاعتبار اللغوى نلتمس فيه بعضا من نور للتمييز بين الشخصيتين والدعوتين . فقد قلنا إن طائفة قمران كانت شديدة الولاء للغة العبرية ، وكانت فيها متزمتة محافظة إلى حد يشبه أن يكون تعصبا جنسيا ، على حين أننا نعرف أن المسيح عليه السلام كان أكثر كلامه بالآرامية ، وكان لايكاد يخوض فى تيار العبرية إلا فى مجادلاته مع الكتبة والفريسيين من رجال العقيدة اليهودية التقليدية . كما أننا نعرف أن أتباعه وحوارييه كلموا الناس بالالسنة التى يفهمونها ، واتجهوا بدعوتهم إلى غير اليهود بحيث تخلصت المسيحية من عصبية الجنس وعصبية اللغة لتكون ، فى إبان ظهورها ، دعوة ديمقراطية تحررية أساسها عالمية الدين ، وتساوى الناس جميعا أمام الله .

وأهم من ذلك أنها نظفت من أدران الصهيونية السياسية التى جرت على اليهود الويلات ، وعلى غيرهم أيضا .

٦ - الابيونيين

هم فرقة تعوذ الباحثون من اليهود والمسيحيين أن يوجزوا فيها القول أو يمروا بها مر الكرام ، مما جعل دقائق عقيدتها تكاد تخفى على محبى الاستقصاء فى هذا الميدان من المعرفة . وأهم أسباب ذلك أنها فرقة آمنت باليهودية بعض الإيمان فقط ، وآمنت بالمسيحية إيمانا جزئيا أيضا ، فسقطت بين المعسكرين وفقدت اهتمامهما جميعا .

والكلمة العبرية « إبيون » التى ينتمون إليها معناها « الفقير » أو « الوضيع » أو « المسكين » ، فهم إذن فرقة الفقراء أو المساكين . ولهذه التسمية فى تاريخ الفكر اليهودى مظهران كل منهما بعيد عن الآخر فى الزمن وفى الجوهر .

فمن المظهر الأول يقول المؤرخ اليهودى الألمانى « جريتس »[1] إنه ربما يعود إلى أيام القضاة ، أى إلى ما قبل سنة ١٠٠٠ ق.م . ففى ذلك الوقت لم يكن اليهود مستقرين فى فلسطين ، بل كانوا فى حروب مستمرة مع سكانها الأصليين من أجل هذا الاستقرار . وكانوا - وهم بعد ينفذون مخططهم فى إحتلال هذه البلاد - قد قسموا أرضها مقدما على الأسباط الاثنى عشر ، بل على أحد عشر سبطا منها فقط ، أما السبط الثانى عشر وهو سبط اللاويين عشيرة موسى وهارون فقد

---

(١) H Graetz; Histoire des Juifs, Paris 1884, p. 257 ss.

جعلت الرئاسة الدينية وقفا عليهم ، وفى مقابل ذلك لم تخصص لهم أرض يمتلكونها ، بل أعطيت لهم ثمان وأربعون بلدة متفرقة فى أراضى الأسباط الأخرى يمارسون منها سلطتهم الدينية . ولكن حدث حادث أدى إلى ظهور فرقة باسم الإبيونيين أو المساكين فى هذا الوقت المتقدم.

كان فى جبل إفرايم (شمال فلسطين) شاب عبرى إسمه ميخا ، سرق من أمه ألفا ومائة شاقل (مثقال) من الفضة ، ولكنه سمعها تلعن من سرقها فتشاءم وأعادها اليها . فنذرت المرأة الفضة ليصنع منها تمثالا للرب أحدهما منحوت والآخر مسبوك . وأقام لهما ميخا معبدا وجعل أحد أولاده يقوم بالخدمة فى هذا المعبد . وبالصدفة كان أحد أبناء اللاويين قد ترك بيت لحم وراح يهيم على وجهه شمالا يريد أن يتغرب ويعيش. فوصل إلى ميخا وعرفه أنه من اللاويين . وتستمر القصة (قضاة ١٧/ ١٠-١٣) : « فقال له ميخا أقم عندى ، وكن لى أبا وكاهناً ، وأنا أعطيك عشرة شواقل فضة فى السنة ، وحلة ثياب ، وقوتك . فذهب معه اللاوى ، ورضى اللاوى بالإقامة مع الرجل وكان هذا الشاب له كأحد أبنائه . فملأ ميخا يد اللاوى ، وكان الغلام له كاهنا ، وظل فى بيت ميخا . فقال ميخا الآن علمت أن الرب يحسن إلى ، لأنه صار لى اللاوى كاهنا » .

وعلم اللاويون بذلك فكان صداه عندهم أن بعضا منهم قـــرر أن يعيش على الكفاف ، وألا يؤجر نفسه لأحد ، ولا يتخذ الدين تجارة. وظهرت بهذا الشكل طائفة الفقراء ، تلتزم عمل الخير وسبيل الاستقامة وتنشر علم الشرع والدين بين الناس وتساعد البائس والمسكين والضعيف

ويقال أن هؤلاء المتقشفين الأول كانوا الأساتذة والموجهين لكثير من الشخصيات العبرية الشهيرة من أنبياء وكهنة وغيرهم ، فقد ذكروا أنه تخرج من تحت أيديهم الكاهن الأكبر « عِيلى » الذى أشـــرف على تربية النبي صموئيل ، بل إن هذا الأخير أيضا يعتبر من تلاميذهم ، وكذلك النبي العبرى ناثان ، والعراف جاد ، وأخيا الكاهن الشيلونى ، وعبدو الرائى ، والياهو النبي ، وكذلك إشعيا وأرميا وغيرهم من الأنبياء. وإن القـارىء فى الإصحاح الأول من سفر إشعيـــا ليشعر بأنه يكاد ينادى بشريعة الإبيونيين عندما يقول (١١/١ - ١٧) : « ما فائدتى من كثرة ذبائحكم ؟ يقول الرب . قد شبعت من محرقات الكباش وشحم المسمنات ، وأصبح دم العجول والخراف والتيوس لا يرضينى . حينما تأتون لتمثلوا أمامى ، من طلب هذا من أيديكم حتى تدوسوا ساكنى . لا تعودوا للإتيان بتقدمة باطلة . فالبخور لدى رجس ، ومستهل الشهور والسبوت ونداء المحفل لا أطيقها . إنما هى إثم وتصنع . رؤوس شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسى . صارت على ثقلا ، وقد سئمت احتمالها . فحين تبسطون أيديكم أحجب عينى عنكم ، وإن أكثرتم من الصلاة لا أستمع لكم ، لأن أيديكم مملوءة من الدماء . فاغتسلوا ، وتطهروا ، وأزيلوا شر أعمالكم من أمام عينى ، وكفوا عن الاساءة . تعلموا الاحسان . والتمسوا الإنصاف . أغيثوا المظلوم . وأنصفوا اليتيم . واحموا الأرملة». ويبدو هذا الضيق بالطقوس ، وبخاصة الذبائح والقرابين فى قول النبي أرميا (٢١/٧ - ٢٢) : (هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل ، لموا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحمها ، فانى لم أكلم آباءكم ولم آمرهم ، يوم أخرجتهم من أرض مصر ، بمحرقة ولا ذبيحة) . ويقول نفس

النبى أرميا فى الاشادة بهذه « الابيونية » القديمة (١٣/٢٠) : « رنموا الرب . سبحوا الرب . فإنه أنقذ روح المسكين (إبيون) مـــن أيدى فاعلى الشر » . وفى نفس الموضوع يقول النبى صفنيا (١٢/٣ - ١٣) : « سأبقى فيما بينك شعبا وديعا فقيرا ، فيعتصمون باسم الرب . فبقية إسرائيل لا يصنعون الاثم ، ولا ينطقون بالـكذب ، ولا يوجـد فى أفواههم لسان مكر ، لانهم سيرعون ثم يضطجعون ، ولا أحد يزعجهم» .

وخلاصة ذلك كله أن الابيونية الاولى كانت نوعـا من التصوف الذى وصل إلى تعطيل بعض أوامر الدين ، مثل الذبيحة المحرقة وذبيحة القربان . ولـكن يبدو أن روح المسالمة ، والسعى إلى النفع العام من جانب هؤلاء الابيونيين القدماء جعلهم يعيشون فى سلام مع بنى ملتهم . ويظهر أنه كانت هناك بقايا منهم عند فتح الاسكندر المقدونى لفلسطين فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . فقد جاء فى كـتابات الفيلسوف اليونانى تيوفراست ، تلميذ أرسطو ، قوله (١) إن هؤلاء اليهود شعب عجيب ، فـكثير منهم قد وهب حياته للتأمل والدرس وتعاليم خفايا الحـكمة ومعرفة الحياة والـكون . وهـذا الوصف يطابق ما تردد من نصوص قديمة حول الإبيونيين الاول .

هناك مظهر آخر وأخير لهـذه الإبيونيـة ، يتمثـل فى فرقة يهودية ظهرت على أثر انتهاء أمر المسيح عيسى بن مريم من هذه الدنيا ، فآمنت به مع احتفاظها بيهوديتها وعنصريتها العبرية ، وسمى أبنـاء هذه الطائفة

---

(١) دائرة المعارف العبرية · المجلد الاول .

أنفسهم بالاسم القديم « الإبيونيين » ، واستمرت عقائدهم قائمة إلى أواخر القرن الرابع الميلادى ، ثم انطفأت بعد ذلك . وهذه الظاهرة هى التى دعتنا إلى الحديث عنهم فى معرض حديثنا عن الفرق اليهودية التى خطت خطوات ملحوظة من المسيحانية إلى المسيحية .

وإذا كان كثير من الباحثين قد زعم أن المسيح عيسى بن مريم قد تتلمذ قبل بعثته على الإسينيين ، فإن دائرة المعارف العبرية [1] ترى فى الإنجيل آثارا من حكمة الإبيونيين ، وتستشهد بما روى عن المسيح فى موعظته على الجبل (إنجيل متى ٥/٣-٩) : «طوبى للمساكين بالروح (الإبيونيين) فإن لهم ملكوت السموات . طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض . طوبى للحزانى فإنهم يتعزون . طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى لأنقياء القلب فإنهم يعاينون الله . طوبى لصانعى السلام لأنهم يُدْعَوْن أبناءَ الله» .

وقد وردت بعض أخبار عن الإبيونيين فى كتابات آباء الكنيسة المسيحية الأول ، مثل ترتوليان وأوريجن وغيرهما ، تفيد أنهم حافظوا على الشريعة الموسوية كما هى فى التوراة بكل تفاصيلها ، ولكنهم آمنوا بعيسى المسيح إيمانا خاصا . فهم يقولون إنه ليس مخلصا سياسيا ولا دنيويا ولا ماديا ، ولكنه مسيح منقذ الأرواح ، يعلم الناس قاطبة تفاهة عرض الدنيا ومتاع هذه الحياة . جاء ليبين للبشر أنه لا خير فيمن يلهجون بكلام الله ثم يجرون وراء الثروة والجاه ، وأن الخير كل الخير فى

(١) نفس الموضع السابق .

التقوى والاستقامة وعمل مايرضى الله والناس . وهؤلاء الإبيونيين لم يؤمنوا بالمسيح على أنه أقنوم من أقانيم الثالوث المقدس : الآب والابن والروح القدس ، ولا بأن له قدرة إلهية ، بل هو بشر ورسول وعبد من عباد الله كسائر عباد الله . ولذلك فإنهم قاموا فى وجه القديس بولس عندما وضع مفهوم المسيح والدعوة المسيحية فى رأيه . وذكرت دائرة المعارف العبرية أن ترتوليان نسب اسم الإبيونيين إلى واحد من اليهود اسمه « أبين » أو « أبينا » ، وأضافت أن هذا لايعتمد على أى سند تاريخى ، وأن الوثائق لاتتضمن يهوديا بهذا الاسم أسس هذه الطائفة .

واستمر عداء المسيحين من تلاميذ القديس بولس للابيونيين ، الذين كانوا من جانبهم يتهمون هؤلاء المسيحين بخيانة تعاليم المسيح ، وتأليهه ، وجعل دينه وسيلة لاكتساب عرض الدنيا .

وكما قلنا وقع الإبيونيون بين عدوين ضاريين هما : المسيحيون على شريعة القديس بولس ، واليهود على شريعة التلمود . فكان فى ذلك فناؤهم .

٧ ـ الغنوصية الصابئة

وهم عند اليهود جماعات تتفق على القول بأن المعرفة هى الطريق إلى الله ، وكانوا يريدون بذلك معرفة المادة والروح ، أو كما يقولون إدراك علم السموات والأرض . والظاهر أنهم كانوا فى بدايتهم تلاميذ للاسينيين أيضا ، وكان ولاؤهم القوى وتعصبهم الدينى لليهودية يكفل لهم احتراما بين الناس كالذى كان يتمتع به الإسينيون . ولكنهم مع مرور الزمن وجدوا من حولهم تراثا علميا من الأمم الأخرى كالبابليين والفرس واليونان فأخذوا ماشاؤا من ذلك وراحوا يبتعدون عن اليهودية

التقليدية ، ويتخطُّون من المسيحانية إلى المسيحية هم أيضا ، على نحو جعل اليهود يمقتونهم ويعلنون تكفيرهم .

والظاهر أن هذه الغنوصية اليهودية ، مع الزمن أيضا ، تلونت ألوانا ، وتجزأت طوائف ، ربما كان منها طائفة الصابئة فى بدايتها ، وهم الذين يسمون كذلك « المندائيين » .

ولهؤلاء الصابئة دين خاص بهم تعتبرهم المسيحية واليهودية من أجله كفارا ، بينما يلحقهم الاسلام بأصحاب الديانات السماوية وأهل الذمة . ويقوم دينهم على نقاط مميزة أهمها :

١ ـ الإيمان برسالة موسى ، وهم يعملون بتوراته فى كثير من شئونهم ، وبخاصة فيما يحل ويحرم من الأطعمة .

٢ ـ يؤمنون بالله والملائكة والجن ، ويولون بعض الكواكب ، وبخاصة نجوما معينة ، شعائر تعظيم وتقديس ، الأمر الذى ترتب عليه أن يشيع بين عامة اليهود والمسيحيين والمسلمين أن الصابئة هم عبدة كواكب . يقول الأديب الفرنسى فولتير فى بعض كتاباته : « إننى أقنع برفع يدىّ إلى نجم الشمال ؛ فأنا على دين الصابئة » . (١)

٣ ـ يؤمنون بالمسيحانية ، وباليوم الآخر ؛

٤ ـ يؤمنون إيمانا مطلقا بأن يوحنا المعمدان نبى مرسل ، وأنه هو المسيح المنتظر ، ويسمونه فى كتبهم يحيى بن زكريا ، متفقين فى ذلك الاسم مع المسلمين .

ومعروف أن يوحنا المعمدان ، أو سيدنا يحيى بن زكريا ، قد ولد

---

(١) E Litiré; Dictionnaire de la Langue Française ; Paris 1883 ; tome 4 ; sub verbo Sabéen.

قبل المسيح بستة أشهر ، وكانت أمه إليصابات بنت عم السيدة مريم العذراء . وكان يوحنا يدعو إلى التطهر بالغطاس فى مياه الأردن ، ويعلن قرب مجىء المسيح . ويهدى الناس إلى طاعة الله . وكان فيما يبدو على عداء شديد للطوائف اليهودية التقليدية ، ينظرون إليه على أنه زنديق ومشاغب ومزعج للأمن ، ثم حدث أن هيرودس أنتيباس ، حاكم الجليل بشمال فلسطين تزوج من هيروديا التى كانت متزوجة من قبل بأخيه ولا تحل له ، وكان لها ابنة اسمها سالومى ، طلبت فى يوم عيد من زوج أمها أن يحضر لها رأس يوحنا المعمدان ، ويبدو أن الصبية طلبت منه ذلك بإيعاز من أمها ، لأن يوحنا كان يكثر من التشنيع على هـــذا الزواج ، ونفذ هيردوس أنتيباس الطلب ، فاعتبر يوحنا شهيدا للحق ، بل قدوة للشهداء جميعا فى المسيحية الأولى . وبالغت الصابئة فى تقديسها له فاعتبرته هو المسيح ، وكفرت بسيدنا عيسى وبالإنجيل ، وزعمت أن عيسى ليس إلا مزيفا لدعوة المعمدان ، ومغتصبا للرسالة ولصفة المسيحانية ولذلك فهم يمجدون سيدنا يحيى فى صلواتهم اليومية ، وفى نفس الوقت يصبون عكس ذلك على السيد المسيح عليه السلام .

٥ ـ أخذوا عن يوحنا المعمدان شريعة الغطاس ، واجتهاده فى القول بقدسية عقد الزواج ، بحيث يحرم الطلاق وتعدد الزوجات إلا زوجة ثانية فى ظروف خاصة ، كما أخذوا من الطقوس المسيحية القربان المقدس ، وإن كانت لهم تخريجات أخرى فى حكمة هذه الشرائع ومع ذلك فإنه يلاحظ حدوث تطور فى شريعة الزواج عندهم إذ يباح الزواج لرجال الدين ، ويباح لهم ولغيرهم الزواج باثنتين لا واحدة فى حالات معينة .

٦ - لهم أساطير دينية كثيرة ، معظمها يتعلق بالصلة بين البشر والكواكب ، كما يتعلق بعضها بالطوفان والمعصية الأولى وبداية البشر وخلق العالم ، ومن المفيد جدا الاهتمام بدراسة هذا التراث ، فبعضه قد تسرب إلى القصاصين المسلمين والمسيحيين ، ويوضع حتى الآن تحت الكلمة العامة « الإسرائيليات » .

وللمندائيين الصابئة نصوص مقدسة مكتوبة بلغة تعتبر لهجة آرامية وتسمى اللغة المندائية ، ولها حروف خاصة بها فى الكتابة تتأرجح بين السريانية النسطورية والنبطية والعبرية . وقد عرفوا بأسماء أخرى منها « الأقدمين » أو « الشيوخ » ، ويسميهم بعض اليهود « نصارى يوحنا المعمدان » ، أما « المندائيون » فتعنى « أهل المعرفة » .

ويقيم عدد منهم الآن فى العراق ، وإن كان اتصالهم بتراثهم وشريعتهم قد أصبح محدودا جدا ، كما هى الحال لدى السامريين .

وفيما عدا فرقة الصابئة يصعب جدا الإلمام بكل أصحاب الأهواء من اليهود الذين كانوا يظهرون على مدى أجيال طويلة من القرن الأول قبل المسيح إلى القرن الرابع بعده ، والذين يعتبر من أشهرهم اليهودى حزقيا ، الذى اشتهر باسم فالينتينوس القبرصى ، الذى باشر نشاطه فى القرن الثانى الميلادى والكارثة واقعة على رءوس اليهود فى أعنف صورها بيد الإمبراطور الرومانى هدريان . ولذلك لم تكن فلسفته الغنوصية ذات أثر كبير فى اليهودية من بعده وإن كانت قد أثرت تأثيرا عميقا فى المسيحية .

٨ — اليودجانيـــة

بعد أن استتب الأمر للدولة الإسلامية بجهود النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ، كانت طوائف أهل الكتاب من يهود ومسيحيين وصابئة تخضع لتشريع واضح ، تتمتع فيه بحرية العقيـــدة والثقافة وتعيش فى ذمة المسلمين وتحت حماية دولتهم . وهكذا مضت الحقب الأولى للدولة الإسلامية بدون أن تقع حوادث تاريخية جسام على الصعيد الفكرى لدى أهل الكتاب .

ولكن فى عهـــد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥ ميلادية) ظهر بين اليهود رجل اسمه أبو عيسى (عوبديا) الأصفهانى ، فادعى النبوة ، وأراد أن يكتل أبناء دينه حول دعوة جديدة تهدف إلى الحصول على كيان قومى لهم ، إلا أن دعوته لم تلق ما كان يؤمل فيه هو من نجاح .

ولكن تلميذا لأبى عيسى الأصفهانى اسمه « يودجان » قام من بعده وراح هو أيضا يدعى النبوة بين اليهود فى منتصف القرن الثامن الميلادى . وكان حظه أحسن قليلا من حظ شيخه ، فتبعه عدد من التلاميـــذ والمريدين واشتد إيمانهم به بعد موته ، حتى قالوا إنه المسيح المنتظر ، وأنه سيرجع من السماء مرة ثانية . وأطلقوا عليه لقب الراعى . وزعموا أن الزمن الذى يفصل بينه وبين النبى دانيال هو ١٣٣٥ سنة ، وأنهم وجدوا فى سفر دانيال ما يفهم منه أن المسيح سيأتى بعد هذه الفترة من الزمن . وتقول دائرة المعارف العبرية [١] إن لقب « الراعى » الذى

---

(١) المجلد الخامس.

أطلق عليه ، قد وصل إلى علماء المسلمين محرفا ، فسماه الشهرستانى « الداعى » .

وأهم ما يعرف من تعاليم يودجان التى يقال إنها نفس تعاليم أبى عيسى الأصفهانى أنهما أوصيا بالتقشف والنسك ، والإكثار من الصوم والصلاة . وجعلا تناول اللحم والخمر حراما فى وقت النسك . والظاهر أن الدعوة كانت تتضمن برنامجا للتوعية الصهيونية ، فإن يودجان وأبا عيسى أعلنا أن طقوس السبت والأعياد ليست فرضا واجب الأداء فى فترة تشريد اليهود فى الأرض ، وأن من يقوم بها إنما يفعل ذلك فقط لإحياء ذكرى شعائر السلف الأقدمين . كذلك عطل يودجان عددا من الشرائع مسببا ذلك بأنها واجبة التنفيذ فقط عندما تكون لليهود دولة فى فلسطين . وكان يرى أن تفسير التوراة يجوز أن يؤدى إلى استخراج المعانى البسيطة الظاهرة المباشرة ، كما يمكن أن تستنبط به الأسرار الباطنية الرمزية . وكانت اجتهاداته فى هذه التأويلات الباطنية شديدة الجنوح والشطط .

وفى غضون القرن العاشر الميلادى ، فى حكم الخلفاء العباسيين ، كانت اليودجانية قد تقلصت وقل عدد أتباعها وتجمعوا كلهم تقريبا فى مدينة أصفهان ، ومالوا إلى التأثر بمنهج المتكلمين المسلمين من المعتزلة . وما أن ظهرت فرقة اليهود القرائين حتى اتبعوها .

ولعل من المفيد أن نذكر ما نقلته دائرة المعارف العبرية عن الشهرستانى من قوله إن يودجان كان يهوديا من مدينة همذان ، واسمه بالعبرية يهوذا . وقد وجد علماء اليهود فى كتابات إبراهيم بن عزرا

الأندلسى قوله إن يهوذا الفارسى ألف كتابا قال فيه إن تقويم السنين عند اليهود يحسب على الشمس . فذهب هؤلاء العلماء إلى أن يودجان أو يهوذا المولود فى همذان عند الشهرستانى ، هو نفس يهوذا الفارسى عند إبراهيم بن عزرا .

وأشار الشهرستانى إلى شعبة من اليودجانية كانت تسمى «الموشكانية» نسبة إلى مؤسسها الذى كان اسمه «موشكا» . وكان هذا الرجل أشد عنفا من سابقه فقال بوجوب قتال الخارجين على الدين . ويقال إنه خرج لقتال كهذا فقتل بالقرب مدينة «قُم» بإيران .

ومن بين الموشكانية من يقولون إن محمدا صلى الله عليه وسلم نبى حق ، وأن الله أرسله إلى العرب وإلى بقية الأمم ما عدا بنى إسرائيل ، وقد اشتهر هذا الرأى أيضا عن أبى عيسى الأصفهانى .

ومن شظايا اليودجانية كذلك طائفة الشادجانية الذين تزعمهم يافث بن على ، وكانوا يقولون بإسقاط الشعائر وأحكام النجاسة والطهارة طالما شعب الله المختار يعيش مشردا فى البلاد . وقد لاحظ مؤرخو الفكر الدينى الإسرائيلى أن كل هذه الفرق والشعب يحيطها غموض كثيف جداً . حتى لقد وجد اسم فرقة أخرى هى الشاركانية التى يكاد الرأى يجتمع على أنها هى الشادجانية وأن أحد الاسمين محرف عن الآخر[1].

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، الموضع السابق .

٩ ـ القراءون

تسمية القرائين بهذا الاسم ترجع إلى أن العهد القديم ، أى التوراة والأنبياء والكتب ، كانت تسمى عند اليهود « المقرا » أى « المقروء » أو « القرآن » . وهذه الفرقة رفضت المنصات الحَبْرية ، والمرويات الشفوية ، التى تناقلها « التناءون » فى المشنا ، و « الاموراثيون » فى التلمود ، وكفرت بهـا ، وجعلت المرجع الأول والأخير فى الدين هو النص المقدس المكتوب المنزل المسمى « المقرا » ، فأصبح أتباعها يسمون لهذا السبب القرائين .

فهـذه الفرقـة إذن تأتى بعد فرقـة السامرة من حيث حدود النص المقدس المعمول به . فالسامرة كما قلنا يؤمنون بأسفار موسى الخمسة التى تسمى التوراة فقط ، ويضيفون إليهـا سفر يوشع بن نون مع التسامح والتساهل ، دون أن يؤمنوا ببقية العهد القديم من أسفار الأنبيـاء والكتب . والقراءون أوسع منهم دائرة فهم يؤمنون بهذا كله ولكنهم يرفضون ما سواه ، أما الربانيون فإن المشنا والتلمود لهما عندهم نفس القدسية التى للمقرا . ومن هنا نشأت المشاكل العظيمة بينهم وبين القرائين .

ولم تـكن هذه هى المرة الأولى التى تصطدم فيها اليهودية الجماهيرية بحملة تشكيك فى تراثها الدينى ، فالمسيحية التى حمل لواءهـا القديس بولس قد أعلنت بصراحة وحسم نهيها عن الرجوع إلى المرويات الشفوية الفريزية ، ونددت بها ، ووصفتها بالمسروق والتزييف والتدجيل ، بل أوقعت فى نفوس المؤمنين أن الشريعـة المكتوبة فى العهـد القديم قـد

أصبحت منسوخة بالعهد الجديد . وفى ذاك الوقت لم يكن نص المشنا ، فضلا عن التلمود ، قد انتهى بعد إلى الصورة المعروفة . ولما كان لكل فعل رد فعل فإن الأوساط اليهودية العلمية المحافظة قد انساقت فى تيار هذا التحدى ، فاشتد اهتمامها بالمشنا والتلمود ، ونظمت صفوفها على أن يكون ذلك هو الطابع المميز لها إلى الأبد ، وهو الملجأ الفكرى والروحى الذى تتحصن من ورائه ضد جميع الهجمات .

وفى ظل الإسلام ، والتلمود ما يزال حديث العهد بالجمع والتثبيت والتسجيل ، قام منشقون من بين اليهود أنفسهم يهاجمونه وينكرونه ، وفى متقدمتهم سيرينوس ثم أبو عيسى الأصفهانى وتلميذه يودجان من بعده . ولكن حركاتهم كانت محدودة فى الزمان والمكان والقوة مما جعلها تنقلب إلى عنصر منشط للعصبية التلمودية ، بحيث ازداد الربانيون على أثر ذلك وعيا وإمعانا فى العناية بهذا التراث والحفاظ عليه .

وحدث فى النصف الأخير من القرن الثامن الميلادى (حوالى سنة ٧٦١ م) أن توفى حاخام العراق الأكبر . ورأس الجالوت فى الدولة الإسلامية ، وزعيم المحافظين على التلمود بحكم منصبه ، وكان اسمه الجأون سليمان . ويبدو أنه لم يترك أولادا يخلفه أحدهم فى وظيفته . وكان أحق المرشحين لذلك ابن أخيه عنان بن داود . وكان صاحبنا هذا معروفا بميوله التحررية ، وبخاصة إزاء شرائع التلمود . فعارض فى انتخابه أكبر رجلين باقيين على رأس اليهود فى الدولة الإسلامية وهما : رئيس أكاديمية سورة ، الجأون الأعمى يهوداى (رأس الأكاديمية من ٧٥٩ إلى ٧٦٢) ، ورئيس أكاديمية فومبديتا ، الجأون داوداى (رأس

الأكاديمية من ٧٦٩ إلى ٧٦٤) ، واختسارا لزعامة يهود العراق الأخ الأصغر لعنان بن داود واسمه « حنانيا » .

وحدثت على أثر ذلك فتنة بين أنصار عنان وأنصار حنانيا . واستنجد أنصار عنان بأمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ليفرضه فرضا في هذا المنصب ، ولكنه آثر أن يترك الأمر لليهود أنفسهم ، وهكذا استقر حنانيا في رئاسة الجالوت . وعلى عادة اليهود من ترويج القصص والأساطير ، نجد القرائين يقولون هنا إن أنصار حنانيا سعوا ضد عنان عند الخليفة ، وأفهموه أنه يتآمر على الدولة فوضعه في السجن تمهيدا لإعدامه . وتضيف هذه الأخبار التي لا توجد عليها أية رقابة أن بعض المسلمين الموجودين معه في الحبس نصحه بأن يعلن أنه لا ينتمي نهائيا إلى هذه الطائفة من اليهود ، وأنه يخالفهم في الاعتقاد ومن أجل ذلك دبروا له تلك المكيدة . وتقول الحكاية إن الخليفة المنصور اقتنع بهذا الكلام وسمح له بالمعيشة في فلسطين هو ومن يتبعه من اليهود .

ويقول المؤرخ اليهودي الألماني جريتس[1] أن عنان بن داود قام في فلسطين بحملة شعواء ضد التلمود وأصحابه للأذى الذي لحقه منهم ، ولحقده عليهم إذ لم يرضوه رئيسا لهم ، ويضيف إلى ذلك أن عقيدته القرائية تأثرت بمذهب الشيعة المسلمين الذين كانوا يقفون في وجه أهل السنة في ذلك الوقت . وكلام جريتس هذا فيه خطأ وخلط كثير ، ربما دعاه اليه تعصبه الشديد ضد القرائين ، فهو مؤرخ اليهودية التلمودية وداعيتها الأكبر في العصر الحديث ، إلى جانب كرهه الأصيل للمسلمين وجهله بالإسلام .

---

(١) نفس كتابه السابق ، المجلد الثالث ، ص ٣١٨ .

فمن المعروف أن المتكلمين المسلمين فى هذا القرن الثامن الميلاد بالذات كانوا فى منتهى النشاط ، ولم يكن الأمر إذ ذاك مقصورا على النضال الفكرى والدينى والسياسى بين السنة والشيعة ، بل كان هناك ما هو أهم من ذلك ، كان هناك المعتزلة المسلمون الذين تزعمهم إمامهم واصل بن عطاء المولود سنة ٦٩٩م فى المدينة المنورة والمتوفى بالعراق سنة ٧٤٨م ، أى قبيل حركة عنان بن داود ببضع سنين . وقد كان من أهم ميول المعتزلة فيما يتصل بأصول الدين ، عدم الأخذ بالحديث ، والتحرج من اعتباره مصدرا أساسيا للتشريع الاسلامى وكانت حجتهم فى ذلك أن كتاب الله ، القرآن ، يستغنى بنفسه عن التكملة بشىء آخر فقد جاء فيه « مافرطنا فى الكتاب من شىء » . وكانوا يشيرون دائما إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى الصحابة أكثر من مرة عن كتابة الحديث ، حتى لايختلط بما يكتبونه من القرآن ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يراه ضروريا للتشريع لأمر بكتابته كما أمر بكتابة القرآن . وكان المعتزلة يضيفون إلى ذلك أن رواة الحديث قد شاع فيهم الضعفاء والكذابون وغير المدققين بحيث أصبح القليل منه جديراً بالتوثيق ، وهذا القليل الصحيح لايكاد يضيف جديدا إلى ماجاء به القرآن الكريم . وقصارى القول إن المعتزلة وقفوا من المرويات الشفوية الإسلامية موقف الحذر الشديد ، وهو موقف يختلف تماما عن مناهج الشيعة والسنة فى الأخذ بالحديث والآكثار منه .

فالأقرب إلى المعقول هو أن يكون عنان بن داود قد أخذ وجهة النظر الاسلامية هذه عن الفرقة الجديدة المتألقة التى تجمع من حولها كل المتطلعين إلى التخلى عن الجمود ، وفى تحكيم العقل فى ذلك العصر ، وهى

فرقة المعتزلة - لا الشيعة . وكان الأمر أمام عنان سهلا واضحا ، فإن مرويات التلمود تختلف عن الحديث الشريف فى أنها لاترتفع أبدا بسند متصل إلى موسى أو من بعده من الأنبياء ، وفى أنها تتناقض تناقضا صارخا فيما بينها ، وكذلك فيما بينها وبين التوراة . ولذلك قلنا إن الحقد على الربانيين لم يكن وحده السبب الأساسى ولا السبب الأول لحركة عنان ولو كان الحقد وحده هو الذى دفعه إلى أن يعمل شيئا لكان اعتنق الإسلام مثلا ، ولأمكنه بعد إسلامه أن ينكل بالحاخامين فكريا وسياسيا أيضا . كان الرجل تلميذا للمعتزلة ومتأثرا بموقفهم فى الإسلام من الحديث ، وذلك هو جوهر رفضه للتلمود .

والذى جعل الحركة القرائية تبدو خطيرة فى عين اليهودية الجماهيرية هو تبحّر زعيم القرائية فى التلمود وكثرة رجوعه إلى نصوصه بقصد تنفيده رهدمه . كذلك رجع إلى الكتابات القديمة التى تنكرت للعقلية التلمودية ، كالإنجيل والقرآن ، وقال إن عيسى بن مريم ليس زنديقا كما يدعى الفريزيون ، وأنه لم يشوّه التوراة ولم يكذبها أو ينسخها ، وأنه كان رجلا من البشر ، من بنى إسرائيل . تقيّا صالحا ، لم يفكر قط فى النبوة أو الألوهية ، بل كان مصلحا ، يريد أن يخلص شريعة موسى من المفاهيم المنحرفة التى ألصقها الناس بها .

ونادى عنان كذلك بأن محمدا نبى حق ، وأنه كعيسى بن مريم لم يفكر قط فى مخالفة التوراة ، أو التعدى عليها ، أو نسخ شرائعها .

واشتد الصراع بين الربانيين والقرائين ، فأعلن رؤساء كل طائفة تكفير الطائفة الأخرى ونجاستها وحرمانها من رحمة الله ، ومنعوا الصلاة

كل منهم فى معابد الآخر ، وحرموا كل مشاركة دينية أو شعبية من قبل أية طائفة من الطائفتين مع الأخرى ، من الأكل على مائدة السبت أو الأعياد إلى الزواج الذى حرم نصا بين الطائفتين .

وجرت اليهودية الربانية على تسمية القرائين بالأسماء التى كانوا يطلقونها قديما على الصدوقيين وغيرهم من الطوائف الخارجة ، فسموهم « مينيم » أى الزنادقه أو الكفرة ، وكذلك « أبيقوريم » أو « أبيقورسيم » أى الأبيقوريين ، نسبة إلى هذه المدرسة الفلسفية اليونانية الوثنية التى شاع عنها عند عوام اليهود الميل إلى الإنحلال واللاأخلاقية . وأوصوا كل الأئمة أن يندددوا بهم من على المنابر فى المعابد ، وأن يهاجموهم ويثبتوا تكفيرهم .

ولم يقصر القراءون من جانبهم فى فضح الربانيين والسخرية منهم حتى فى تفسيرهم للكتاب المقدس . فهناك مثلا قصة فى سفر زكريا تقول (زكريا ٥/٥ - ١١) : « وخرج الملاك الذى كلمنى ، وقال لى أرفع عينيك وانظر ماذا يخرج . فقلت ماهو ؟ فقال هذه هى الإيفة [١] خارجة ثم قال هذه عينهم فى كل الأرض . وإذا بقنطار رصاص قد رفع ، وبامرأة جالسة فى وسط الإيفة . فقال هذه هى الخبث ، وألقاها فى وسط الإيفة وألقى كتلة الرصاص على فمها . ورفعت عينى ونظرت ، وإذا بامرأتين خرجتا والريح فى أجنحتهما ، ولهما أجنحة كأجنحة اللقلق، فرفعتا الإيفة بين الأرض والسماء . فقلت للملاك المتكلم معى إلى أين

---

(١) الإيفة فى اللغة العبرية مكيال للحبوب كبير الحجم.

هما ذاهبتان بالإيفة ؟ فقال لى لو لتبنيا لها بيتا فى أرض شنعار ، فإذا تهيأ ترسى هناك على قاعدتها » . ويقول القراءون إن هذه الإيفة ، وهى وعاء المكيال الكبير الذى جلس فيه الخبث فى صورة امرأة على فمها كتلة من الرصاص ، هى الشريعة التلمودية . وأرض شنعار كما هو معروف هى بابل أو العراق ، والمرأتان اللتان تطيران بالخبث لإقراره هناك هما أكاديمية سورة وأكاديمية فومباديتا . منذ أن ظهر هذا التفسير جرى عرف القرائين إذا تحدثوا عن الأكاديميتين التلموديتين أن يقولوا عنهما باختصار « المرأتان » .

وبعد موت عنان اعتبره القراءون قديسا ، وجعلوا له دعاء خاصا فى صلواتهم : « رحم الله الأمير عنان ، رجل الله ، الذى مهد طريق التوراة وفتح عيون القرائين ، وأبعد عن المعصية عددا كبيرا من إخوته ، وبين لنا سواء السبيل . فليجعل الله له مكانا مرموقا بين السبعة المختارين لدخول الجنة [1] » وقد تولى رئاسة الطائفة بعد موته إبنه شاؤل .

ومع الزمن ظهرت فى مجتمع القرائين مدارس علمية قوية اهتمت بدراسة اللغة العبرية ، وكان من أشهرهم فى القرن العاشر الميلادى أبو سليمان داود بن ابراهيم الفاسى ، مؤلف قاموس التوراة الكبير الذى يشرح فيه ألفاظ الكتاب المقدس العبرى باللغة العربية ، واسمه كتاب « جامع الألفاظ » ، أو « الأحرون » ، كما ظهر من بينهم محققون لقراءة الكتاب المقدس ، ومفسرون له ، تراكمت تفاسيرهم من الزمن حتى إنه يروى عن عنان أنه قال لأتباعه « اتركوا نهج المشنا والتلمود ، وأنا

---

(١) دائرة المعارف العبرية — المجلد التاسع .

أصنع لكم تلمودا من عندى » . [1]

ومن أقطاب الفكر القرائى بنيامين بن موسى النهاوندى ، ومن بعده دانيال القومسى - أو الوجانى ، الذى خالف شريعة عنان فى بعض المسائل فى أخريات أيامه ومنهم أيضا ابن ساقويه صاحب كتاب « الفضائح » الذى هاجم فيه المشنا والتلمود والربانيين .

وتولى زعامة القرائين فى القرن العاشر الميلادى يعقوب القرقسانى ، وكان متبحرا عالما كما كان معاصرا لواحد من عباقرة الربانيين هو سعديا سعيد بن يوسف الفيومى ، فعاد الجدل إلى نشاطه فى أيامهما ، وكتب سعديا كتابه المشهور « الرد على عنان » ، كما أنه ألف فى عقائد اليهود على مذهب الربانيين « كتاب الأمانات والاعتقادات » ، الذى تأثر فيه من جانبه هو أيضا بمذهب المعتزلة المسلمين . وكان فى ذلك الزمن واحد من أكبر المتطرفين القرائين هو سلمون بن يروحم . وقد لقى من القرائين احتراما كبيرا جدا لشدة مهاجمته للتلمود وأصحابه : ومنهم فى هذا الجيل أيضا حسون بن مشيح ، وكان مفسرا للتوراة ، شديد الجدل . ويقال إنه كان يرجع إلى بعض التراث الذى بقى من فرقة الصدوقيين القديمة ، فقد كان يذكر فى كتاباته ما يسمى باسم « كتاب الصدوقية » .

ومن أئمتهم المعروفين أيضا داود بن بوعز الذى يلقبونه بلقب الرئيس وله تفاسير على أجزاء من التوراة ، كما ألف كتابا فى أصول الدين

---

(١) نفس المصدر

سماه «كتاب الأصول» وفى القرن الحادى عشر الميلادى ازدهرت مدرسة قرائية تخرجت على يافث بن على اللاوى وسهل بن مصلح ، وكان منها ليفى بن يافث اللاوى ، ويوسف بن إبراهيم الراعى ويشوعا بن يهوذا وقد خرّج هذا الأخير على يديه تلميذين نشرا المعتقد القرائى فى الإمبراطورية البيزنطية ، أحدهما هو طوبيا بن موسى المترجم ، وكان متطرفا شديد الجدل مع الربانيين ، والثانى هو يهوذا هاداسى مؤلف كتاب «مجمع المطور» (إشكول هكوفر) الذى يحتوى على أهم وأندر شروح القرائين الأولين.

واستمرت حركتهم العلمية نشيطة حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادى ، ثم جمدت بعد ذلك مع وصول الوعى الثقافى والقومى الأوروبى إلى إلى أعدائهم الربانيين ، بينما استمروا هم مرتبطين بمصير الشرق الذى ظهرت فيه مدرستهم وكان الجمود قد خيم عليه . فأكثر القرائين كانوا يقيمون فى مصر والشام وتركيا والعراق وإيران وبعض أجزاء من روسيا وأوروبا الشرقية . وكان الحكم التركى والقيصرى والإيرانى فى حال من التخلف والظلام جعل القرائين اجتماعيا ودينيا وفكريا يعانون نفس الأزمة التى يعانيها العرب والمسلمون ، فضلا عن قلة عددهم بالنسبة لليهود عموما .

ولكن القرون السابقة على القرن السابع عشر قد احتفظت للقرائين، بعد الطبقات الأولى من علمائهم الذين سبقت الاشارة إليهم بأسماء شهيرة جديرة بالذكر ، مثل الياهو بن ابراهام ، وهارون بن يوسف الذى وضع صيغة كتاب الصلوات القرائية فى شكله النهائى ، وكان طبيبا عالما عاش بالقسطنطينية ، والقراءون يذكرونه بلقب الشيخ . كذلك اشتهر من بينهم هارون بن الياهو النيقوميدى ، والياهو بن موسى بن مناحم

الذى كان قد تتلمذ على بعض الربانيين فى بداية حياته ، مما أتاح له أن ينبغ فى الفقه القرائى ، هو وصهره الذى تتلمذ عليه اليـــاهو بن كالب أفندوغلو .

تقلص ظل القرائين فى العصر الحديث ، مع انتشار اليهود الربانيين بعددهم الكبير فى أوروبا وأمريكا وكثير من البلاد التى استعمرها الغرب فى أفريقيا وآسيا ، مما أدى إلى الوصول إلى مستـوى حضارى ومالى وسياسى لايستهان به من جانب مجتمع الربانيين ، بينما ظـل القراءون منكمشين فى الشرق ، يعيشون حياة بعيدة عن الآراء الواسع أو الأهمية السياسية الخطيرة . وقد أدى هذا الفرق الكبير فى العـــدد والثروة والمستوى الفكرى والأهمية السياسية إلى ما يشبـــه أن يكون سحقـا للقرائين على يد الربانيين .

وتأكد ذلك مع ظهور الصهيونية ، فالوطن اليهـــودى فى فلسطين كان يخططه ويعد العدة له يهود كلهم ربانيون ، ولم يـكن فى تفـكيرهم الواعى ولا فى عقلهم الباطن أى حساب للقرائين . وهكذا كانت الطائفة القرائية منذ البداية معادية للصهيونية نافرة منها ، وما تزال كذلك حتى الآن ، لأنها ترى فيها أكبر خطر يهددها وهو استيلاء الكفرة الربانيون الأعداء على كل مقدسات إسرائيل . وكان للقرائين فى تركيا وروسيا ومصر نشاط ملحوظ ضد الصهيونية ، ولـكن هـذه الأخيرة استعانت بالجواسيس والعملاء ، واستغلت ظروفا حربية وسياسية معينة لاصطياد بضعة آلاف من القرائيين وإدخالهم إلى إسرائيل . وهم يعيشون هناك كرهائن ، وكوسيلة للمساومات الداخلة مع من بقى من القـرائين خارج

هذا الشرك ، إذ أرغمتهم الصهيونية على التزام الصمت والكف عن مهاجمتها حرصا على حياة أبناء الطائفة فى إسرائيل وأمنهم .

وشريعة الربانيين فى التلمود تغذى حقدهم على القرائين ، فقد قلنا مثلا إنها تحرم الزواج منهم ، وإذا حدث تعتبره زنا ، وتعتبر الأطفال المولودين منه غير شرعيين ، ولا ينتمون إلى شعب الله المختار . وقد أفتى بعض الربانيين ، ومنهم سعديا الفيومى ، برفض عودة القرائى إلى مذهب الربانيين ، على اعتبار أنه مرتد عن الدين ، بينما رأى آخرون أن القرائى ، بما أنه ليس يهوديا ، يمكنه الدخول فى دينهم على أساس أنه غريب من « الجوييم » مع كل ما يترتب على ذلك من تحديد فى الحقوق المدنية والشرعية ، وحرمان هذا المعتنق الجديد من أن يصبح يهوديا من بنى إسرائيل بالحظ الكامل . وفى كل المعاملات المالية ، وكذلك فى الطعام والشراب يعتبر القراءون « جوييم » ، وقد منع بعض الفقهاء مع ذلك اقراضهم المال بالربا ، على أساس أنهم يؤمنون بموسى وتوراته ، ويحترمون السبت فلهم فى ذلك ما لسائر اليهود عن حقوق وهو منع الربا معهم . وأفتى البعض بأن الربانى يقترض من القرائى بدون ربا ويقرضه بالربا .

ووصلت العداوة وتهم التكفير بين الفريقين إلى حد أن الحاخام الربانى البيزنطى كبسالى ، الذى عاصر دخول الأتراك إلى القسطنطينية ، نهى أن يعلم أحد الربانيين التوراة لقرائى . كما أنه يحرم على الربانيين أن يقرأوا فى نسخة من التوراة كتبها أحد القرائين ، حتى ولو كانت صحيحة ، على أساس أنهم غير طاهرين .

كل هذه العداوة الشديدة تثبت شيئا واحدا وهو أن اليهودية الجماهيرية الربانية لم تصطدم بحركة فكرية ودينية - بعد المسيح عليه السلام ودعوته - أخطر على الفكر الإسرائيلي العام من حركة القرائين ، التي استمدت عناصر قوتها ورسوخها من المناهج الاسلامية ثم انطوت مع الانطواء السياسي للفكر العربي أيضـــا في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث .

والآن ، هل تنتفض القرائية وتنهض من جديد ؟ هذا أمر مستبعد تحت الثقل الساحق للربانية وصهيونيتها ، ولكن ربما أثر المذهب القرائي في الفكر اليهودي العام بحيث تتولد من هذا التفاعل اتجاهات أكثر تعقلا .

١٠ — المارانوس

هم طائفة من اليهود ظهرت في إسبانيا والبرتغال منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي ، عندما قـــوى أمر المسيحية الكاثوليكية في تلك البلاد ونجحت في طرد المسلمين وإزالة الإسلام منها . ولما كان اليهود قد عاشوا في ظل الحضارة العربية بالأندلس معيشة لعلهم لم يروا مثلها رخاء وحرية وتقدما لا على أيام سليمان وداود ولا في دولة إسرائيل الصهيونية المعاصرة ، فإنهم من جانبهم كانوا على ولاء صادق للعرب والمسلمين في هذه البلاد مما جر عليهـــم الويلات من جانب المسيحية الكاثوليكية . فقد ظهرت كما نعلم محاكم التفتيش المشهورة التي كان هدفها محو كل ما هو غير مسيحي كاثوليكي هناك . وكان اليهود فريسة سمينة وسهلة ، لانعدام من يحميهم ، ولتجمعهم في قرى وبلاد وأحياء خاصة بهم . كان الكاثوليك يهاجمونهم في مواطنهم هذه فينهبون ويسلبون ، ثم

يأخذون كتبهم وأدواتهم الدينية المختلفة فيجعلونها كومة كبيرة فى ميدان عام ويشعلون فيها النار بين تهليل الجماهير وصياحهم وسرورهم ، وكان هذا المنظر يتكرر بصورة عادية حتى أصبح يسمى فى تاريخ الاضطهادات اليهودية باسم «أوتودافعى» أى الإحراق بالنار ، وكان أحيانا يؤتى باليهود أنفسهم مكبلين بالقيود فيطرحون فى هذه النار أيضا . وفى بعض الظروف كان يعرض عليهم أولا اعتناق المسيحية ، فمن أبى منهم قتل ومن قبل ذلك نجا بحياته . وقد بدأت هذه الاجراءات فى إسبانيا منذ عام ١٣٩١ ميلادية ، وكان هؤلاء اليهود المتنصرون يسمون بالاسبانية «كونفيرسوس» بمعنى المعتنقين للدين ، وكان البرتغاليون يسمونهم «كريستاوس نوفوس» يعنى المسيحيين الجدد [١] .

وقد عز على بعض هؤلاء اليهود المتنصرين أن يتركوا ديانتهم القديمة بالقوة ، فاتفقوا سرا فيما بينهم على أن يعيشوا فى بيوتهم وفى المجتمع مثل الكاثوليك تماما ، وأن يبنوا فى الأحياء التى يعيشون فيها معابد شكلها الخارجى كالكنيسة الكاثوليكية بكل ما يمكن أن تحتوى من أجراس وصلبان وصور وتماثيل . حتى إذا اجتمعوا فى داخلها عادوا يهود كما كانوا ، يتعبدون حسب الطقوس الإسرائيلية . لذلك يسمون عند اليهود «أنوسيم» وهى كلمة عبرية معناها «المضطرين» أو «المكرهين» أو «المغلوبين على أمرهم» ، وواضح من مجرد هذه التسميات أنهم كانوا موضع عطف من سائر اليهود ، لأنهم على الأقل بهذه التسمية قد التمسوا لهم العذر .

---

(١) دائرة المعارف العبرية . المجلد الثانى ، تحت لفظة (أنوسيم) .

أما كلمة « مارانوس » فقد اختلف فى أصلها ، قيل أنهما تحريف من كلمتين تبدأ بهما صلاة مسيحية بالآرامية ، هما « مَارَنْ آث » ومعناها « أنت مولانا » والخطاب بهما موجه إلى المسيح . وكان محتوما على اليهودى الأندلسى الأصل أن ينطق بهما كثيرا لإبعاد الشبهة عن نفسه ، ثم أصابهما التحريف فصارتا « ماراناس » ثم مارانوس .

وهناك رأى آخر هو أقرب إلى المعقول خلاصته أن « مارانو » باللهجة العامية الإسبانية القديمة كان معناها «الخنزير» ، فتكون «مارانوس» صفة ذم لكل الذين دخلوا الدين المسيحى وهم غير أوروبيين ، ولا ينحدرون من أصول لاتينية ، كاليهود مثلا ، ويكون المراد وصفهم بأنهم خنازير . والذى يقوى ذلك أن الذين بقوا من العرب فى الأندلس بعد قيام المسيحية هناك ، ودخلوا فى هذا الدين كانوا ، هم أيضا ، يسمون « مارانوس » وعلى كل حال فان كلمة « مارانوس » أصبحت فى الإسبانية والبرتغالية والفرنسية تعنى المنافق ، والخائن ، والدنىء ، واللص ، والكذاب ، ونحو ذلك من صفات اللؤم والخسة .

عاش المارانوس فى خليط عجيب من الطقوس يظهرون النصرانية ويبطنون اليهودية ، وكان بعضهم مع ذلك لا يستطيع أن يستر احتقاره للدين الجديد ، فمن ذلك ما روته دائرة المعارف العبرية من أن أحد هؤلاء المارانوس اضطر إلى حضور الصلاة فى كنيسة كاثوليكية حقيقية ، وعندما كان المصلون يمثلون أمام تمثال المسيح على الصليب سمع هذا اليهودى يتمتم فى سره قائلا : « واسفاه . من الذى يرى هذا ويستطيع الايمان به ؟ » فسمعه بعض الحاضرين وذهب يشكوه إلى أمير أشبيليه .

وكان بعض المشرفين على محاكم التفتيش موجودا فقال للأمير : إذا شئت أن تتأكد من أن المارانوس هم أولا وقبل كل شيء يهود ، فلنصعد معا ليلة السبت إلى القلعة وننظر ، وسوف تستطيع وأنت ترى شموع السبت على الموائد أن تعرف بيوت المارانوس من غيرهم . وكان يقال أن لهذه الطائفة حاخامين مستورين وجزارين يذبحون لهم اللحم ويوزعونه سرا ، ونحو ذلك من مظاهر الحرص على إقامة الشريعة رغم الصعاب والعقبات [1] .

وقد جر عليهم ذلك السخط والاضطهاد كالذى حدث فى طليطلة سنة ١٤٤٩ ، وسنة ١٤٦٧ من قتل وسلب ونهب واحراق لبيوت المارانوس. وحدث فى قرطبة مثل ذلك سنة ١٤٧٣ ، ثم انتشر هذا السخط فى نفس السنة والسنة التى تليها فعم بلادا أخرى من إسبانيا . وفى البرتغال اشتعلت روح الغضب ضد المارانوس فى لشبونة سنة ١٥٠٦ فقتل منهم عدة مئات فى يوم واحد . وكان تعرض الطائفة لتلك الحملات الوحشية مدعاة إلى العطف عليهم كما قلنا ، فقد وجد فى كتاب خاص بصلوات الأعياد اليهودية فى روما يرجع إلى سنة ١٤٤١ ، دعاء هو « لترحم الحضرة الإلهية إخواننا المكرهين من إسرائيل المتروكين فى الضيق والأسر، ولتعطف عليهم ، ومن أجل اسمه العظيم يخلصهم ويخلصنا ويخرجهم ويخرجنا من الضيق إلى الفرج ومن الظلمة إلى النور ونحن نقول آمين ».

وقد اختلفت نظرة الفقهاء اليهود إلى المارانوس ، ففقهاء العصور

---

(١) جريتس : فى كتابه تاريخ اليهود ، المجلد الثالث .

الوسطى اعتبروهم مكرهين على أمرهم ، وليس عليهم ذنب ولا حرج ، ويعتبرون من بنى إسرائيل فى كل الحقوق والواجبات . أما المتأخرون من فقهاء اليهود فإن معظمهم مال إلى إعتبارهم فرقة من الخوارج ،ليسوا من بنى إسرائيل بل من « الجوييم » . ويبدو أن الأمر لا تناقض فيه فهؤلاء المارانوس كانوا فعلا فى العصور الوسطى مكرهين على أمرهم ، لكن فى العصر الحديث أعلنت حقوق الإنسان ، وشاع إحترام المعتقدات الدينية للآخرين بين الناس ، وهوجمت كل أنواع التعصب الدينى والعنصرى فى العالم ، لايشذ عن ذلك إلا بعض المتخلفين فكريا كأنصار الصهيونية بين اليهود وأعداء السود بين الأمريكان وما إلى ذلك وبالتالى فإن المارانوس قد أصبح فى إمكانهم أن يعودوا إلى الدين اليهودى ظاهرا وباطنا وسرا وعلنا ، وأن يتركوا الواجهة المسيحية التى كانوا يتخفون وراءها ، ولكنهم لم يفعلوا ، فأصبحوا مستمرين فى هذة البدعة بمحض إختيارهم وحريتهم ، وصار إعتبارهم من المارقين أمرا منطقيا .

١١ - الدونمة او الدومنة[1]

وهى فى الشرق تقابل المارانوس فى الغرب مع خلاف جوهرى هو أن هذه الفرقة لم تكن مكرهة على أمرها ، وأنها تتخذ الإسلام واجهة تخفى وراءها يهوديتها ، وقد أشرنا سابقاً إلى أنهم أتباع المسيح الكذاب

---

(١) كلمة من تركيب تركى عامى ، مركبة من «دو» أى اثنين (فارسية الاصل) و« نمة» أو «منه» بمعنى نوع ؛ أى الفرقة القائمة على نوعين من الاصول • النوع اليهودى • والنوع الاسلامى . ولذلك عدل أبناء هذه الفرقة تلك التسمية كما سنرى، وسموا فرقتهم «المؤمنين» و «الرفاق »و «المجاهدين» .

« شبتاى صبى » ، المولود فى أزمير سنة ١٦٢٦ والمتوفى فى ألبانيا سنة ١٦٧٥ ، وكان أبناؤها وما يزالون يعيشون فى تركيا ويطلقون على أنفسهم أسماء ضخمة مثل « المؤمنين » و « الرفاق » و « المجـــاهدين » أما طوائف اليهود الأخرى وخصوصا الربانيين فيسمونهم « مينيم » أى الكفار

وهم يسترون عن الناس كل ما يثبت أنهم يهود ، لدرجة أنهـــم يتسمون بأسماء إسلامية لايستعملونها فى بيوتهم ولكن فى الحياة العامة فقط . وهم يستعملون العبرية فى صلواتهم ، والتركية فى حديثهم ، وإن كانت العبرية تشرف على الموت الآن فى مجتمعهم .

وهم شديدو المحافظة على تراث زعيمهم شبتاى صبى وتعاليمه . ومن أهم هذه التعاليم :

١ ـ الزواج سنة واجبة ، وهو غير ممكن إلا بين رجل وامرأة من أبناء الطائفة ذاتها .

٢ ـ تعدد الزوجات محرم عليهم .

٣ ـ يستحسن عقد الزواج يوم الاثنين أو الخميس .

٤ ـ ينعقد الزواج على يد رئيس الطائفة الذى يبـــارك العروسين سبع مرات ، ثم تتم الزفة باللغة العبرية بالموسيقى والغناء .

٥ ـ شريعة الختان قائمة عندهم ومفروضة كما عند اليهود ، وكان الختان يتم فى اليوم الثامن من مولد الطفل فى بداية ظهور الطائفة ، ولكنهم تساهلوا فى ذلك حتى لايلفتوا اليهم أنظار المسلمين ، فأصبحوا ينفذون الختان فى موعد أقصاه العام الثالث من مولد الطفل ، وأباحه بعضهم حتى العام الثامن .

٦ ـ لهم مدافن خاصة ، وتختلف مراسم الحداد عندهم عنها لدى اليهود ، فهى تشبه ماتعوده المسلمون ، إذ يحضر الحاخام إلى البيعة ويتلو ما تيسر من الأدعية والصلوات على روح الميت . وهم يقيمون العزاء على الميت يوم وفاته ، وبعد أسبوع ، وبعد شهر ، وفى يوم الأربعين ، وبعد ثلاثة أشهر ، وبعد تسعة أشهر ، وفى ذكرى السنة . وتنتشر فى أدعيتهم وصلواتهم غير المأخوذة من الكتاب المقدس اللغة اليهودية الاسبانية « اللادينو » . وعددهم الآن آخذ فى التضاؤل نظرا لقلة مواليدهم ، وعدم الاهتمام الفكرى بهم من جانب اليهودية العالمية وبخاصة لأنهم يرفضون الإيمان بالتلمود أيضا ، كما يرفضون الاعتقاد فى مسيح مخلص آخر غير زعيمهم شبتاى صبى الذى ينتظرون عودته حتى الآن .

وكانوا فى البداية منقسمون إلى طوائف كثيرة منهم الأزميرلية ، والقنيبلية ، واليعقوبابية (نسبة إلى يعقوب الكريتى المتوفى سنة ١٦٨٧) . وهذه الشعبة الأخيرة هى أكثر طوائفهم اندماجا فى الحياة التركيةالعادية، وقبولا لمظاهر التقدم التركى العثمانى حتى أن الاتراك كانوا يسمونهم «طربوشلو» أى أصحاب الطرابيش كما كان زعيمهم يسمى يعقوب أفندى ، وأكثر بقايا الدونمة الآن من هؤلاء .

وقد انتشرت تعاليم شبتاى صبى فى أوروبا الشرقية أيضا ، فأخذها يعقوب فرنك لكن بعد أن أبدل المظهر الإسلامى بمظهر مسيحى وحظيت ببعض الانتشار فى أوروبا الشرقية تحت اسم الطائفة اليهودية «الفرنكية».

١٢ ـ الاصلاحيون (الريفورميست) او المجددون

وهذه الفرقة اليهودية لايمكن الحديث عنها منفصلة عن شعبة من اليهودية التقليدية هي شعبة المتصوفين «الحسيديم» ، وهم الذين وصلوا باليهودية المظلمة ربيبة الجتو إلى أقصى درجات الدروشة ، والتعلق بالبدع والخرافات ، وادعاء فعل الخوارق والمعجزات ، وعلم الغيب ، ونحو ذلك من من مظاهر الدجل التى تلازم انحطاط الفكر الدينى ، فى كل الأديان ، وجموده . وقد انتعشت هذه الحسيدية فى منتصف القرن الثامن عشر على يد حاخامين من المتبحرين فى الطرق الصوفية السرية الباطنية «القبالة» وفى مقدمتهم إسرائيل بعل شيم طوب وزلمان ملودى المعروف باسم زلمان شنيئورزون وكلاهما من منطقة الحدود الروسية البولونية ، وقد علا شأن أولهما فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وحوالى سنة ١٤٧٠ بالتحديد ، والثانى فى أواخر نفس هذا القرن وأوائل الذى يليه ، فقد مات سنة ١٨١٢ .

وفى نفس الوقت الذى كادت هـــذه الحسيدية تسيطر على أرواح اليهود فى أوروبا الشرقيـة وجزء من أوروبا الغربية ، وعلى أجسامهم وأموالهم أيضا ، كان رقى العلم والثقافة فى أوروبا ، وظهور القوميات المستقلة ، وتألق نظريات الحرية الفردية وحقوق الانسان ، قد أتاح لبعض الشباب اليهودى أن يأخذ بنصيبه من العلوم الحديثة ، وأن يدخل مع الانسانية المتقدمة من أبواب المعرفة نحو وعى أكثر رصانة وأصح تكوينا من هذه الانعزالية اليهودية وكانت طلائع ذلك فى حركة الوعى الفكرى اليهودى التى عاصر الحسيدية وكانت تسمى «الهسكالاه» أى التفهم واليقظة والنهضة .

وانبثقت حركة الاصلاحيين من داخل الهسكالاه على يد موسى مندلسون (بن مناحم) ، الذى ولد فى ديسوى بألمانيا فى ٦ سبتمبر سنة ١٧٢٩ ومات فى برلين فى ٤ يناير سنة ١٧٨٦ . وكانت له آراء جديدة على اليهود من الناحية السياسية والانسانية العامة هى التى تعتبر دستورا لهذه الفرقة وخلاصتها :

١ - أن اليهود يجب أن يندمجوا فى إنسانية العصر ، وأن يخرجوا من قوقعة العنصرية التى حبسوا أنفسهم فيها طيلة قرون طويلة .

٢ - أن اليهودية دين فقط ، وليست جنسية ، وأنه من الخطأ أن أقول « يهودى إنجليزى » أو « يهودى روسى » ... الخ ، والأصح أن يقال إنجليزى متدين باليهودية ، وروسى متدين بها ، وهكذا .

٣ - أن المساواة فى الحقوق المدنية بين اليهود وغيرهم غير ممكنة إلا إذا اعتبر اليهود أنفسهم مواطنين فى البلاد التى يعيشون فيها .

٤ - لايمكن ذلك إلا إذا تحدث اليهود بلغات أوطانهم ، وتعلموا فى مدارسها ، وحاربوا فى جيوشها ، ولبسوا من الملابس مايشبه بقية المواطنين ، وخرجوا من الجتو وأقاموا مع غيرهم من الناس .[١]

وكان من أشد الاصلاحيين اقتناعا بهذا البرنامج إسحق صموئيل ريجيو ، وهو يهودى إيطالى ولد فى جوريتس بمقاطعة إيليريا سنة ١٨٧٤ ، وتوفى بها فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٥٥ . وكان يقول عن ضرورة التخلى عن العنصرية التعصبية القديمة عند المطالبة بالحقوق المدنية : « كيف

---

(١) جريتس - تاريخ اليهود ، المجلد الخامس .

نطلب شيئا لانستطيع لو أننا نلناه ، أن نستعمله ؟ وكيف نبرر أنفسنا أمام الأمم إذا كنا نثبت بسلوكنا كل يوم أن استمرارنا فى التدين يتعارض مع التمتع بالحرية والمساواة ».

ولما كانت فرقة الإصلاحيين هذه قد قامت كرد فعل طبيعى لقرون التزمت والظلمات والدروشة ، فان أصحابها كرهوا المشنا والتلمود ، مشبهين فى ذلك السامريين والصدوقيين والقرائين والدونمة ، وجعلوا منبع التشريع الوحيد هو الكتاب المقدس . إلا أنهم اختلفوا عن هذه الفرق القديمة فى ميلهم إلى التساهل والتسامح والتيسير ، فكانوا يأخذون الأحكام فى أبسط إمكانيات التفسير وأقلها قسوة على الناس عند التطبيق . وكان عدوهم اللدود هو كتاب « شولحان عاروخ » الذى جمع فيه الربى يوسف كارو جميع الشرائع والأحكام والفتاوى والتفريعات الواردة فى المشنا والتلمود ، وأصبح هو المعتمد عند المتحذلقين من اليهود . كان الاصلاحيون يعتبرونه رمزا للجمود والتأخر ، والعقبة التى تحبس الشعب الاسرائيلى عن السير فى طريق التقدم الإنسانى ، فكرهوه هو وكل مايشبهه من الشروح والحواشى والمناقشات والمجادلات .

وإذا كان موسى مندلسون لم يغير بنفسه شيئا من الشرائع والطقوس التقليدية القديمة ، فان أتباعه ومريديه من الاصلاحيين قد غيروا الشىء الكثير ، لكى يعطوا للدين اليهودى صورة إنسانية ووطنية دون أن يضطروا إلى القيام بالتعمية على شكل شريعتهم كما فعل المارانوس والدونمة مثلا ، وكان من أهم التغيرات التى أحدثوها مايلى :

١ ـ إنقاص الأدعية والصلوات إلى الحد الادنى ، مع إباحة تلاوتها بلغات البلاد القومية حيث يعيش هؤلاء اليهود .

٢ ـ ترك الترانيم الشعبية العبرية والآرامية القديمة .

٣ ـ ادخال الآلات الموسيقية وفرق الانشاد الجماعى « الكورس » من من الجنسين فى المعبد والترنم بألحان حديثة مؤلفة ومكتوبة (على النوتة) خصيصا لطقوسهم ، وانتهى ذلك التطوير بادخال الارغن فى المعبد اليهودى تقليدا للكنائس والكاتدرائيات .

٤ ـ أنكروا فى اعتقادهم أن يكون « الخلاص » معناه إقامة دولة فى فلسطين ، وهم بذلك كانوا ومايزالون من الفرق غير الصهيونية ، فعندهم أن الخلاص يكون فى الدنيا بالحصول على المساواة فى الحقوق المدنية ولاضرورة إطلاقا لربط ذلك بفلسطين أو بغيرها من البلاد .

٥ ـ خالفوا جميع اليهود إذ قالوا أن الله فعل خيرا ببنى إسرائيل إذ فرقهم فى الأرض ، فهم بذلك يستطيعون أن يعيشوا فى كل الآفاق وأن يقيموا فيها الدليل على الدعوة الموسوية .

٦ ـ ولأنهم صرفوا النظر عن إعادة بناء الهيكل فى أورشليم بالذات ، فان كل معبد من معابدهم فى أى مكان يطلق عليه اسم « الهيكل » .

٧ ـ أباحوا اختلاط الجنسين من المصلين فى هذا « الهيكل » .

٨ ـ اهتموا جدا بالوعظ والارشاد فى داخل الهيكل ، بحيث كانوا يختارون لكل هيكل ، إلى جانب « الحزان » وهو الحاخام الذى الذى يقوم بالكهانة فى أثناء الطقوس ، خطيبا يتحرون فيه طلاقة اللسان وسعة العلم وقوة التأثير فى الجماهير ، ويسمى عندهم « مَطيف » . ومن أشهر هؤلاء الوعاظ الخطيب اليهودى الاصلاحى المشهور

أبراهام جايجر ، الذى تولى هذا المنصب بمدينة فيزبادن . واليه يرجع الفضل أيضا فى نشر مجلة ناطقة بالاتجاهات الفكرية لهذه الطائفة ابتداء من سنة ١٨٣٢ ، واسمها « الصحيفة العلمية للاهوت اليهودى » . وفى سنة ١٨٣٨ انتخبته طائفته حاخاما أكبر لها فى مدينة برسلو ، منافسا لحاخامها القديم « تيتكين » ، وقد أحدث هذا الانتخاب خلافا حادا فى زمانه فى تلك المدينة .

وأول هيكل خصص للطائفة هو الذى هيأه بيته اليهودى الإصلاحى إسرائيل يعقوبزون وكان ذلك فى « زيزن » بألمانيا ، ثم هيأ هو نفسه هيكلا آخر فى بيته ببرلين سنة ١٨١٥ . وفى سنة ١٨١٨ شهدت الطائفة تشييد أول هيكل يبنى خصيصا لاقامة الشعائر ، فى الثغر الألمانى الكبير همبورج ، وكانت الصلوات ، معظمها إن لم يكن كلها ، تقال فيه باللغة الألمانية لاالعبرية طبقا لمبادىء اليهود الاصلاحيين[١] .

وطبيعة هذه الطائفة كانت تفرض عليها أن تظل نشيطة لا تتوقف عن الحركه ، والواقع أنها لم تقصر من هذه الناحيه ، فكان أقطابها ما يزالون يجتمعون فى مؤتمرات عامه ، وكان من أوائلها مؤتمر فى برنشويج وآخر فى فرانكفورت وثالث فى برسلو فى السنوات من ١٨٤٤ الى ١٨٤٦ .

والذى كان يقضى بهذا النشاط هو الرسالة الضخمه التى كانت لهذه الطائفه حيال اليهود ، فقد كان كثيرون منهم يخرجون من الدين ويعتنقون المسيحيه ايثارا للسلام ورغبه فى الاندماج كما كان يهود أوروبا الشرقيه قد بدأوا ينظرون الى فلسطين ويهاجرون اليها تلك الهجرات الأولى

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد التاسع ، مادة «ريفورم».

التى سجلها القرن التاسع عشر تحت اسمين هما « بيلو » ، و « حب صهيون » . هذا إلى جانب يهود الجتو ، ويهود أسواق التجارة والأوراق المالية الذين لا يعبأون بشىء من كل ذلك فى الأغلب ، ثم اليهود التقليديون الذين يعرفون الدين والتاريخ ولكنهم يريدون أن يسيروا بالأمة فى نهج معين مرسوم أخذوه عن شيوخهم ليضمنوا به لأنفسهم الصدارة والجاه والنفوذ ، وهؤلاء هم الذين انبثقت منهم الصهيونية فيما بعد .

وكان على الاصلاحيين أيضا أن يواجهوا العالم غير اليهودى ، مطالبين الأمم الأخرى بالشرائع الضرورية للاندماج والمواطنة ، أى أنهم كانوا مضطرين إلى أن يخوضوا معركة الحـــرية وحقوق الانسان فى نفس الوقت .

لهذا كله لم تسر الأمور بالنسبة لهم يسيرة هينة بل لقوا معارضات شديدة جدا كان أولها من جانب الداعية العنصرى الصهيونى سمولنسكين ومدرسته التى ضمت جماعة من أمثال الكاتب والمفكر الصهيونى موسى هيس ومن قبله الحاخام المتطرف صبى كاليشر .

وفى حمأة هذه المعركة كانت أحيانا تقع بعض الأخطاء ، ولعل أكبرها من جانب الاصلاحيين أنهم لم يبذلوا جهدا كافيا فى مواجهة اليهودية المتعصبة فى أوكارها فى أوروبا الشرقية مكتفين بألمانيا والنمسا وبعض بلاد أوروبا الغربية وأمريكا . كذلك حدث فى أخريات القرن الثامن عشر ، والنقاش محتد بين هؤلاء اليهود المتحررين وأعدائهم اليهود المتعصبين الذين سموا نفسهم الأرثوذكس ، أن ظهر كتاب فى الشريعة اليهودية منسوب إلى أحد فقهاء القرن الرابع عشر المشهورين واسمه الربى

آشر بن يحيئيل وطبع فى برلين سنة ١٧٩٣ بعنوان « بساميم روش » أى عطور الربى آشر . وكان من الواضح أن هذا الكتاب مزيف ، ومنحول لهذا العالم القديم الذى لم يكتبه ، فقد وجد الارثوذكس من اليهود أعداء الاصلاحيين فى ثناياه كثيراً من الشرائع المتساهلة المتطورة التى تحدد أنهم هم الذين كتبوه ، فمن ذلك قوله بتحليل أكل الأرز والبقول الجافة فى أيام الفصح ، واليهود يحرمون ذلك وتحليل شرب اللبن والنبيذ عند الجوييم ، أى الكفار ، وهو أيضا حرام . والغاء بعض أيام الصوم أو تخفيف أحكامها جدا ، مثل صوم استير ، والتاسع من آب الذى هو ذكرى تخريب هيكل أورشليم الثانى سنة ٧٠ ميلادية . كما ورد فيه تحليل الانتقال بالعربات يوم السبت وهو أمر محرم أيضا ... الخ . وأسفر التحقيق عن أن مؤلف هذا الكتاب هو الحاخام الاصلاحى شاءول ابن حاخام برلين الأكبر هيرشل ليفين . وقد أدى ذلك الخطأ الجسيم من تزييف الكتاب وانتحاله إلى انكماش كثير من اليهود عن حركة الاصلاحيين ، واستغلال المتطرفين من اليهود المتعصبين لهذه الوقعة فى الدعاية ضد الفكرة الاندماجية والاصلاحية .

ومن هذا الصراع خرجت الصهيونية تدعى أنها تحمل الحل الأمثل لمشاكل اليهود ، بانشاء وطن لهم فى فلسطين يعيشون فيه مسايرين للتقدم العالمى دون أن يضطروا إلى تغيير لغتهم أو تقاليدهم أو شريعتهم، أى أنها تزعم ارضاء الارثوذكس والريفورميست جميعا . وكانت النتيجة المريرة أنها لم تفلح فى ارضاء أى منها ، بل أضافت إلى اليهودية أعداء جددا كانوا بالامس من أوفى الأصدقاء هم سكان ذلك الشرق العربى

والاسلامى بكل الثقل العددى والاقتصادى والحضارى الذى يمثلونه . وربما كانت الكلمة الأخيرة فى مستقبل الحركة اليهودية للاصلاحيين لم تقل بعد، والمستقبل وحده كفيل ببيان ذلك .

١٣ — الفلاشة

هم طائفة صغيرة تتبع الشريعة الموسوية بصورة خاصة بها ، وتعيش فى الحبشة ، ولولا ما نعرفه من المحاولات الدائبة من جانب الصهيونية وإسرائيل للتسلل فى داخل الشعوب والأمم الافريقية لكان من الممكن ألا نذكر الفلاشة بين الطوائف التى أردنا اعطـــاء فكرة عنها فى هذا الكتاب. أما وافريقية معرضة لهذا التسلل فقد وجب أن نعرف مايمكن أن يكون ركيزة لإسرائيل ومعتمدا فى القارة الافريقية .

والفلاشة نموذج حى يثبت بما لايقبل الشك خرافة الدعوى العنصرية اليهودية ، فمن الناحية الجثمانية هم افريقيون لايمتون إلى الجنس اليهودى بأى شبه ، ويشبهون غيرهم من الأحباش المسيحيين والمسلمين ، بل ان معظمهم أشد سوادا من لون البشرة لدى الحبشى المتوسط . وهم لايعرفون اللغة العبرية ، ولا يؤمنون بطبيعة الحال بالمشنا ولا التلمود ، ولكنهم يؤمنون بالكتاب المقدس ، أى برسالة موسى ومن بعده من الأنبياء ، ويقيمون السبت ويحتفلون بأكثر الاعياد ويحافظون على الشرائع الخاصة بالختان والزواج والجنازة وما إلى ذلك . ولهم معابدهم الخاصة بهم وهذه المعابد يقوم بالخدمة فيها كاهن يسمى « نازير » وهى لفظة عبرية معناها المنقطع للطقوس الدينية . ووظيفته عندهم كوظيفة الحاخام ، ويشترط أن

يكون متزوجا . ومن رجال الدين عندهم نوع يسمونه «كوهين» وهى كلمة عبرية معناها الكاهن ولكنها تعنى عندهم الجزار المأذون بالذبح الشرعى وله مساعد يسمونه باسم محرف عن اليونانية هو «ديبتيرا» .(١)

والمحاولات مستمرة منذ ما قبل قيام إسرائيل فى إستقطاب بعض الفلاشة وتعليمهم فى الأوساط الصهيونية ليكونوا طليعة عملاء إسرائيل فى الحبشة .

والسؤال الذى يتبادر الينا الآن هو من أين جاء هؤلاء الفلاشة إلى الحبشة ؟ لعلهم سلالة بعض الذين تهودوا من اليمن فى أيام الملك يوسف ذى نواس ، أو لعلهم أحباش اعتنقوا اليهودية على يد بعض هؤلاء المتهودين من اليمن ، أو عن يد بعض المغامرين الذين كانوا يقومون بالتجارة فى بحر العرب وخليج عدن ، بل من المحتمل أيضا أن يكون الذى هودهم داعية من بين اليهود المصريين ، تماما كما حدث فى تنصير المسيحيين من الأحباش على يد القديس المصرى الأنبا مقار . كل ذلك ما يزال حتى الآن يبحث عن وثائق وأدلة للوصول به إلى نتائج يقينية .

١٤ – بنى اسرائيل

وهذه فرقة عجيبة من اليهود توجد فى الهند ويقيم أكثرهم فى ضواحى بومباى .

وإقامة هؤلاء اليهود فى الهند ترجع إلى ما قبل العصور الوسطى ، فقد ذكرهم الرحالة اليهودى الأندلسى بنيامين التطيلى ، كما ذكرهم موسى بن ميمون أيضا .

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد الثامن .

ولون هؤلاء اليهود أميل إلى البياض ، وهم يؤمنون بالكتاب المقدس ولكنهم لايعرفون التلمود كغيرهم من هذه الفرق الصغيرة النائية . ويقال أن السبب فى تسميتهم بنى إسرائيل أن كلمة يهود كانت غير محببة عند الأمم الأخرى . فلما دخل العرب الهند ، ووجدوا فيها هؤلاء المؤمنين بشريعة موسى ، ولاحظوا فيهم الاستقامة والمسالمة والمظهر الذى يدعو إلى الاحترام ، لم يسموهم اليهود بل بنى إسرائيل . ومعظمهم يشتغلون بالتجارة وببعض الحرف اليدوية .

وتمتد هذه الجيوب اليهودية الصغيرة المنعزلة فى داخل القارة الاسيوية ، لتظهر من جديد فى الصين حيث يسمون أيضا بنى إسرائيل . ولم يكتشف وجودهم إلا فى أوائل القرن السابع عشر وهم يعيشون على طريقة الصينيين فيما عدا العبادة ، إذ لهم معابد يصلون فيها السبت ، أمام هيكل خشبى يسمونه «عرش موسى» (١)

والآن ونحن ننهى هذه الجولة السريعة الموجزة فى الفكر الدينى الإسرائيلى نترك مكانا خاليا لفرقة من الغلاة ، الذين أصابوا الفكر الدينى الاسرائيلى بأقصى ألوان التهويش والتشويه وهم فرقة الصهيونية . فهذه قد عولجت ، وستعالج من جميع نواحيها ، أو هكذا يجب ، بأقلام عربية وعالمية نزيهة كل منها يتناولها فى حدود تخصصه ، لشدة خطرها على مستقبل اليهودية ذاتها وعلى مستقبل السلام العالمى والاخاء بين البشر.

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلدان الثالث والرابع .

الفهـــــــارس

١ - فهرس المصادر والمراجع

أ - المصادر والمراجع العربية:

١ - الأب مزمورة

السامريون ، طبع نابلس

٢ - مروان بن جناح ، أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي

كتاب اللمع ، نشره بالعربية المستشرق يوسف درنبورج

باريس ، ١٨٨٦ م

٣ - سعديا بن يوسف الفيومي

تفسير التوارة، أخرجه وصححه وبينه بحواش بالعبرانية يوسف درنبورج

باريس ، ١٨٩٣ م.

٤ - سيجال ، م. ص.

حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمه إلى العربية من العبرية الحديثة

وعلق عليه الدكتور حسن ظاظا

لبنان ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٦٧ م.

٥ - العهد العتيق (الكتاب المقدس)

بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٤

٦ - الكتاب المقدس

٧ - م. حاى بن شمعون
الاحكام الشرعة فى الأحوال الشخصية للاسرائيليين
مصر ، مطبعة كوهين وروزنتال ، ١٩١٢ م .

٨ - مراد كامل (دكتور) ، يسى عبد المسيح
الأسفار القانونية التى حذفها البروتستانت
الاسكندرية ، مدارس الأحد المرقسية ، ١٩٥٦م .

٩ - هلال يعقوب فارحى (دكتور)
سدور فارحى
مصر ، مطبعة الأدون روبرتوموسكوفتش ، ١٩١٧ م

ب ـ المصادر والمراجع الاجنبية :

١. دائرة المعارف العبرية (أوتسار يسرائيل) .

٢. Albright, W. F.
The Archaeology of Palestine.
Pelican, 1963.

3. Allegro, J. M.
The Dead Sea Scrolls.
Pelican, 1956.

4. Berman, David
Imiriation au Judaisme.
Paris, 1937.

5. Cazelles, Henri
Etudes Sur Le Code de L'Alliance.
Paris, 1946.

6 Chajes, Z. H.
The students guide through the talmud.
Translated by Jacob. Shachter.
London, 1952.

7. Chiarint, L'abbé L.
Le Talmud de Babylone.
Leipzig, 1831.

8. De Pauly, Jean
Code civil et pénal du Judaïsme.
Paris, 1896.

9. Dhorme, Lep. Paul.
Le Livre de Job
Paris - Gabalda, 1926.

10. Driver, S. R.
An Introduction to the Literature of The Old Testament.
England, 9 th ed. 1929.

11. Dupont - Sommer, A.
Aprçus Preliminaires sur les Manuscrits de la Mer Morte
Paris, 1950.

12. Dupont - Sommer, A.
Nouveaux Aperçus sur les Manuscrits de la Mer Morte.
Paris, 1953.

13. Fargues, Paul.
Introduction à l'Ancien Testament.
Paris, 1923.

14. Freud, Sigmund
Moïse & Le Monothéisme
Traduit de l'allemand par Anne Berman.
Gallimard - Paris; 8e ed, 1948.

15 Gaster, Theodor, H.
The Dead Sea Scripture
New York, 1956.

16. Gautier, Lucien

Introduction à l'Ancien Testament

Payot - Suisse, 1939. 2 Vols.

17. Graetz, H.

Histoire des Juifs

Traduit de l'allemand Par Moise Bloch.

Paris, 1897.

18. Greene, Benjamin

Résumé Chronologique de l'Ancien Testament.

Lyon, Genéve, 1909.

19. Guignebert, Ch.

Le Monde Juif au Temps Jésus.

Paris, 1935.

20. Guignebert, Ch.

Le Monde Juif Vers le Temps de Jésus.

Paris, 1950.

21. Harison, R. K.

The Dead Sea Scrolls.

London, 1961.

22. Hassan Zaza

L'Oeuvre Grammaticale d'Ibn - Djanâh et ses rapports avec les diffèrentes Théories Arabes.

رسالة دكتوراه للسربون - باريس ١٩٥٨ .

23 James, M. R.

The Apocryphal New Testament.

Oxford, 1929.

24. La Bible.

Traduite du Texte Original Par les membres du Rabbinat Français.

Paris, 1900

25. Lagrange, M. .

Le Judaïsme avent Jesus-christ

Paris, 1931.

26. Litiré, E.

Dictionnaire de la langue française

Paris, 1883.

27. Mielziner, Moses

Introduction to The Talmud.

New York, 3 d ed. 1925.

28. Monniot, Albert.

Le Crime Rituel chez les Juifs.

Pierre Tequi, Libraire - Editeur

Paris, 1914.

29. Roseberg, J.

Lehrbuch der Samaritanischen Sprache und Literatur.

30. Voltaire

Dictionnaire Philosophique.

Paris - Garnier, 1954.

31. Zockler, D. otto

Die Apokryphen des Alten Testaments.

طبع ميونخ ١٨٩١م .

٢ ـ فهرس الأعلام

(ح)

[ز]

[س]

[ص]

٣ـ فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة

الفصل الثانى

أصول العقيدة اليهودية

تفكير اليهود فى الغيبيات :

الفصل الثالث

الشريعة الموسوية وتطوير الدين اليهودى

الفصل الرابع

الشعائر اليهودية

الفصل الخامس

بعض الأحكام التى تميز شريعة اليهود

الفصل السادس

المذاهب والفرق

تنبيـــه

وقعت بعض الأخطـــاء المطبعية مثل :

«السفر» وصحتها «السفرد» صفحة ٢٤٥

وهناك أخطاء أخرى لاتخفى على فطنة القارىء .

المؤلف